

# فِكْرُ وَفَن





الْأَبَدِ كَرِ اللَّهُ  
تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ

سُورَةُ الرَّحْمَةِ آيَةُ ٣٠

**WAHRlich,  
BEI DEM GEDENKEN AN GOTT  
WERDEN DIE HERZEN STILL.**



ال فهرست

- ٤ ادراك الواقع في العلوم الطبيعية، بقلم جرهارد فرای  
Gerhard Frey: Erkenntnis der Wirklichkeit in den Naturwissenschaften
- ٧ انامارى شيميل : هرمان هسه (١٨٧٧—١٩٦٤) ·  
Annemarie Schimmel: Hermann Hesse ·  
هرمان هسه: حظ · Hermann Hesse: Glück
- ٢٠ هابزش كولهاوسن: الزجاجه الفاطمية: «كأس هيدفج»  
Heinrich Kohlhaussen: Das Hedwigsglas der Veste Coburg
- ٢٢ اشعار في الكؤوس الزجاجية ·  
Gedichte über Gläser ·  
٢٥ فنون الانسان في ابداع الزجاج ·  
Die wunderbare Entwicklung der Glaskunst ·  
٢٣ ورقة من تاريخ الاستشراق في المانيا: تيودور نولدكه عن ايتو ليمان; ترجمة و تعليق : محمد علي حشيشو  
Aus der Geschichte der deutschen Orientalistik: Theodor Nöldeke, von Enno Littmann. Bearbeitet von M. A. Hachicho
- ٤٤ روبرت شويترز: بعض النقاط البراقة من علم حياة الجزليات  
Robert Schwyzer: Aus der Molekularbiologie

يتم الناشر ودار النشر شكرهم لكل من سرفهم بموته في تحضير هذه المجموعة  
ويدون مساعدتهم لكان من المبال ان تحصل هذه المجموعة على شكلها الحالي الجليل  
نشدا لقراء الكرام ان يداوموا في ارسال ملاحظاتهم وآرائهم القيمة ونحن لهم من الشاكرين

## الفهرست

- ٦٠ هانس اولريش بوف: التقدم و التقليد في علم الجراحة  
Hans Ulrich Buff: Fortschritt und Tradition in der Chirurgie.
- ٦٧ روبرت موزيل: الشحرور  
Robert Musil: Die Amsel
- ٧٨ محمد الفتوري: البنفسجيات الثلاث  
Muhammad al-Falturi: Die drei Veilchen
- ٨١ عبر الحدود: ملاحظات حول لوحة للرسم الباكستاني زيري  
Jenseits der Grenzen: Gedanken zu einem Bild des pakistanischen Malers Zubairi
- ٨٤ قال كساجم يصف اصطلاها  
Kuschadschim: Das Astrolab (deutsch von Christoph Bürgel)
- ٨٦ تاريخ: المؤتمر الدولي الاول لعلماء الدراسات الايرانية في طهران  
Chronik: Der Erste Internationale Iranistenkongress in Teheran
- ٨٩ طلائع الكتب . Buchbesprechungen
- صورنا الغلافيين: بحيرة «بند امير» في افغانستان يطل عليها مزار لعل بن ابي طالب  
تصوير: اناماري شيمل



## ادراك الواقع في العلوم الطبيعية

بقلم جرهارد فراي

لم يعد هنالك وجود لصورة العالم كما كانت عليه في العلوم الطبيعية بالقرن التاسع عشر. فالعلم الطبيعي الحديث قد أدى إلى عدد كبير وقدر حاسم من المعارف الجديدة والمهمة. إلا أن هذه لم تتكامل بعد لتشكّل لنا صورة موحدة جديدة للكون في العلوم الطبيعية.

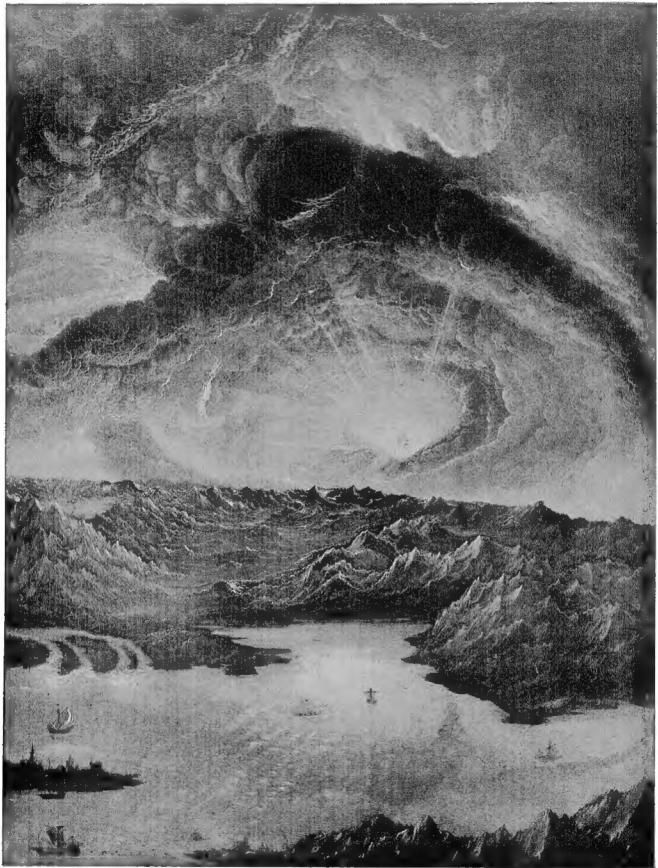
ومع ذلك توجد مميزات مشتركة بين كافة النظريات المختلفة حول هذا الموضوع. فمن وجهة نظر الفيزياء الحديثة نجد أن الفكرة السائدة حتى الآن هي أن العالم شيء وإدراكنا له شيء آخر. وبالطبع كان معترفاً بهذا المبدأ في الفيزياء الكلاسيكية. إلا أنه كان من الممكن آنذاك القول بوجود أجسام ذات بناء معين، كتصور ذرات أو موجات مادية وسط غاز وإثيره مادي بدوره. أما الآن فلم يعد في الامكان مواصلة تعريف خصائص المادة بكونها هيلية ومادية، حسب المفهوم التقليدي.. أما أن هنالك شيئاً موجوداً بالفعل فأمر لا يتطرق إليه شك. إلا أنه يدوّل أنه لا سبيل إلى إيجاد الدليل القل على وجود العالم الخارجي. والأمر شبيه هنا بالتعرف على الذات.

ذلك أنه لا يوجد ثمة «دليل» على وجود ذاتي ووعي الباطن. فهو إذن ضرب من الحدس أو البصيرة الذاتية، ذلك الذي يجعلني أقرض وجود ووعي وذاتي والعالم الخارجي جميعاً. على أن لا أملك - رغمًا عن ذلك - أن أشكّ حقاً في وجودي وكونية العالم الخارجي. ومن هنا يبرز السؤال الباحث عما أستطيع التعرف عليه من الواقع.

نحن - من جانب - نفنت الواقع على شكل جزئيات كائنة «على هذه الصورة»، وموجودة هنا والآن على هيئة مفردة يمكن التحقق منها بالإشارة إليها في مكان محدد. ومن ناحية أخرى نجد العموميات التي نطلق عليها ناموس الطبيعة. وهذا الأخير هو موضوع العلوم الطبيعية، الذي عن طريقه تبين لنا أن الناظر كائناً في صلب العلم الطبيعي. التناظر بمعناه الرياضي العام.

وقد تبين على مفاهيم الحياة اليومية أن تخضع لتعريف محدد، وأن تتخلص بالتالي من اسقاط الانسان لذاته عليها حتى يمكن الاستعانة بها على نحو علمي دقيق. ومع ذلك فإن مفاهيم علم الفيزياء تستمد من سلوك الانسان وتصرفه بإزاء موضوعات بيئته. وقد تبين علينا أن نستوّق من أن تلك المفاهيم لم تعد كافية للإحاطة بمجالات أصغر وحدات الوجود وأكبرها على نحو متكافئ. إذن فعلينا الاستغناء عن تصور مسار للكون يفضع للحمية العلية خضوعاً تاماً. خاصة وأنا لا نعلم ما يفضي به تطبيق مثل هذا المفهوم على كل ما في الكون.

ونحن لم نعد - إلى حد ما - نكتفي بتأمل الطبيعة ومراقبتها من الخارج. بل تأخذ في الاعتبار المبدأ المعروف بأننا أنفسنا جزء من الطبيعة. وبالتالي فكل عملية تنصدي فيها التعرف على الطبيعة، هي في حد ذاتها تدخل في مسار عمليات الطبيعة. ولعلنا نرى أي نتائج ترتب على ذلك في نظرية الكم. إن الانسان كائن ذو سلوك. وهو أثناء سلوكه يعد جزءاً من عمليات الطبيعة. ومن ناحية أخرى هو لا يتأتى له التعرف على الطبيعة دون أن يسلك. ونحن لا نرى أن السلوك يقتصر على التجربة وإنما يتعد فيشمل الملاحظة الواعية كذلك. وبهذا المعنى لا يمكن التعرف على الطبيعة دون فعل سلوكي، أو ما يدعى بالبرهانانية Techné، وهي الأصل لكلمة تكنولوجيا = Technik. ويتضح في عالمنا الحديث مدى الترابط الوثيق بين العلوم الطبيعية والتكنولوجيا.



البرشت آلتورفر: جزء من لوحة قتال الاسكندر (عام ١٥٢٩) وهي مخفوفة في ميحف Alte Pinakothek بمونيخ.

Albrecht Altdorfer: Detail aus der „Alexanderschlacht“ (1529)

نشر دار نشر البرت سكيربا بميخيف Edition d'Art Albert Skira لإعارتها لنا ككليه هذه اللوحة.



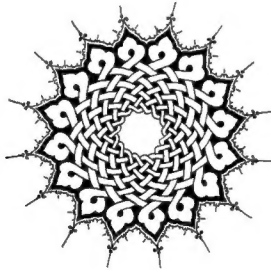
ولعل «كانت» كان على حق حين قال بأن أشكال تصور الانسان وتفكيره تتدخل في إدراكه للموضوعات وتعرفه عليها. وإنه لفي مقدور الانسان أن يطور في علم الرياضة ما شاء من نماذج وتكوينات. وهذه تواصل تطورها سلفا باعتبارها مجرد إمكانيات شكلية للتفكير. وإن التعرف على العموميات لا يتأتى إلا لأنها متساوية ومتشابهة ومتكررة. وليست الصيغ الرياضية المجردة والمطابقة هنا سوى المعادلات. إنها صيغ الفكر المخرد التي بها وحدها نستطيع أن نتصور القوانين العامة في الطبيعة.

إن الانسان، بمجرد أن يضع لنفسه هدفا، فهو يسلك. ومرة أخرى عليه أن يضع في اعتباره تلك الصيغ الفكرية العامة. وعليه فلا عجب إن كانت التكنولوجيا تنهض على معادلات ومتناظرات. وكما أن الانسان، باعتباره صاحب الوجود العام الثابت في الطبيعة، لا يرى إلا متناظرات، فانه يعود ليطبع محاولاته التكنولوجية لتحويل بيئته التي يعيش فيها بالمعادلات. والآن نجدنا في استزادة دائمة من تطبيق الأجهزة والآلات التكنولوجية في مجوئنا التجريبية. وعليه فان تلك المتناظرات التي نطعمها ونسبغها على الأجهزة المذكورة لا بد أن تدخل بدورها في نتائج البحوث التجريبية. وإن المتناظرات، بهذا المعنى العام، هي البناء المسبق لفكرنا البشري. وربما كانت كافة القوالب المسبقة، التي يقوى فكر الانسان على صياغتها، من هذا النوع. وإن أهم واجبات علم الرياضة لتقوم على تطوير هذه القوالب. وهكذا تتمتع الرياضة بأهمية أساسية. فان تحويل القضايا إلى معادلات رياضية ليبدو بمثابة الصيغة الحقة للسيطرة على الكون. وما الطبيعة والتكنولوجيا سوى وجهين لهذه المهمة الأحادية؟

عن كتاب جرهارد فرای:

Gerhard Frey: Erkenntnis der Wirklichkeit. W. Kohlhammer, Stuttgart 1965.

ترجمة: مجدى يوسف



تعرض الزنطاف متناظرات متنقلة ذات بعد واحد وبعدين. ومن أجمل الأمثلة على ذلك ما خلفه فنانون العرب في القرون الوسطى من زخارف متنوعة (الارابيسك). ونحن نعلم اليوم أنهم قد عمروا على كافة المتناظرات الممكنة من النوع المتصل ذى البعدين.

# هرمان هسه (١٨٧٧-١٩٦٣)

شاعر النور والظهور...

بقلم اناماري شميل

أن يلتقي بهم أو يختلط وإياهم. وكمن مرة رددت أشعاره وأنا في ظلمات الحرب ... ومنه الشعر الذي أفاد فيه باشياقه للموت وأخيه العزيز الذي ينتظره على طبعه أبنا ولي؛ ومنه إياته حول القرائة الزرقاء المشابهة لقطعة من الصلصال ... تبدو لحظة ثم تغيب على ما تبدو السعادة للحظة واحدة ثم تغيب ولا يمكن الاحتفاظ بها ... وهنا السحاب الأبيض الذي شبه الشاعر محبوبته به؛ السحاب البتولي الذي لا يمسه يد عاشق مشتاق ... كل ذلك في قصائد صغيرة جميلة الإيقاع ذات أربعة أو ستة أبيات تركزت فيها خواطر الشاعر وأحاسيسه على أكل صورة كما يركز المصور الشرقي لتجارب حياته في حركة واحدة لقلمه أوريثته على ورقة شفافة.

لم أكن حتى ذلك الوقت قد اطلعت على نثر هرمان هسه إلا فيما ندر، فضلا عن أن العثور على آثاره كان متصرا في ألمانيا آنذاك، إلا أن تلميذي المذكور كان قد جمع منها ما جمع، فجعلنا نقرأها في ذلك اليوم لمدة ساعات وساعات ...

لم تكن المراسلة ممكنة بين ألمانيا وسويسرا في ذلك العام غير أننا وقفنا بعد عام أو عامين في إيلاغ تخميناتنا وبالغ إعجابنا إلى شاعرنا المجهوب الذي كان قد حاز على جائزة نوبل في عام ١٩٤٦؛ فأجابنا بلطف العبارات ورتيقها. وقد ظل يبعث إلينا بمقتلات وأشعاره، فلم ينقطع جبل الصلة الفكرية بينما بل دماء أكثر من اثني عشر سنة حتى توفي في عام ١٩٦٣. وفي ذات مرة أهدانا لوحة صغيرة من رسمه. ولأن دل ذلك على شيء فإنا بدل على أن هرمان هسه لم يكن شاعرا كبيرا فحسب بل أيضا إنسانا كبير القلب، ورائدا لا يستكتف أن يمد يده لكل من رأى فيه استمدادا فنيا، وأن يصادق ويأخى كل من وجد لديه اهتماما خاصا بأبداع الانسان. كان قد عرف الحياة، بظواهرها المشبعة وبواطنها المظلمة، فأحبها على

كانت أيام صيف عام ١٩٤٧ ولياليه حارة حارة. لم تصادفنا قطرة مطر واحدة منذ أسابيع .. والجو صعبت رائحته بالياسمين والزيثون حتى أخذتنا الدهشة وتداعت إلى ذاكرتنا أبيات تغني بها شاعر روماني، من يكون سوى «هرمان هسه»، وتقول كلمات قصيدته:

نحن، أبناء شهرتموز  
ننشق عير الياسمين الأبيض  
نسير نريض في بساتين مزهرة  
ساكين ضيعائين في أحلام مقبضة.

كنا ننصور جوعا، وما كنا نتوق إلى اللحم الذي نسينا مذاقه منذ أعوام وأعوام، ولما إلى غذاء الروح الذي لم نعرفه منذ اندلعت الحرب، بل منذ أن استلم النازي زمام الحكم في ألمانيا .. منذ أكثر من عشرة أعوام آنذاك..! جاعني في تلك الأيام الحارة أحد تلاميذي، وهو شاب يتألق نشاطا وذكاء، وكان في لباس أبيض وفي يده وردة حمراء: «يا أستاذتي» هكذا بادرنى: «أود أن ادعوك للاشتراك في احتفال خاص، فتحن بصدد تكريم الذكرى السبعين لمولد هرمان هسه؛ وسوف يجتمع لهذا الغرض في غرفة صديقتي «ج» في تمام الساعة الخامسة من الثاني من شهر تموز ... فلدبه بعض المأكولات (كان من أهل الريف)، ولدى الكتب الجديدة لهرمان هسه ...

فلنحتفل بهذا اليوم !!  
سرتني هذه الدعوة إذ كنت أحب أشعار هذا الأديب الذي فضل أن يعيش خارج وطنه - ألمانيا - وأن يقيم في جنوبي سويسرا. بل أذكر أن أول ما حفظته من الشعر في طفولتي كان له، وهو عبارة عن ثلاث رباعيات يصف فيها حال الانسان الذي يتمشى في غابة خيم عليها الضباب ... ويصف في هذه الأسطر المملوءة الإحساس العميق بالرحشة حتى في وسط الملأ، حيث يرى المرء سواه من الناس بما فيههم أحبابه وأقاربه وكانهم أشباح لا سبيل إلى



Schönen Dank u.  
freundlichste Grüsse  
auch von Ihrem  
Herrn

III. 55

لوس بالولين المالية طرمان هسه، كان قد اهدا لولتة هذا المقال.

الغاية السوداء. كانت أمه ابنة لأحد المبشرين المسيحيين في الهند، وهكذا نشأ هسه في جو بروستانتى ضيق الأفق. فلم يطق هذا الجو الخلق، وفر من المدرسة حيث يقول في ذلك : «منذ الثالثة عشرة من عمري أيقنت شيئا واحدا: وهوائى سأكون شاعرا أولا أصبح شيئا على الإطلاق...!» وصار هسه بعد ذلك تلميذا حفيا في متجر للكتب، وهكذا تعلم هذه المهنة، ثم نشرت له أشعار صغيرة وقصص من تأليفه، وقد اهتم بطقوس الديانة الهندية خاصة في أثناء رحلة له الى الشرق في سنة ١٩١١. وأقام منذ عام ١٩١٢ في موديرا حيث كان أبوه قد استقر هناك

الرغم من مشاكلها (ولعله أحياها من أجل مشكلاتها) التي تعرف من خلالها على عمق الوحدة وسكونها ؛ وإن شكى منها في صلب شبابه حين أنشد يقول :

تسقط من شجرة حياتي  
ورقة ورقة ...

ومع ذلك كان يعلم ان «الأم الأزلية الأبدية» ستجوب في نهاية الأمر ولدها الإنسان بشفتها وعطفها ...

ولد هومان هسه في ٢ تموز سنة ١٨٧٧ في مدينة كالف Galt، وهي مدينة صغيرة في جنوبي ألمانيا تقع على حافة

لفترة ما، ومنذ ١٩١٩ عاش في قرية «مونتانيولا» الواقعة بإقليم تيجينو في جنوبي سويسرا، حيث ألف فيها بعد آثاره العديدة.

وتعبر في حكايات هسه كلها على الكثير مما يتعلق بحياته الشخصية، ونادرا ما لا تتضمن قصصه على إغامات إلى سيرته وتجاربه. وكان عنوان أول قصة أشهر بها: «تحت العجلة» (١٩١٦)، يروي فيها حياة شاب لا يطيق ترمت المدرسة فيتمتق عذابا لما يصدر عن معلميه ورفاقه من تصرف مئوس ونية خبيثة حتى لكأنه يقع في كل مرة تحت هذه العجلة التي لا ترم ... ولأشك أن هذه الحكاية تنعكس تجارب هسه في شبابه إلا أنها كانت تعبر عن كرهه لجو المدرسة خاصة وأن البطل يموت فيها عاجزا غمزا ... ثم أن هسه نفسه اشتغل بمسائل التحليل النفسي الذي كانت سويسرا مركزا له. ويرى القارئ تأثير ذلك في قصته «ديمان» (عام ١٩١٩) حيث يحلل الأديب مشاعر الشخصيات بدقة ومهارة. وكان هسه يقر أن لهذا الطرز من الأدب قيمة خاصة، إذ هو يعبر عن أزمة الإنسان ويعترف بضييق الزمان بأخلص قدر ممكن. ورغم ذلك فقد كان يعلم أن هذا الأدب يقتصر على المراحل الانتقالية وبالتالي فليست له قيمة مطلقة.

ولم يكن هرمان هسه وإن برع في التحليل النفسي طيبيا أو إخصائيا نفسيا، بل كان على التقيض من ذلك فنانا موهوبا، كان شاعرا ورساما. فن يقرأ قصصه وأشعاره يحس أن هذا الشاعر ينظر إلى الأشياء بعين رسام؛ لا مثيل له في وصف ألوان الزهور في بستان، أو في تصوير أشكال السحاب المارة في نفاخته، حتى أن القارئ ليرى ما تلا أمام عينيهِ كل ما توفر هسه على رسمه بألفاظه المتوازنة وكمالاته المتجانسة.

ولذلك كان من الطبيعي أن يؤلف الشاعر كتابا عن حياة رسام، سماه «الصبغ الأخير لكلينجسور» (١٩٢٠)، مشيرا باسم البطل إلى شخصية «كلينجسور» وهو الساحر العظيم في قصة «پارتيغال» الألمانية القديمة، وأصبح في تأليف الشاعر الرومانسي الألماني «نوفاليس» (١٧٧٢ - ١٨٠١) رمزا للشاعر الخالص الكامل، ثم أنه صار في أوبرا «پارتيغال» لريشارد فاغنر المثال الأمثل للهوس الشهواني ... كل هذه الاتجاهات موجودة في الرسام الذي دعاه هسه «كلينجسور» حيث بلغ قمة أعماله الأدبية في هذه القصة المتألفة ضياعا وبهاء. وكان هسه نفسه من هواة الرسم، وخاصة إنتاج اللوحات الصغيرة لمنظر بستانه وقرية وساحل البحيرة القريبة من داره، وفي بعض الأحيان ألف أساطير

زينها برسم عجيب أهداها إلى أصدقائه، منها أسطورة «بيكتور» (أي باللاتينية: الرسام) وتحولات الغريبة.

وبعد أن فرغ هسه من تأليف حكاية الرسام «كلينجسور» القوية الجاذبة توجه مرة أخرى إلى عالم الشرق وصنف كتابه المسمى «سدهارتا» Siddharta (عام ١٩٢٢)، وهو سيرة شاب هندي يسلك طرقا مختلفة في حياته، ما بين عاشق وزاهد، وعالم وعالم، حتى انتهى إلى المعرفة الكاملة التي تطش بها القلوب وتسكن النفوس. ويقلد هسه فيه أسلوب الكتب الدينية الهندية - وهو ثلاثي - يقدم رويدا رويدا، الأمر الذي جعل تأثير هذا السفر قويا، ولعله الكتاب الأول لهسه الذي أفاد فيه عن فكرته المركزية: عن الوحدة الأصلية التي تخفي وراء الأشكال المتضادة والأسباب المتباينة ...

ولكن لم يلبث هسه أن أقام في هذا العالم الساكن طويلا، بل كان مؤلفه الكبير التالي رسائل وأشعار متفرقة تختلف مضمونها وأسلوبها عن معجويات «سدهارتا» أشد الاختلاف كما يشير عنوان هذا الكتاب إلى خصوصيته الغريبة، وهو «ذئب الصحارى» (١٩٢٧). يحكي هسه فيه سيرة رجل (وكانه يبحث عن نفسه، قائلا «كنت كذا وكذا...»، رجل غريب، يحس في سريرة نفسه أنه نصف إنسان ونصف ذئب، ذئب جوعان تائه في صحارى المدن المتمدية، يبحث عن صيد من الأرانب أو الطيانب وقد صار هذا الإنسان-الذئب رمزا للمرء الذي يعيش في أزمة الحضارة الغربية، باحثا عن معنى جديد لهذه الحياة التي تجردت من كل معنى.

نعبر في هذا السفر على صور أدبية جميلة للحب والعشق، وكذلك على ما يدبش أعقول من ألعاب معنوية، أملا الوجه الأهم لهذا الكتاب الذي يفرج على تقاليد الحكاية الموروثة ويجاوز حدود الأساليب المعتادة فهو الاستبزاء الخفيف الذي مكن المؤلف من وصف تجارب الحياة سواء كانت مرة أو حلوة؛ تتأرجح ما بين الوحشة ولذة المحوى وما بين حلاوة الموسيقى والزينة في الانتحار...

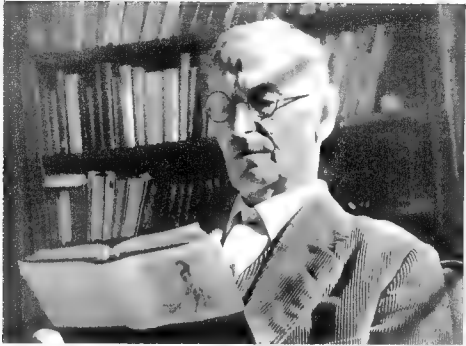
وقد أفاد الشاعر عن هذه الوحشة وتلك العزلة التي حلت به مرة بعد الأخرى يرغم شهرته الواسعة شاكيا إياها ومستنثرا منها:

لأصحى زوجات، وقطط وكلاب

فهم لا يعرفون العزلة الطويلة ...

وكان كل واحد منهم حاضرا (على الأقل نظريا)

ليقتسم معي قطعة خبزه الأخيرة



هرمان هسه

او ليسرع الى مراسم دفن في غاية الحزن ولكن لا وقت لأحد منهم كي يرسل الى بطاقة بريد. وإن كان «دثب الصحارى» صحيحة نفس الشاعر الملعب فقد كان كتابه الذي نشره بعد ثلاثة أعوام أكثر نظاماً وتشكيلاً، وهو «نرجس وغم الذهب» يروى فيه حكاية صديقين، يمثل أحدهما - وهو «نرجس» - العاشق المشغوف بحب النساء، والوله بالفعال، يبحث في كل امرأة يحبها عن «الأم السرمدية» أو القوة الباطنة المؤنثة البالغة المولدة التي خرج العالم منها واليا سيمود. أما «غم الذهب» فهو مثال القوى الروحية، يصير أبا في دير ويشغل نفسه بأرض الأمور الروحية التي لا يشوبها ظل هوى أو عشق مادي. وإن كان هسه في كتبه السابقة قد أشار إلى هذين الطرفين للحياة، أي المادة والروح، المحوى والزهد، الجمال المطلق والجسم في المرأة والمعركة واليقين الذي يحققه الزاهد المصنوف - فقد جعل هنا البطلين يتوزجون لكل من هاتين الامكانيتين. ومقصده أن الحياة لا تنتم الا بالتناوب بينهما، وأن المركز الانهائي للحياة أعلى من المحوى والزهد. أما شكل «الأم السرمدية» التي أحبها هرمان هسه وأكثر من استعملها رمزاً فيصنفها في هذا الكتاب للمرة الأخيرة بهذه الصراحة.

ذلك أن الشاعر توجه مرة أخرى بعد ذلك الى الشرق، ناشرا في سنة ١٩٣٢ كتابه الرومانتيكي «رحلة الى الشرق»

Geknickter Ast am Splittersträngen.  
<sup>Wodurch</sup> Vogels ~~hängende~~, ohne Laub noch Rinde,  
 Ich seh ihn Jahr um Jahr so schön zu,  
 Sein Knarren klast bei jedem Winde.

So knarrt und klast es in den Knochen  
 Von Menschen, die zu alt ~~geworden~~  
~~Sie sind~~ geknickt, noch nicht ~~geknickt~~  
 Zu ~~und~~ zum ~~Stehen~~ wie zum ~~Leben~~  
 Ich ~~habe~~ <sup>habe</sup> ~~knarrt~~ <sup>knarrt</sup> ~~deinem~~ <sup>deinem</sup> ~~Knarren~~ <sup>Knarren</sup> ~~geräusch~~,  
 Dem farrig trocken, ~~starrer~~ Ast  
 Verdrossen klingt ~~es~~ <sup>etwas</sup> ~~und~~ <sup>hangt</sup>  
 Was du mit ~~dein~~ <sup>mit</sup> ~~mir~~ <sup>zu</sup> ~~knarren~~ <sup>knarrst</sup> hast.

— 1. VIII. 62 —

Die zu lang gelebt

Man hört ~~knarrt~~ <sup>knarrt</sup> sobald ein  
 Windhauch ~~lebt~~ <sup>lebt</sup>

آخر آيات طروان هـ

فرع شجرة مقوس بقلاه  
 تدل عاماً بعد عام  
 عشتش خير الريح  
 أغنيته بحفاف ..  
 دورما أوزاق .. دورما له  
 عار يا .. مصفراً .. متعباً ..  
 من طول الحياة،

واستاد سكرات الموت.  
 وطن أغنية  
 في صلاة وكسوة  
 في عباد وروح مكرم  
 طول صيف وصيف  
 وشاء آخر.

(ترجمة: مجدي يوسف)

وإن لم يسلك الهوى والأمانى سبيلاً غير قوومة أمكن إكمال الموسيقى. والموسيقى الكاملة سبب، ينشأ من الموازنة، وتنشأ الموازنة من الحق، والحق من معنى الكون. ولا يستطيع التكلم بالموسيقى إلا من عرف دلالة الكون وتعمق كنهه. وتستند الموسيقى على الوفاق بين السماء والأرض، على اتفاق الظلمة والضياء. أما الدليل المنحلة للأقوام المشرفة على الهلاك فلا غنى لها عن الموسيقى، وإن تكن ذات أنغام مرحة؛ وكلما كانت الموسيقى أكثر انحرفاً وسلباً لأرواح الناس كلما كانت حزينة وكلما كانت البلاد مشرفة على هاوية صهيقة وكان حاكمها أقرب إلى سقوط لا قيامة بعده ... أما موسيقى العصر المنظم فهادئة مرحة، وحكيومات أقطارها معتدلة.»

وكذلك صارت قوانين الموسيقى أصلاً لهذا اللعب الرومى الذى يفهم معناه كل مطلع على ألعاب شعراء الشرق اللذين افتخروا بنسج شبكة دقيقة من تعبيرات متجانسة فى شعر واحد أو بجياكة شبكة لطيفة من كلمات مشتقة. أما معنى هذا اللعب عند هسه فهو الحفاظ على العلوم والفنون والوقوف على الارتباط السرى بين الأشياء والقيم. يحكى المؤلف فى روايته هذه حياة أحد أساتذة هذا اللعب واسمه يوسف كنيشت (أى يوسف العبد) الذى نال المرتبة العليا فى هذا الميدان، ولكنه يفهم أن دوام ذلك الحال من المحال لأنه يتقصه المتيقن، وهكذا ينصرف عن الدنيا ويحتزل التحول الدائم الذى لا قيام ولا حياة إلا به، ويترك وظيفته التى باشرها منذ سنوات طويلة ليرى ابن صديق له، ولكنه فى الصباح الأول وعندما يريد أن يسبح معه فى البحيرة الباردة عند طلوع الشمس إذ به يموت غريقاً ... ثم أضاف هسه إلى هذه الحكاية ثلاث «سيرة» يصف فيها المراتب المختلفة للحياة الإنسانية فى عالم القلماة، وهى سيرة الساحر الذى يستطيع جلب الأمطار، وقصة تدور فى جامعة من الهند وتشبه بما سبق أن دونه هسه ما قبل اثني وعشرين سنة فى كتابه «صدهارتا»؛ أما السيرة الثالثة فهى حكاية قسرين فى أوائل تاريخ النصرارى. كل منها يعكس مسائل واجهها «يوسف العبد» فى حياته، وكان هؤلاء الرجال كانوا هو بنفسه. ثم أن هسه أضاف إلى كتابه هذا بعض القصائد مدعية أن «يوسف العبد» كان قد ألفها فى شبابه. ومن بينها أروع أشعاره التى تنيد عن دينه وفلسفته فى الحياة بكل وضوح، وعنوانه «درجات»، قال فيه إنه يوجد لكل درجة فى الحياة قيمة خاصة وزهر معين، وكما زهر الشجر وتبدل الزهور هكذا تزهو الحكمة والفضيلة لمدة معينة لا تلوم إلى الأبد؛

العالية الثانية ضمن الحليم يجعل عنوان «لعب خرز الزجاج» (١٩٤٣) وهو قصة تربوية نسجت على منوال رواية «فيلهام مايستر» بلجيته. يصف هسه منطقة خاصة من العالم الغربى فى زمان بعيد - ولعله بعد سنة ٢٠٠٠ م - حيث يقم فيها «مختصون المختصون» أى زبدة الجماعة الروحية، على نهج الطرائق الدينية القديمة، دون مال أو زواج وقد شغلهم الفن والعلم الخالص. ولم نظام دقيق فى مراتبهم ولكل منهم وظيفة خاصة فى التربية أو التأليف أو غير ذلك : «وكلما ارتفع شأن المنصب كلما زاد عنق الارتباط، وكلما عظم شأن الوظيفة كلما أصبح الواجب أشد وأقمى، أما إذا كانت الشخصية القوية فإن الاستبداد يصبح أحرم. وقد قصد هسه فى هذه الرواية أن ينتقد السوء من عادات زمانه، كأن يدين الكاتب أو الصحافى مقالة أو كتاباً عن أى موضوع شاء، من تفرعات حياة عائلة قاتل أو عن نجم كرة القدم إلى تاريخ الكلاب المحبوبة عند الأمراء فى سالف العصور، وهو ما يدين اصطلاحاً بال Feuilletonism وهذه العادة التى لا يفرغ منها حتى أساتذة المدارس هى ما يكره أهل هذه المنطقة البعيدة، فان غرضهم الوحيد هو المحافظة على القيم الثقافية والأخلاقية الخالصة. وصار ما قال هسه حول «لعب خرز الزجاج» مركز اهتمامهم وغاية أعمالهم، ومعنى هذا اللعب تصفية القدرة على التفكير وهو أن يوصل العالم تصورات من ميادين مختلفة ويربطها فى شكل كل جديد : فثلاً أن يأخذ صوت نغمة كلاسيكية تذكره بلوحة رسام صينى، ويرى فى هذا الرسم شبهاً لشكل هيكل معاصر، ثم يضم إليه ما يشبه من مصادرة رياضية حتى يجعل العلوم والفنون كلها مترابطة على نحو صحيح (وهذا هو ما يهدف إليه الدماغ الإلكتروني بأسلوب مغاير).

قال هسه أن هذا اللعب الرومى كان قد تطور فى فروع العلم، نحو اللغة أو الرياضيات مثلاً، ثم أن أهل الاختصاص أوجدوا القوانين لإنشاء بناءاً عظيماً معنوياً شاملاً للعلوم والفنون كلها. أما الأصل الأهم لهذا اللعب الخيالى، وكذلك الفن المألوف عند أهل المنطقة البعيدة فهو للموسيقى الكلاسيكية. يصف هسه هذه الموسيقى بكلمات عارف قديم صينى قالاً :

«أصول الموسيقى بعيدة جداً. وهى تنشأ من التوازن وتتأصل فى الوحدة الكبرى. وقد ولدت الوحدة الكبرى القطبين؛ ومن القطبين تولدت قوتاً الظلمة والضياء. فإذا كان العالم يتم بالسلام وإذا كانت الأمور جميعها على خير ما يرام، وإذا تابع تحول رؤوسها، أمكن إتمام الموسيقى؛

وعلى القلب أن يهجر قديم روايله ويقل دوماً على حياة جديدة؛ عليه أن يودع درجة السلم ويعيش بالقوة السحرية الكامنة في ابتداء درجة سلم جديدة؛ والمروء من مكان إلى مكان ومن مرحلة لأخرى بغير تعلق خاص بأحدها. هذا ما تتطلبه روح الحياة، فنحن لا نكاد نألف مكاناً أو نستوطن بقعة حتى تهبط قوتنا وتفترق توترات عضلاتنا وتكسل عن العمل.. أما من كان على استعداد دائم وسفر لا يعرف التوقف فينبو من الفتنور والمعدات الرخيصة؛ ولعل ساعة الموت مجرد باب لأسفار جديدة وسياحة لا نهاية لها. ذلك أنها لا تزال هي صوت الحياة الذي يدعونا إلى طريق جديدة، وإلى التحول والصعود أبداً...

تعال يا قلبي، ودع واشتت!

إن هذه القصيدة التي كتبت بأسلوب جد جميل وإيقاع جد جذاب يذكر بأفكار محمد إقبال الشاعر الباكستاني الذي قدره همه كل التقدير، وقد ركز الشاعر فيها نظرياته بوضوح كامل: كانت آثاره الأدبية من شباهه إلى قصصه الأخيرة، إلى الأبيات التي دونها في أيام شيخوخته معترفة بهذه الحقيقة: أن لا دوام لظواهر العالم، وأن الحياة تتطور في درجات، أهمها ثلاث: عصمة الطفل، ومعرفة الرجل بما أمر ونهى وأتى من ذنوب وهو ضال، وفي نهاية معرفته بالوحدة الأصلية الكامنة وراء لعب الحياة المتباين الألوان أو هو، إن لم يستطع إدراك هذه الدرجة، أصابه الهلاك. ولا يمكن لأحد أن يؤبد أخاه في هذا التطور. فعمل كل إنسان أن يتم حياته حسب مقلوه. وكثيراً ما نمر في آثاره القديمة على مسألة القدر والجبر، أي على مسائل غير قابلة للحل إلا بالإيمان. ما زال همه وإن اعترض على عائلته المتشككة ذات التربة الدينية الضيقة الأفاق، مشغولاً بمسائل الدين طول حياته، وهو يرى في النظام الرباني أحسن إمكانيات الحياة الروحية كما نستدل على ذلك من كتابه «نرجس وفم الذهب» وكذلك من كتابه الآخر «لعب خرز الزجاج»، ولا شك أن القوة الباطنة المهمة لآثاره كانت قوة دينية عميقة.

ولكن دين همه يبعد عن الدين المسيحي الموروث بعداً كبيراً. كان الشاعر يحب العالم الشرقى، يقدر عالم العرب كأحد المظاهر الكبرى للحضارة، وكان قد اطلع على كتب الدين الهندية، وبالأخص البوذية التي تعلم فيها المرافقة والدخول إلى الأعماق الكامنة حيث يكشف أن كلا منا أخوا للآخر، وأن قضاء الواحد مربوط أشد الارتباط بمقدور الآخر. ولكن الحضارة الأكثر تأثيراً فيه كانت حضارة الصين القديمة. فقد كان له ابن عم،

وهو قبلهم جوندترت Gundert، عاش في الشرق الأقصى لمدة ثلاثين سنة أو أكثر وهو اليوم أفضل مترجم للأدب الياباني والشعر الصيني إلى الألمانية: هكذا كان اتصاله الأول بهذه الصنعة وبالأخص بالكتاب القديم الخاص بالتأويل واسمه «إي جينج» I Ging. إن دين الصين القديم يعبر عن التقطين الذين لا حياة إلا بهما، وظن هرمان همه أن وظيفة الشاعر (أو الإنسان الباعث) تكن في «أن يدين الصوت المثني للحياة». وهذا الصوت المثني الذي يشكل الحياة هو ما يدعى «عالم الأب» و«عالم الأم» أي عالم الروح المحض والتجريد وعالم الشهوة والتشكيل الجمالي. أما القنان فعليه أن يوجد هذين الصدين أي أن «يربط التقطين ببعضهما» ويوجد التوازن بين الروح والنفس، بين التجريد والتشكيل أو أن أردت بين التنزيه والتشبيه، وفي التصويرات الصينية، مقابل لذلك، هو ما بين «ين» و«يانج». أما «ين» فهو القوة المؤنثة والوالدة البطيئة الصمرة الطميدة، وأما «يانج» فهو القوة المذكرّة التوليدية العالية الشمية. هذا ما يعبر عنه همه في «نرجس وفم الذهب» بعد أن اقرب من هذه المسائل في كتبه السابقة، ويدعم إفادة هذه الحقيقة في «لعب خرز الزجاج» في قوله أن معنى هذه اللعبة هو التعرف على «سر الكين حيث يتحقق القدوس في اللد والجذر الناجم عن التنفس بين السماء والأرض وبين «ين» و«يانج» أبداً». ومعنى هذا في ألفاظ أهل الدين واصطلاحات المتصوفين أن الحياة الإنسانية لا تصح إلا بالخوف والرجاء، بالتقيض والبسط، وأن سر الألوية يظهر في الجمال والجلال...

وكما يوجد فيها وراء هذين التقطين الوحدة الأصلية يجب على الإنسان أن يتحققها في نفسه، أي أن معرفته لهذه الوحدة لا تبقى مجرد نظرية محضة أو علم فلسفي بل أنه يجد الطريق إلى سر الأمزجاء، إلى أعماق قلبه، التركيز، والمرافقة — هذا هو ما يطلب همه من المريد الذي يدهشه كثرة صور العالم وأشكاله:

الأبل والغرب؛ الوردة الحمراء

زرقة البحر؛ العالم المثلي

ركز نفسك — فإذا به ينحل

إلى ما لا سم له ولا شكل

ركز نفسك وأرجع

تعلم النظر وتعلم القراءة

ركز نفسك — يصير العالم خيالا

ركز نفسك — يصير الخيال يقيناً.



لا يمكن ترجمتها الى لغة أخرى لعذوبة ما فيها من إيقاع.

كان هسه قد عرف أعماق الحياة وظلماتها، ولكنه كان يعلم أن معنى الحياة لا يوجد في الظلمات وفي الآلام، بل أنه كامن وراء كل هذه التظاهرات — كما قال في «لعب غرر الزجاج» بلسان بطل الرواية «يوسف العبد» الذي يخاطب صديقاً له قد يس من معنى الحياة، مشيراً الى السياء بعد الغروب «انظر الى هذا السحاب وأشرطة السماء... لا يوجد عنى الكون وأسراره حيث يوجد السحاب والسواد بل يوجد في صفاء تماماً: هناك حيث النجوم...»

وكثيراً ما اعترف باعتقاده أن المقصد الثاني في حياة الفرد وحياة الكون هو الصفاء الذي يحده الإنسان بعد الابتلاء بل أيضاً في أثناء الآلام — وكان المثال الأعلى عنده لهذا الصفاء البشوش الناشئ من الدموع يتمثل في موسيقى «موتسارت» الموسيقى النضوى الذي يفيد عن هدوء القلب واطمئنائه في صفاء سمائي... وقال هسه (أيضاً في الكتاب السابق ذكره) في فضيلة هذا الصفاء البشوش:

«إن هذا الصفاء هو سر الجمال والسر الخفي لكل فن. إن الشاعر الذي يمدح روعة الحياة وقضائياً في إيقاع اقدام أبياته الرقص، أو الموسيقى الذي عبر بالفاء عن الحضور المفيض: كلاماً حامل لنور، ممزج للصفاء وللصفاء في عالمنا — وإن يسلك بنا للوهلة الأولى مسالك الدموع والتوتر الحزين... وربما كان الشاعر الذي نبهج بأبياته وحيداً، حزينا كل الحزن، أو كان الموسيقى حالمًا سوداويًا، ومع ذلك فهو يشارك بعمله صفاء الآلة و صفاء النجوم. فالرائمة التي وهبنا إياها ليست سوداوية، ولا أوجاعه وخافوه القائمة، بل هي قطرة من النور الصافي، من الصفاء السرمدي...»

من أجل ذلك كان هسه يحب الحياة، ويجب كذلك الموت: كان الموت رفيقه وصديقه منذ أيام شبابه، وهو كذلك قطرة عبرت به الى درجات جديدة، الى تطور جديد. تطور غير بعيد عن رسائل المتصوفين القدماء ومؤلفات عماد إقبال الشاعر الفيلسوف الباكستاني الذي رأى هرمان هسه في شعره «جاويدان» و«الديوان الشرقى» — الغربي الكثير من الأفكار المشابهة لأفكاره هو، لاسمى الاعتقاد بالدينامية الأصلية الواجبة لدعومة الحياة. ونحن نرى في هرمان هسه واحداً من شيوخ أدباء جيلنا الحالي، حافظاً لقيم الحضارة الغربية وفي ذات الوقت هادياً الى الشرق، الى نتائج الإشراف.

هذا هو ما تعلمه هسه من التركيز والمراقبة. أما الأشياء العابرة الدنيوية فأحاطا عنده؛ إن أطلعتنا على آثاره يلمح نغماً على موتيف يتكرر لديه منذ عشرين سنة، أى منذ «دنب الصبحاري» الى «لعب غرر الزجاج» وهو موتيف المحافظة على كل ما له قيمة في تاريخ الحضارة: على المسرح السحري الذي يتنوع على أشخاص شتى من أكابر الدنيا، وهم يعيشون في وقت واحد على حال واحد ويجرون الناظر الى وسطهم فيحضر لقاءهم لا فارق في ذلك بين زمان أو مكان. ويعود هذا الموتيف في «رحلة الى الشرق» وكذا في السجلات السرية التي تحفظ العلوم وأخبار الماضي ولكنها تغيب عن نظر غير اللاتقيين... يتحدث عنها أهل الرحلة الى الشرق، هذه «جمعية الطالبيين في ييس صحراء الزمان والأرقام...»

ويكرر هسه هذه السجلات الخفية مرة أخرى في «لعب غرر الزجاج» عندما أوجد «أرشيف اللهب» حيث يحفظ أهل هذه المنطقة الحقائق التي غمروا عليها عند لعبهم، ويحفظون جميع العلوم والفنون كي يكونوا حاضرين في احتفال اللهب. هكذا يحفظ الأرشيف اللغة الشاملة على كل الإمكانات أى خزانة قوانين التفاهم، والفتاح لعالم الروح... قال هسه عن هذا اللهب: «أيقنت بقتة أنه في لغة «لعب غرر الزجاج» — أو على الأقل في روحه — كل شيء يعنى الأشياء كلها حقاً، وعرفت أن كل رمز وكل امتزاج لرموز معينة لا يلعب بنا الى هنا أو هنالك، ولا الى أمثلة فردية ولا الى تجارب أو الى براهين متوحدة، بل أنه يلعب بنا الى المركز، الى سر الكون وباطنه، الى المعرفة الأزلية»

وهذا هو معنى اللهب الذي يكاد القارئ يستغربه أو يعتبره مجرد لهو؛ أن يسلك الإنسان الى باطن الكون، حتى لا يقف عند ظاهر الكلمات والرموز بل يجد طريقه الى الباطن «حيث يصبح كل ما يفعل وكل ما يتفكر متجانساً بروحه هو». وإذا وصل الطالب هذا المنزل لا يهتم بالزمان ولا بالمكان وإنما يرى على ما قال هرمان هسه «الوحدة تبسم فوق التشكيلات الجارية، تبسم في نفس الوقت من فوق آلاف مؤلفة من المباليد والأموال...» ويقترب هسه بكلامه هذا من أهل التصوف في الغرب والشرق، وكذا يوجد القطبين المتضادين — الروح والجوى، والعالم والقنان — في حياته ويمجسهما في شخصيات آثاره الأدبية. هكذا جمع بين الفضائل الشرقية والغربية، وعبر عن أسرار الحضارة الشرقية بألفاظ جد رائقة وجميلة

# حظاً!

## بقلم هرمان هسه

شفاث يتعلم فهمه، ولد من الطبيعة والفكر، ويضم العقل وما فوق العقل والطفولة جميعا كالكلفة! إن جماعها ومفارقاتها والغاها وما ييلو من أمر خطوبها الذي لا يحسبها من التكتسات والأمراض والأخطار، شأنها في ذلك شأن كل ما هو إنسانى - كل هذا يجعلها بالنسبة لنا، نحن خدامها وتلاميذها، وحلدة من أرفع وأبهم الظواهر على سطح البسيطة.

ولا يقتصر الأمر على أن كل شعب أو جماعة حضارية تخلق لنفسها لغة تتناسب وتاريخها، فضلا عن تأديتها لما لم يقصص عنه بعد من أهداف، ولا مجرد أن يتعلم شعب لغة أقوام أخرى فيعجب بها أو يسخر منها ومع ذلك لا يستوعبها تمام الاستيعاب! لا.. وإنما اللغة لكل فرد من بين الإنسان تمتلك خاص، مادام صاحبنا لا يعيش في عالم ما قبل اللغة، أو في دنيا سادتها الآلية عن آخرها حتى عادت لتصبح مجرد واقع لا ينطق.. فلكل مستقبل لغة متأثر بها، أى لكل إنسان مصحح غير معلول أو منهار، كلمات ومقاطع وحروف وصيغ وتركيبات نحوية ذات قيمة ودلالة تخصه هو بالذات. وهكذا يمكن لكل لغة أصيلة أن تدرج وتعايش من جانب المؤهريين في إيجادها واستيعابها، على نحو خاص شخصى إلى أبعد حد، وحتى لو لم يعلم أحد من هؤلاء شيئا عن ذلك. وكما يوجد موسيقيون مولعون بالآلات عزف أو طبقات صوت معينة دون سواها مما لا يجيدون ولا يجيبون، فهكذا يحس معظم الناس منذ نشأة حاسبهم اللغوية بميل خاص إلى كلمات ونظمت معينة وحروف صوتية فردية أو متتابعة، بينما يقضلون تجنب غيرها. فإذا ما أحب امرء شاعرا أو أعرض عنه، رجع ذلك فيما يرجع إلى الذوق اللغوى والساعى لهذا الشاعر ومقدار الفته

إن الإنسان، كما صوره الله وبعثه آثار الشعراء والأدياء وحكم الشعوب على مر آلاف الأعوام، قد جبل على أن يسعد بأشياء قد لا تنفعه، أو قل بحاسة لادراك الجمال. فدوما يسهم الفكر مع الحواس بنفس المقدار في إبهاج الإنسان بكل جميل. وطالما استطاع بنو البشر أن ينتبطوا، يسط ما يترى حيولهم من أخطار ومنغصات، للعب الأكران في الطبيعة أو على لوحة من إبداع فنان، أو لنداء نابع من أصوات العواصف وأمواج المحيطات أو من موسيقى خلقها إنسان، وطالما كان في مقدورهم أن يروا أو يحسوا العالم ككل فيها وراء المصالح والغايات.. وأن يتركوا العلاقة بل آلاف العلاقات والتشبيها والامتكاسات التى نغم بلغها المتدفقة أبدا نفوس المستمعين إليها بالحكمة والبهجة والتأثر والسعادة.. فمن لفظة رأس قطعة صغيرة لعبوب إلى عزف متنوع لسوناته، ومن نظرة كلب يخفق لها الفؤاد إلى مأساة شاعر - طالما سيطر الإنسان على شكوكه، واستطاع أن يقضى على حياته معنى، دائما ومن جديد.. فلا معنى هو تلك الوحدة المستمدة من العدد، أو قدرة الفكر على إدراك نشئت العالم في اتحاد وانسجام.. فمن أجل الإنسان الحق، الصحيح، المتكامل، غير المشوه، يثير وجود العالم ووجود الله دين توقف أو انقطاع. يثير في أعاجيب كذلك التى تنصع عن أمور تعتمدى مجرد ترطب حرارة الجوهر في السماء، وانتهاء وقت العمل، مثل تورد الأصيل وتدرج ألوان السماء في صورة ساحرة من الأحمر الشفاف إلى البنفسجى، أو مثل وجه إنسان تكسوه أعجوبة الانقسام في ألف مرحلة وانتقالة، وكأنه صفحة السماء عند الغيب، أو مثل الغرف والتوافد في كاتدرائية، ونظام أعضاء التلقيح في آنية الزهر، وكنجة مصنوعة من الواح خشبية، وسلام موسيقية، وشيء رقيق

يتم عنهما حرفا CK اللذان تنتهي بهما الكلمة الألمانية. وبالمثل من كلمة تصمك وتبكي، وتلخر بأبابت السحر والتجسيد: فإعطينا كى ونجها ونحس بها على حقيقتها إلا أن نضع إلى جولها كلمة أخرى جاءت متأخرة، متعبة، مسطحة، من النيكل أو الصفيح الأحمر لا الذهب، مثل: الواقع أو الاستمرار. ولأنك أن كلمة Glück وحظه لم تستخرج من معاجم اللغة أو تستمد من غرف الدراسة، فهي لم تتخرج أو تشتق أو تولد من مقاطع مختلفة، وإنما كانت وحدة كاملة متكاملة هابطة من السماء أو نابعة من الأرض كنزها كسمة وأوجه الزهرة. أى سعادة رافعة أن توجد مثل هذه الكلمات! فبدونها ما أجذب أن تكون الحياة وأن يكون الفكر، فكأنها حياة بلا خبز وخر، بلا موسيقى أو ضحك.

لم تتغير أو تتطور علاقتي بكلمة الحظ Glück إلى ما بعد هذا الجانب الطبيعي الحسى، فلازالت عندي حتى اليوم خاطفة بعيدة القرار، ذهبية الفياء كما كانت على الدوام، ولا زلت أعشقها كما أحبها صبياً من قبل. ولكم خبرت آرائى وأفكارى من تطورات حول مدلول هذا الرمز السحري، ومعنى هذه الكلمة الصعبة القصيرة، فلم تخلص إلى وضوح سوى أخيراً جداً. ذلك أنى ظلت حتى بعد منتصف عمرى بكبرى أتقبل هذه الكلمة بإذعان وعدم اختبار على أنها تعنى في لسان العامة شيئاً إيجابياً وقماً للغة، وإن كان في حقيقة شائعة ومألوف. فما أن كانت تذكر هذه العبارة: «حظاً» حتى تترادف في ذهن صوريها: ميلاد حسن، تربية صالحة، مستقبل باهر، زواج موفق، نجاح في أمور البيت والأسرة، تمتع بصيت ومكانة اجتماعية، مال وفير وخير كثير. وكنت لا أختلف عن سوى في استحضار هذه الصور عندما ترد لفظة الحظ.

وقد بدى أن الناس إما أن يكونوا محظوظين أو منحوسين، تماماً كما يوجد حادقون وغير حادقون. وكذا تحدثنا عن الحظ في التاريخ فكنا نعتقد أن ثمة شعوباً وحقيقاً محظوظة دون غيرها. هذا بينما كنا نعيش في زمن «محظوظ» بدرجة غير عادية، فقد فعلنا سلام طويل وحرية واسعة وراحة ورفاهية كبيرة، وكأننا كنا في حمام دافئ من كل هذه المحظوظ. وبرغم ذلك لم نلاحظ كل هذا الخير، فقد كان الحظ بالنسبة لنا بديهاً. وقد كنا نحن الشباب في تلك الحقبة التي كان يبدو عليها إمارات الدعة والسلام، حين تتعلق بغسوس موجة من الأسمى والتشكك، نشبى الموت ونشقى بالانحلال ومقر الدم المشوق، بينما ندعو فلورنسا «الكوارث وشيئنا» وأتينا يرقل وغير ذلك من سالف العصور

لنفس القارئ أو بعده عنها. وفي استطاعتي أن أذكر على سبيل المثال عدداً لا آخر له من القصائد التي أحببتها عشرات السنوات ولازلت أحبها، ولا لعناها، ولا لحكمتها، ولا لما تحويه أو تمتصه عنه من خيرات أو طيبة أو رفعة، وإنما فقط من أجل قافية معينة أو خروج إيقاعى بالذات على القواعد المتواترة، أو اختيار موفق لحروف صوتية محبة إلى النفس قام به الشاعر عن غير وصى ملثما يتمرس بها القارئ دون أن يشعر. وكثيراً ما يمكن أن نخرج من بناء وإيقاع جملة نثرية بلحنه أو برنثنا، أو لنسج أول. ت. هوفمان، بمخاضات الشاعر واستمداداته الجسدية والنفسية على نحو أفضل بكثير مما نخرج به من إفادة هذه الجملة النثرية. وهناك جمل نثر عليها في كتابات أى شاعر، وأخرى لا توجد إلا لدى علم مشهور في مجال موسيقى اللغة.

أما الكلمات بالنسبة لنا فهي كالألوان على لوحة «هاليت» في يد المصور. يوجد منها الكثير، ويخرج منها جديد على الدوام، أما الكلمات الطيبة الأصلية قليلة، وإنى لم أخبر طيلة سبعين عاماً مولد كلمة واحدة جديدة من هذا الطراز. وكذا الحال مع الألوان فهي ليست كثيرة بلا حصر ولا عد وإن كان يمكن تدريبها وخطها بما لا نهاية له. ومن الكلمات ما هو محبب أو مستحسن لدى كل متحدث، ومنها كذلك ما هو يروى لا يثسى عليه الانقطاع ولو استعمل ألف مرة، بينما نجد أيضاً من الكلمات ما لا يذكر إلا في المناسبات، فلا ينطق المرء بها أو يدونها — مهما كان مقدار حبه لها أو لونه بها — إلا بترؤ وأقتصاد يتناسب وندرة الموقف وخصوصيته.

ومن بين هذه الأخيرة كلمة: حظ (Glück). فهي واحدة من الكلمات التي طلالاً أحببتها وأحببت معاً. ومنها اختلفت الآراء حول معناها فهي تقيد على أى الحالات عن أمر جميل طيب مرغوب فيه. وهكذا أيضاً وجدت نعمة هذه الكلمة.\*

فقد وجدت في هذه الكلمة، بالرغم من أنها قصيرة، صعوبة وإملاء عجيبين. شيئاً ذكرني باللهب. فقد كان لها — فضلاً عن الامتلاء والخطورة — بريقاً يشبه البضعة الخاطفة وسط السحب بينما يشع من القطع الأول السريع الذى يطل مبتسماً مضطرباً في حرف GL ويستقر ضاحكاً في ث لا غير أنه لا يلبث أن ينتقل مسرعاً في تصميم وإحراز

\* يتبدل المؤلف هنا بالطبع عن الكلمة الألمانية Glück التي تختلف في إيقاعها بعض الشيء من ترجمتها (سطر) وإن اتفقت معها من ناحية أخرى في أن كليهما مخلوق.

حقبا محظوظة. إلا أنه وإن خف الحماس لازدهار تلك العصور تدرجيا - فقد قرأنا كتب التاريخ ومادونه شوبنهاور، وصرنا لا تأمن السمو والكلمات المنمقة، وتطمنا كيف نعيش في جو فكري نسي لا يميل إلى المغالاة - ومع ذلك بقت كلمة الحظ، أبنا قابلت المره عقرا، محظفة بكامل وقعها الذهني الأول مذكرة بأرفع القم. ولعلنا كنا نتعد أحيانا أن الحظ عند البسطاء من الناس قاصر على منع الحياة اليومية، أما نحن فكننا نربط الحظ بأمر كالحكمة وبعد النظر والصبر وخطو النفس من بذور الحظا. وكلها أشياء جميلة كانت تملأنا بالسعادة دون أن تستحق مع ذلك أن نعمل هذا الاسم القفطرى الملتئله العميق الذى يدعى الحظ.

أثناء ذلك كنت قد لاقيت من التجاح في حياتى الخاصة ما جعلنى لا أعلم حسب أنه لا مكان ولا معنى فيها لما يدعى الحظ، بل ولا محاولة بلوغ ذلك الشيء أصلا. وربما عرفت هذا السلوك في ساعة حماس بأنه مجرد استسلام للقدر Amor Fati، وإن كنت في الواقع لا أميل أبدا إلى الحماس اللهم إلا في حالات تطور متوسجة لا تدم طوليا. ومن ناحية أخرى لم يعد مثل الأهل هو حب شوبنهاور الخالى من كل رغبة وأشياء منذ أن عرفت تلك الحكمة الساخرة دوما في اقتصاد وغير ولى بالظهور أو ضوضاء، وإلى على تربتها نحي ما يروى من حكايات عن سير معلمى الصين ومأثورات «دشوانج دسى».

على أنى لا أبغى هنا أن أثّر على غير هدى بل أريد أن أقول شيئا محمدا بالذات، لذا فلأحاول أولا، وحتى لا أخرج عن الموضوع، أن أشرح بالكلمات ما تعنيه بالنسبة لى اليوم كلمة الحظ. إنى أراها أبنا شيئا موضوعيا تماما هو الوجود الكلى ذاته أو الكيان اللاتزمانى أو موسيق العالم الخالدة، أو ذلك الذى أطلق عليه آخرون انسجام الأجرام أو ابتسامه الله. وإن هذا الجوهر وهذه الموسيقى اللانهائية، وتلك الأبدية الكاملة التتم ذات جلوة الذهب لى الحضور الخالص في كامل هيأته، إذ هى لا تعرف الزمن ولا التاريخ ولا ما قبل وما بعد. وهكذا أبدا يضىء وجه العالم ويضحك بينا تصعد أجيال وشعوب وبمالك فتزدهر وتمود ليطب غول الظلال ونحو الدم. فالحياة تعرف أبدا موسيقاها ولا تكف أبدا عن أن تتور رقصها الأولى، أما نحن الفانون المعرضين للأخطار وبيدة السقوط فما يصيبنا رغم ذلك من فرحة وسلوى وقدره على الضحك إنما هو جلاء من هناك أو عين مفعمة بالضياء وأذن ملوها الموسيقى ..

أما إذا وجد حقا في أى وقت بشر أسطورى الحظ أولذا ما سقط التور العظيم فقط أحيانا ولساعات أولحظات رائعة عملة بية من السماء على أبنا الحظ المرموقين بيمين الحساد أو على من حبهم الشمس بأشعتها وعلى أصحاب السلطان، فلن يصبح في مقدور هؤلاء أن يدركوا حظا مغايرا أو سعادة أخرى. وإنما نصيننا من الحظ هو أن ننفس حلقه الكامل، ونشارك فى فرقة الأجرام غنامها، ومفتحي حلقه الدنيا رقصهم، وأنها ضحكتها الخالدة. وكثيرين ذاقوا هذه التجربة مرة أو بضع مرات. أما من أرقى له أن يتجرها فلم يعرف الحظ للحظة واحدة فحسب، وإنما جاء معه بشيء من جلوة ونعمة وضياء السعادة الأبدية. وكل ما يفد لعلنا من حب العشاق وسلوى وبهجة الفانون فيأتانى بعد قرين مثلما كان في يومه الأول، قادما من هناك ..

حتى هذا الشمول القمى الواسع الكالم بلغت دلالة كلمة الحظ في رحلة حياتى .. ولله يحنى أن أذكر صبيان المدارس من بين قرأى أنى لا أقم هنا بضا لغويا بحال من الأحوال وإنما أرى قطعة من تاريخ الروح .. وما أنا أبدا بهادف أو أراغب إليهم أن يصفوا على هذه الكلمة كل هذه الأهمية والمحظورة فيها يعبرون عنه بالقول أو الكتابة. أما بالنسبة لى فقد تجمع واكمل حول هذه اللفظة البية القصيرة الذهبية الضياء كل ما كان يجيش في نفسى عند سماع زين وأنا طفل .. ولاشك أن حساسية الطفل أقوى منها لدى البالغ، فاستجابة كافة الحواس لنداء الكلمة ووقعها الملموس أشد وأعلى. إلا أنه لو لم تكن هذه الكلمة عميقة وأصلية مستديمة لما تبلور حولها تصورى للحاضر الخالدة و«الأثر الذهني» (رق القم للهي) وضحكة الخالدين (رق ذنب الصحارى).

عندما يحاول من تقدمت بهم السن أن يتذكروا منى وكيم من مرة ويأى قوة كان إحساسهم بالحظ، إنما يمحون بالدرجة الأولى في طفولتهم، وعن حق يفعلون. فاستيباب تجربة الحظ يتطلب أول ما يتطلب استقلالاً عن الزمن، وبالتالي من الخوف ومن الأمل. وهذه القدرة تضعف بمرور الأعوام لدى معظم الناس. وأنا بدورى عندما افتش عن لحظات معاشي جلوة الحاضر الخالد وابتناسمة اليارى، أعود في كل مرة لى طفولتى حيث أجد أكثر وأقم تجارى في هذا الميدان. وبالطبع كانت أوقات السعادة في الصبا أكثر تألفا وتلونا وبهجة وضياء منها في أيام الطفولة، كما كان حظ الفكر منها أكبر. إلا أنه كلما دقق فيها للمر تبين له أنها كانت ذخرة بالترطب

وكما لو لم يسبق القدر والمضى الكامل على الحياة الجميلة إلا في تلك اللحظة وفي ذلك الصباح الباكر. لم أع شيئاً من أمسى أو غدى وإنما احتوائى إحساس سعيد يبعث، راح يفسلى في لطف. وأمتنى ذلك بينما جعلت حواسي وروحي تلهم هذه التجربة في غير استطلاع أو حوصاب. وهكذا تدفق هذا الشعور في جواحي وأصبح رائح الملائق.

كانت الدنيا صباحاً، ومن خلال النافذة العالية رأيت السماء صافية ذات زرقه صافية من فوق سطح الدار المخاورة لنا. وكانت السماء هي الأخرى تبدو سعيدة وكأنها في انتظار حدث غير عادي أتردت له أبهى حلة. ولم يكن ليرى من غدعي أكثر من هذه السماء الجميلة وسطح الجيران بظوله الملل وأحجاره الداكنة ذات اللون البني المحمر، والذي بدا بارزاً من ذلك ضاحكاً، فقد كان هناك لمبا خفيفاً بالألوان على جداره المنحدر المظلل.

أما قطعة السطح الزجاجية المطلية بلون أمل إلى الزرقه، والوحيدة بين المساحات القهقريه الحمراء، فلاحت جاهدة في بشر أن تعكس شيئاً من صورة السماء المبكرة الدائمة الاشعاع في هدوء. وبدأ كما لو كان هناك اتفاق جميل مفرح بين السماء والحافة غير المنتظمة للسطح الخلقى من الدار، والجيش الموحّد الذي بلونه البني، والقطعة الوحيدة من الزجاج الذي يغطي سطح الدار، بسمكها الرفيع ولونها الأزرق وصلاحتها اللبوية، على ألا يفعلوا شيئاً في تلك الساعة المشتمية من الصباح أكثر من أن يضحكوا لبعضهم البعض وأن يضرع كل منهم أحسن النوايا للآخر. وكان هنالك معنى يجمع بين السماء والزرقاء وفخار سطح الدار بلونه البني والزجاج الأزرق، وهكذا جعلوا يبعين مع بعضهم تغرهم البهجة، وكان من المبهج التطلع إليهم وحضور لعبهم، والاحساس مثلهم بتألق الصباح والصفاء ..

هكذا رقيت في بداية الصباح استمتع بالشعور الهاديء الذي يغلف النوم، وإذا به أبدية جميلة في غدعي، وإن كنت قد تلذت سعادة شبيهة في مرات أخرى أثناء حياتي إلا أنه لم يوجد منها ما هو أعمق ولا أكثر واقعية من هذه التجربة : فقد كان العالم على خير ما يرام. وسواء استمرت هذه السعادة مائة ثانية أو عشر دقائق فقد كانت هكذا خارج إطار الزمن، وبالتالي فهي تساوى أى حظ أصيل آخر مثلما تماثل فراشة أنفها من نفس النوع. كانت لحظة فانية لم تلبث أن جرفت في عمار حركة الزمن، ورغم ذلك كانت عميقة وخالدة بالدرجة الكافية لتتأدبني

والمرح عنها بالمعادة الحقة. فقد كنا في تلك السن طروبين فكهن حاضري البديهة ذوى مداعبات طريفه. وإنى لأذكرني وسط أصدقائي في عز الصبا حين سألت أحداً - وكان على شيء من السلاجة - عن كنه ضحكة هوميرس، فرددت عليه بفتحها موقعة تماماً على وزن بحر شعري إغريقي. كانت ضحكاتها عالية ولفهاتها رجة - إلا أن مثل تلك اللحظات لا يصمد أمام النظرة الفاحصة المتأخرة. فكل هذا كان طرباً ظريفاً جميل المذاق ولكنه لم يكن هو السعادة الحقة. وكلما طال تبع مسار هذا الاحساس تبين أن السعادة لم تعرف إلا في الطفولة وفي ساعات ولحظات من الصبح العثور عليها من جديد. ذلك أنه قد تبين بالتحقيق أنه أيضاً في الطفولة لم تكن جلوة السعادة أصيلة في جميع الحالات، ولم يكن الذهب صافياً تماماً. فإذا ما حاولت أن أكون دقيقاً للغاية تبين في النهاية عدد ضئيل من التجارب، وحتى هذه لم تكن صور يمكن رسمها، ولا تفصص تروى، وإنما كانت تنزلق متجنبة كل استفسار عنها. فإذا ما تذكرت شيئاً منها بدا للوهلة الأولى وكأن الأمر يتعلق بأسابيع أو أيام أو يوم واحد على الأقل كعيد الميلاد أو أول يوم في عطلة. إلا أنه حتى يتيسر إعادة بناء يوم من عهد الطفولة في الذاكرة يلزم آلاف الصور، بينما لا تستحضر الذاكرة ما يكفي منها لاستعادة يوم واحد، بل ولا حتى نصف يوم.

وسواء دامت تجربتي مع السعادة لأيام أو ساعات أو فريد دقائق، فقد عبرت الحظ بضع مرات كما دنوت منه في شيخوختي وأيامي الأخيرة. على أنه مع طول ما معصت لقائاً في مع الحظ في طفولتي المبكرة، فقد صمد أحدها دين أن يتزعزع. كان ذلك في عهد ترددي على المدرسة في الصبا. أما العنصر الأصيل الأسطوري الذي يفسح عن حالة توحّد تام مع العالم في ضحك لا صوت له، وانتفاق كامل من الزمن والأمل والغوف، وإحساس بالحاضر الكامل، فلا يمكن أن يكون قد دام طويلاً. وربما لم يعد بضع دقائق.

ففي صباح أحد الأيام نهضت من فراشي صبيها خفيف الروح والحركة، ربما في العاشرة من عمرى، وفي نفس إحساس عميق بالسعادة والبهجة راح ينتشر في داخلي كشمس بين ضلوعي. وكأنه من نوى الملتريخ وأنا صبي قد حدث استيقظت فيها من نوى الملتريخ وأنا صبي قد حدث شيء جديد رائع، كأن عالم صباي يرمته على كبره وصغره قد راح يبدل في حالة أرفع أو في ضوء ومناخ جديد

إليها اليوم بعد مضي ستين عاما عليها، وأن تحركني حتى أتأرجحها وأبتمس لها بعضي المتعبتين وأصابعي التي توتلي . بل وأحاول أن أعيد تجسيدها وتصويرها . وما نشأ هذا الحظ سوى من انسجام الأشياء المحيطة في ووجودي الذاتي، ومن الإحساس بالرضى الكامل الذي لا يطلب تغييرا ولا مزيدا.

كان الهدوء يعم الدار من الداخل ويحيطها من الخارج. ولولم يتوفر ذلك الهدوء لكان من المرجح أن يعكر على صفوى تذكروا الأجبات اليومية من نهوض وذهاب للمدرسة. ولكنه لا بد أن الدنيا لم تكن ليلا ولا نهار. فن الصحيح أن كان هناك النور الجميل والأزرق الضاحك، إلا أنه لم يسمع وقع أقدام الخادومات على الأرضية الحجرية في الطريق، ولا صوت باب يفتح أو يفتح، ولا خطو صبي خباز على الدرج. وهكذا كانت تلك اللحظة من الصباح خارجة على الزمن، لا تدعو لشيء ولا تشير لأمر قادم. كانت مكتفية بذاتها. ولما كانت حوزتي أنا الآخر ضمن وجودها فقد صرت كذلك لا أعرف النهار ولا التفكير في النهوض ولا المدرسة ولا ما أدى من واجبات بصورة غير كاملة أو الحروف المتحركة التي لا تستقر في ذهني، ولا تناول طعام الفطور في سرعة، هناك بفرقة الطعام الحديثة الهويية.

على أن خلود السعادة قد انهار هذه المرة على يد الصمود بالتجربة الجمالية والاسراف في البهجة. فبينما كنت راقدًا على حالي لا أحرك طرفا وعالم الصباح الزاهي ينساب في هدوء إلى داخل ويستوي في جوفه، انطلق من بعيد شيء غير عادي، فيه تألق ذهبي وظفر يشق الهدوء، وبهجة فياضة وحلاوة جلابة موقظة : كانت نغمة يوق ! ولم أكد أستيقظ تماما وأجلس في عذسي دافعا عني

الغطاء حتى صارت هذه النغمة مزدوجة ومتعددة : كانت الفرقة الموسيقية بالمدينة تعبر الأوتار لاجبة بالأناغم، وهو حدث نادر مشير بدرجة غير عادية وسعيم فوق ذلك بدوى الاحتفال حتى أن قلبي الطفل ضحك في صدره وشهق وكما لو كان الحظ كله وسعر ساعة الجدل مصبوبين عن آخرهما في هذه النغمات الحادة الحلو المهيجة القوي، ثم إذ بهما يتدفقان عائدتين بعد استيقاظ إلى الزمن والفناء. وفي لحظة واحدة كنت خارج الفراش أهتججلا للمهرجان، ورحت مندفعًا تجاه الباب ثم نحو الفرقة الجانية التي كان يمكن التطلع من نوافذها إلى الشارع . وفي عمرة من الانبهار والفرح والاستطلاع وحس المشاركة وضعت نفسي في نافذة مفتوحة ورحت أستمع في طرب إلى النغمات المتعالية للموسيقى القادمة، ورأيت وسعمت دور الجيران والطرق وهي تصهو وتدب فيها الحياة وتمتلئ بالوجوه والأشخاص والأصوات — وفي نفس اللحظة عرفت من جديد ذلك الذي كنت قد نسيتُه تماما في عمرة الصفاء السعيد الذي حل في فيا بين النوم والنهار. عرفت أنه لا ذهاب اليوم إلى المدرسة، فقد كان يوم عطلة فبدأ أعتقد، بمناسبة عيد ميلاد الملك، مما جعل هنالك مواكب وأعلام وموسيقى وطرب لا آخر له.

وقد كانت هذه المعرفة مفتاح عودي، فقد رجعت لأخضع من جديد لريق القوانين التي تسد الحياة اليومية. وإن لم يكن يوما عاديا وإنما يوم احتفال ذلك الذي أيقظني فيه النغمات النحاسية، فقد اندثر كل ما هو أصيل وجميل ورباني في ذلك الصباح الساحر. وغلقت تلك المعجزة الرائعة الصغيرة جعلت ترتطم من جديد أمواج الزمن والدنيا وما هو عادي ومألوف ..

ترجمة : مجدى يوسف



# الزجاجة الفاطمية: كأس هيدفج

في نفس بعلمها، إذ كانت تفضل الماء على الخمر. وعندما فحص الليق ذات يوم وعلى غير انتظار عثرتي الكأس، استحال الماء إلى خر، مثيراً دهشة قصوى. ويتألف الحفر البارز لهذا الكأس ذي اللون الباقوتي الأصفر المدخن من أسدين غاضبين إلى جانب درع يشكل القدر تحت نجم وهلال. وفي القرن الخامس عشر اضيفت إليه قاعدة فضية فوق ملائكة ثلاثة ساجدين، بحيث أصبح معناه الديني جلياً لأبسط الأذهان.

ومن كنوس هيدفج الثلاثة عشر جاءت خمسة من ممتلكات أميرية، وستة، منها ما جاء من خزان التحف الكنائسية، ومنها ما لا يزال محفوظاً فيها. أما أغنى هذه الكنوس التجريدية الزخرفية جميعاً وأقواها أثراً فهو كأسنا المحفوظ في كويورخ. ففي قسمه السفلي نشاهد هياكل أقويمة صارمة فوق كل منها هيكل على هيئة قلب في جناحه الأعلى عقد بارزة تستوقف النظر بشكلها الذي يشبه العين المحمقة. وهناك جيوب قطرية داخلية، وأخرى تشبه الأسمم خارجية تكسب هذه الهياكل حيوية وتشكل إطاراً لحداد الكأس، الذي يتميز في الأعلى عن إطار النهم الأملس بتقوّمات على شكل عقد ودعائم، وتتميز في الأسفل بأخيلود أملس عن ثمانية أوتاد خاصة بقرص القاعدة تبرز في اتجاه أفقي.

ويحق لنا كثيراً أن ندعو هذا الكأس الكويورخي «كأس الزبابت»، إذ هناك أسباب وجيهة تدعو إلى الاعتقاد بوجود علاقة له بالزبابت، دقة توريخين وإبنة أخ هيدفج السيليسية، وقد ماتت عام ١٢٣١ عن أربعة وعشرين عاماً.

وحيث كان الأمراء والعظماء يعمدون من الحملات الصليبية تحف قيمة من الأراضي المقدسة أو إيطاليا وكانوا يقدمونها عاجلاً أو آجلاً لخزان التحف الكنائسية، حيث يجاء أغلب كنوس مجموعتها من التلف، فكم كان بالحرى أن ينتقل كأس الزبابت التي أعلنت قديمة على إثر وفاتها إلى مثل هذه الخزائن مع خلفائها التذكارية. وكان الزجاج فوق ذلك مادة مثالية لهذا الغرض. وحتى

إن موضوع اهتمامنا، وهو ما يدعى بكأس هيدفج في مجموعة شته كويورخ للتحف الفنية، لا يقف الناظر لأول وهلة. ولذا فعلينا أن نقربه من جوانب مختلفة لنرى أهميته. إنه قلدح قوى ميميك الحداد يبلغ ارتفاعه عشرة سنتيمترات من زجاج بلون الباقوت الأصفر المدخن، يتسع فطره من ثمانية سنتيمترات في الأسفل إلى عشرة سنتيمترات في الأعلى، ويريق للمشاهد المصري بزخارفه السلطانية الجريئة، المجردة، العميقة في خطوطها المحفورة.

وتؤكد غرابة مظهره من بابين: فما لاشك فيه أن له صلة بالألف والثمانمائة وعاء بلوري جبلي فاطمي التي كانت تشكل لتعمامة عام غلبت الكثر الثمين الاسطوري للخليفة المستنصر في القاهرة، ذلك الكثر الذي تبعثر عام ١٠٦٢ ودمر القسم الأكبر منه. وفي ذلك العهد، عندما كان الإمبراطور هارنيس الربيع جالساً على العرش، كانت أوروبا قد فقدت ثمانية القدر على قطع الزجاج والبلور قطعاً فنياً، تلك القدرة التي استحوذت عليها لفترة قصيرة تحت حكم الكارولينجين. ولذا فليس من العجب في شيء أن رجب الانسان الوسيط بهذه الأوعية الزجاجية كرمز للطهارة المسيحية بسبب صفاتها الشفاف. وفوق ذلك فقد اعتبرت، كتحف غريبة نادرة، على جانب عظم من النفاسة بحيث لم يكن في وسع أحد الحصول عليها سوى الأمراء من عشاق الفن.

وهذا ما نجربنا به التسمية «كأس هيدفج» التي يحملها قلدحنا وكذلك اثنا عشر قلدحاً آخر من نوهه ما زالت محفوظة الآن. وأغلب هذه، بخلاف كأسنا - كأس كويورخ الزخرفي الخاص - مزينة حسب أصول فنية صارمة بالأسود والفسور والمقاي. وقد اعطى واحد من هذه الكنوس، تقول الأحاديث المتواترة إنه كان ينص في الأصل القديسة هيدفج، دقة سيليسيا، وحفظ أخيراً في متحف برينسلاو للأثرينات والحرف الفنية، لقد اعطى هذه التسمية للمجموعة كلها. ويتصل كأس هيدفج الرمزلاوي هذا اتصالاً وثيقاً بأسطورة القديسة التي تقول أنها كانت تعيش في تنصلا شديد، مما كان يبعث الكتابة



كأس هيلج، ارتفاعها ١٠,٣ سم  
مجموعة نسة كوبرج للتلف الفنية

غير أنه كان كثيراً ما يعار لأميرات قريبات أو صديقات كصندر للبركة ولتخفيف عمليات الولادة. وتأثير الإصلاح اللدني تزعزع الإيمان الساذج بالقوة المعجزة للقديسة وكأماها. وبعد ذلك بعشرات السنين، في عام ١٥٤١، شاهده القس يوهان ماتيسبيوس هنلما كان مع غيره ضيقاً على لوثر في قنبرغ. وفي ملاحظته التي نشرت فيها بعد وصف بدقة كيف وكان لوثر مبهجاً حين وضع على المائدة كأساً كانت القديسة اليزابت تزيه لأهل قنبرغ للشفاء في قصرها. ولعل

حين كان يقفل عليه ويحتم لضمان حفظه وسلامته، فقد كان يوسع كل شخص أن يقتنع بنوعية وشكل محتواه. ولذا فلا عجب إذن أن يوجد هذا الكأس في أوائل القرن السادس عشر مع مخلفات القديسة اليزابت الأثرية في كنز الأثریات المقدسة للأمير الناخب السكسوني فريدرش الحكيم في قنبرغ، كما يؤيد ذلك رسم مخطوط في أرشيف فاماار. ورغم أنه لم تكتب صحة الافتراض بأنه كان لفترة طويلة قبل ذلك محفوظاً في دير اليزابت الفرنسكاني تحت حصن فارتبورغ، المقر الاميري للوقوة اليزابت الثورينجنية،



الأمر الناخب أو غلظته من بعده قدم الإثر هذا الكأس، كما كانتا وغيرها من السادة يملونه كنواً ثنية من الفضة أو الزجاج أو الخشب المعرق، التي لا يزال يرى كثير منها في مجموعات دريسدن ونورينغ وبازل.

بالما من طرق عميقة بالمعارف تلك التي مر بها هذا الكأس الزجاجي دين أن يسه الأذى عبر ما يقارب الألف عام. وكان قد نشأ في القرن الحادى عشر في العالم الإسلامى. وبالسر المنبعث من الغربة الأسطورية لثنيته الأصل ومن كمال صناعته اليدوية تلقفه الغرب الذى كان قد اتصل بالشرق أثناء الحروب الصليبية بصلوات متنوعة، وأصبح عليه بالتدريج سحر الرمزية المسيحية الجديدة وقوة الشفاء السحرية المعجزة. وكثيره من الأعمال الفنية الإسلامية التي وصلت بلادنا آنذاك فقد بث حوله بفضل دقة تشكيله المجردة قوة فنية مؤثرة مباشرة. وأفضل مثل لاقتفاء هذا الأثر النافذ تقدمه ألوانى الصب البرونزية الألمانية التي تحمل هياكل الأسود والتي لا يمكن تحليلها أو فهمها دين الناذج القاطمية كالأسد الموجود في متحف كاسل. وقد ارادت الصدفة أن يحفظ في مجموعة تحف حصن فارتنبورغ اسد ألانى جنوى مصبوب من القرن الثانى عشر. ومن التخصائص المميزة للرقعة العصر الوسيطى الألماني بالذات النصب التذكارية المماثلة لكاتدرائية هالبرشتات.

على مستودعة الكنائسى عشر عام ١٨٢٠ على كأس هيدفيج حفرت فيه أسود تشبه أسود كأس برينسلار. وفي خزانة تحف كاتدرائية هالبرشتات يوجد كأس هيدفيج آخر محفوظ بصورة مجردة وكان قد رفع في القرن الرابع عشر

ككأس المشاء الربانى على قاعدة فضية مذهبة وغطى لواقته بغطاء برنجى، كما يوجد أيضاً هيكل مصرى من هياكل الشطرنج مقطوع من البلور الجلبى، مع زجاجة مكورة من المادة نفسها حفر فوقها سعف نخيل ظل يذهب على من فترة تسبق القرن الثانى عشر قبليل. إن مدى تقدير هذه التحف الشرقية النادرة خلال العصر الوسيط كله، وكذلك مدى تأثيرها المبكر على صناعاتنا اليدوية الداخلية يتضح من هذه المجموعة التي حفظت برعاية خاصة.

وبعد عام ١٥٤١ دخل كأسنا لمدة ثلاثة قرون ونصف القرن عالم النسيان، ولم يخرج إلى النور من جديد إلا باكتشافه العلمى في مجموعة فسته كوبورغ عام ١٩١٢.

وسواء أتاول اعجابنا عند مشاهدة الكأس صرامته الشكلية المجردة الخالدة، والعناية والثقة في الصناعة اليدوية، والجرأة الواضحة في تشكيله، أم اعتبرناه ونحن نفكر بغوذه السحرى الوسيطى هيكلًا ثمينًا نادرًا لماض بعيد، فانا سنظل متأثر بالمضمون التاريخى الذى ارتبط بهذا الكأس.

وكابداع كامل خلقت يد زجاج مسلم مجهول، ظل كأسنا يشغل عقول عدد لا يحصى من البشر طيلة قرون عديدة، لكى يسحر أخيراً — في كامل تكوينه المتنوع — لب الناظر الحديث أيضاً.

مؤلف المقال: الدكتور هاينريش كولهاوسن

ترجمة: محمد على حشيشو

*Der Morgenwein gleicht einer Lampe in  
Leuchten und Glanz und Strahlens Übermaß:  
Wer ihn erblickt, glaubt — weil er so geirnt  
Mit dem Gefäß —, er schwebte ohne Glas!*

*Gleich Sonnenlicht ein Wein, gekühlt, in einem Becher  
So zart, als sei er nur Luftspiegelnung, tragend Schein:  
Nimmst du ihn, weißt du nicht (denn allzusein ist es —):  
Gib Wein man ohne Glas? Gab Glas man ohne Wein?*

الراح قبل الراح كالمصباح في  
عطر شعاع والهباب وضياء  
يمسها الناظر لتأملها  
بكمها قائمة بلا إناء

مشمولة كشعاع الشمس في قدح  
مثل السراب يرى من رقه شبحا  
إذا تعاطبها لم تثر من لطف  
واحدا بلا قدح عاطاك ام قلدا

*Erglänzen vom Wein die Pokale?  
Sind's Wolken im Sonnenglanzstrahle?  
So rein sind und zart Wein und Gläser,  
daß eins scheinen Trank dir und Schale.  
Ist alles denn Glas, ist der Wein nichts?  
Ist's Wein, der das Glas überstrahle?  
Wenn Sonne die Lüfte erfüllet,  
verschmelzen der Glanz und das Fable,  
versöhnen der Tag und die Nacht sich,  
daß Ordnung der Welt nun erstrahle.  
Kannst Nacht nicht und Tag unterscheiden,  
noch Wein oder Becher beim Mahle!  
Begreife durch Wein und durch Becher  
das Wasser des Lebens im Tale!  
Enthüllung der Schleier des Wissens,  
wie Nacht sich und Taglicht dir male!  
Wird dies aus dem Wort dir nicht deutlich  
vom Anfang zum anderen Male,  
so suche das Welt-Glas — dann klärt sich  
dem Geist dieses Rätsel im Strahle:  
Daß Er alles ist, was besteht —  
Freund, Herz, Seele, Glaube, Gebot!*

اکتوس تلالات بمسدام  
ام شمس تهلت بنمسام  
از صفای می ولطافت جام  
درهم آمیخت رنگ جام ومدام  
همه جام است نیست گویی می  
یا مدامست نیست گویی جام  
چون هوا رنگ آفتاب گرفت  
هر دو یکسان شدند نور وظلام  
روز و شب باهم آشتی کردند  
کار عالم از آن گرفت نظام  
گرندانی که این چه روز و شبست  
یا کدام است جام و باده کدام  
سریان حیات در عالم  
چون می و جام فهم کن تو مدام  
انکشاف حجاب علم یقین  
چون شب و روز فرض کن و سلام  
ور نشد این بیان ترا روشن  
جمله ز آغاز کار تا انجام  
جام گیتی نمای را یک آفر  
تا بینی به چشم دوست مدام  
که همه اوست هر چه هست یقین  
جان و جانان و دلیر و دل و دین





كأس، يبلغ ارتفاعها ١١ سم، وهي من الزجاج الأصهب، مزخرفة برسوم ذهبية و ألوان الليمون. موطنها سوريا (حلب)، اواسط القرن الثالث عشر. وكان هذا النوع من الكؤوس معروفًا في أوروبا باسم Glück von Edenhall إذ أن أحدها مرتبط - على ما تقول الأساطير - بمساعدة أحد الدلائل المرفقة في إنجلترا، وهي أسرة وادناله التي كانت قد استحضرت تلك الكأس من بلاد الشرق، فلذا ما تحطمت، تحطمت العائلة ومبادئها... وقد أُنقش الشاعر الأناطي «لودفيج أولاند» في القرن الماضي قصيدة طويلة تتور حول هذا الموضوع.

هذه الكأس مخفية في متحف Kunstgewerbemuseum Köln بـكرلونيا، ونشكر إدارة المتحف لتصرّفها لنا بنشر هذه اللوحة.

# فنون الإنسان في أبحار الزجاج

الزجاج، أحدها بلاد الصين حيث كان يصنع الزجاج الغليظ المنحوت فيه الزخارف والذي يشبه الأججار أو البلور المنحوت. أما المركز الثاني فكان أوروبا التي تقطن صناعها في إعداد الزجاج الملون لتوافد الكنائس التي لا تزال بهجة الأنظار حتى يومنا هذا. ثم يأتي المركز الثالث وهو الأكثر أهمية، ألا وهو البلاد الإسلامية. وتحكي كتب التاريخ عن الآلوي البسورية والكؤوس الزجاجية المشابهة للبلور المساء «بالبحكم» وقد صنع هذا النوع من الزجاج غير الملون في بغداد على وجه الخصوص، كما سمي الزجاج الرقيق، المقطوعة فيه زخارف بواسطة عجلة معدنية صغيرة «بالبناداي». وهناك نجد أيضا الزجاج «الحيري بالذهب» و الزجاج المذهب، ثم المجرى المبرود البراق و «الأذرك» أي الباقي اللون المختلط بقليل من الذهب، وحتى صنف الزجاج المصنوف إلى خصامته قليل من الرصاص. ويعجز اللسان عن وصف تلك الزهرية من والصمون والتينات و الأكواب ، والقاقم والأباريق بألوانها المتباينة من زرقاء وحمراء وصفراء وخضراء صوداء وبنائية، وبزخارفها المنقوشة أو المنحوتة أو بطلائها المحدث.

وقد بالغ شعراء النحلة العباسية في وصف هذه الكؤوس البراقة الشفافة، ومن ذلك قول ابن المعتز:

ومدما يكو الزجاج شعاعها  
كالخيط من ذهب إذا ما سكت

وكانت هذه الآلوي مشهورة في الدنيا بأجمعها حتى ان الباحثين قد عثروا على قطع منها في قبور اسوج القديمة. ولا تقل صناعة الزجاج لدى الخلفاء الفاطميين في مصر عنها لدى بني العباس حتى انها تفوقها أحيانا كما وكيفنا. و بعد تدمير خزانة الفاطميين انتقل قسم من تلك الآلوي القيمة الى الغرب ومازال بعضهم يحفظونها في خزائن الكنائس او في المتاحف.

اما بعد تخريب بغداد فتمركزت صناعة الزجاج في الشرق في حلب ودمشق، ومن هنا جاءت هذه الصنعة الى البندقية التي صارت مركزا جليدا لصناعة الزجاج الرقيق

ذكر القرآن في سورة النمل أن سليمان الذي كان له «صراح من قواريره» مشيرا الى ما لهذه المادة من قيمة وثورة، ثم عاد لفين في آية النور تقاسم الزجاج بقوله: «الله نور السموات والارض، مثل نوره كشكوة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري ..»

إن هاتين الآيتين للدليل واضح على أهمية الزجاج في حضارة الشرق منذ أقدم العصور. ولقد كانت صنعة الزجاج معروفة في مصر في دولة الأسرة السادسة، أي حوالي ٢٥٠٠ ق.م. ويعتقد العلماء ان الإنسان عثر في زمن ما على الزجاج البركاني الذي يوجد في حمم البراكين. فجلب اهتمامه، ولم يلبث ان جرب مختلف الطرق الفنية حتى ابدع زجاجا غليظا صنع منه الخزف والزخارف الدقيقة، ثم تطورت هذه الصنعة حتى اننا نعرف في القرن السادس عشر ق.م. في أوام زجاجية في مقابر قنماء المصريين. أما المركز الثاني للحضارات القديمة فهو العراق حيث أوجده أرباب الصناعات هناك، بعد المصريين بمصور عدة، حوالي عام ٢٠٠٠ ق.م. وإن كان لهم الفضل في ابتكار الزجاج الشفاف البراق لأول مرة. يأتي بعد ذلك اهل الشام، ومن المحتمل أن يكون الصناع قبيل الميلاد قد استخدموا طريقة نفخ الزجاج في أشكال مختلفة، وبذا كانوا أول من استعان بالطرق الفنية التي تستعمل اليوم لصناعة زجاج خاص للأغراض العلمية او للأهداف الجمالية المتألصة كإنتاج زجاج ذي رقة خاصة قابل لأشرف الأشكال. وقد سبق ابن صنع كذلك - خاصة في الاسكندرية - صنف معين من الزجاج بالصفيفاء الذي تبدو فيه أنماط الأزهار والزخارف المشكلة بتركيب قضبان رقيقة من الزجاج المصبوغ فوق بعضها البعض. وكانت الامبراطورية الرومانية وقد ورثت صنعة الزجاج من الشرق القديم، وصار أحد مراكز هذه الصنعة خارج الشرق الأدنى في مدينة كولونيا في ألمانيا التي اشتهرت بزجاجها القيم، ومنه الزجاج الشبكي الذي تحيط بجسم الكأس الزجاجي شبكية من الزجاج مقطوعة من أصل الكأس وإن بدا وكأنها أضيفت مستقلة فيها بعد.

اما في القرون الوسطى فكان هناك ثلاثة مراكز لصناعة



الكأس ذات الشكل النرام تستخدم في حفظ انزيت الطرى ، وهي مصنوعة في سوريا أثناء القرن الرابع م. عن كتاب : Ullstein Gläserbuch



كنوس من الزجاج غير الشفاف عليها زخارف بظلمات زجاجية ملونة؛ صنعت في مصر القديمة، و حل اسداها اسم فرعون وتوت موه (١٥٠١ الى ١٤٤٧ ق م)  
 أوان لحفظ الزيت المعطر من الزجاج الملون، صنعت في سوريا أو الاسكندرية في القرن الثاني للميلاد. وهي محفوظة الآن في مجموعة خاصة.  
 عن كتاب: Frederic Neuburg, Antikes Glas, Eduard Roether Verlag, Darmstadt 1962.  
 لشكر دار نشر ادوارد روتير لاعارتها كتابتيهات عاتين اللحنين.





قارورتان من الزجاج الفليظ غير الملون، عليهما صور بالذهب والكرن الكيتاء ، وهما مصنوعتان في الهند (القرن الثامن عشر) وارتفاع الأولى ١٠ سم  
والثانية ١٣ سم. من كتاب: Ulstein Gilsenbuch

المزخرف بالألوان المائية. ثم انتشرت هذه الصنعة في الغرب كله، مع اختلاف التكنيك الفني المستعمل في مختلف المصانع، سواء كان «زجاج الغابات» الأخضر الغليظ المستخرج في المصانع في غابات ألمانيا، أو كان زجاج المرأة الذي اختصت به فرنسا، كما أبدع صناع هولندا صنعة نقش الزجاج بالماس على أطراف صورة، وفي بوهيميا أضاف أهل الحرفة قليلا من الطباشير إلى الزجاج الخام لكي يزداد بريقا، وقد ابتكر صانع آخر في «برتسدام» الزجاج الياقوتي اللون بالذهب ... وكانت لكل ناحية خصائص في التكنيك وفي الأشكال، ولم تخل أى قطر في المعمورة - ما بين الصين وأمريكا - من مصانع الزجاج في القرن الثامن عشر.

أما البحث العلمي عن ماهية الزجاج فلم يستل إلا منذ عهد قريب من أن القدماء كانوا قد خلفوا الكثير من

الملاحظات حول ماهية هذه المادة الشفافة المشابهة للبلور. ويقول الباحثون أن ليس للزجاج شبكة منتظمة الذرات كما هو الحال في البلورات الحقيقية وإنما هو غير منتظم الذرات وكأن المادة تجمدت بسرعة. ويمكن اليوم للباحث الذى يعلم غنظ المواد الخام المستعملة في إحضار نوع معين من الزجاج أن يتنبأ بصفات الزجاج قبل إنتاجه. الأمر الذى يسهل إحضار الزجاج الصناعى.

أما صنعة الزجاج عند القدماء وأنواع تكتيكهم فمجهولة حتى الآن وإن استطعنا أن نتصورها على وجه التثريب. ولكنه ليس في إمكاننا الوقوف على كل تفاصيل تلك الصنعة القديمة التى نشأت في الشرق منذ أكثر من ٤٥٠٠ سنة، فلنكتف بالتعجب من قدرة الإنسان على إبداء هذه الآثار البهيحة.

من زاد معرفة المزيد من المعلومات القيمة عن تاريخ الزجاج في الشرق والغرب فليقرأ كتاب

Gustav Weiss, Ullstein Gläserbuch, 336 Seiten mit 900 Photos, 16 Farbtafeln, 29 Zeichnungen, Typen- und Signaturtafeln Berlin 1966.

نشكردوا نشر اراشتان لإعائها ناكليشيات ثلاث لوحات.

## قال ابن الرومى في كأس

### BESCHREIBUNG EINES GLÄSERNEN BECHERS VON IBN AR-RŪMĪ

Ein Köstlicher, der alle Sinne fesselt  
und jedes Auge unversehens bannt,  
An Schönheit und an Anmut so bezaubernd,  
kein Preisender gebührend Lob ihm fand,  
So lauter und so licht gleich einem Lufthauch,  
der frei von Staub sich mit dem Licht verband;  
Mittleren Maßes: läßt nicht haltlos schütten,  
noch läßt er nippen an zu schmalen Rand;  
Nicht törricht die Vernunft zu früh bedrängend,  
die er durch Langmut standhaft überwand.  
Noch nie sah'n die Betrachter Wuchs und Rundung  
reizend wie er im Rücken einer Hand.  
Skorpionengleiches Ornament verziert ihn,  
das weiser Schmiede Arm in Bögen wand,  
In Bögen wie die Locken auf den Wangen  
von einem Reh, durch Mund und Blick bekannt.

Deutsch von Christoph Bürgel

(من كتاب التشبيحات، صحتها محمد خان، لندن ١٩٥٠، ص ١٨٩)





كأس، ارتفاعها ١٩ سم، من الزجاج غير الملون، مصقولة ومنحوتة، منحوت عليها منظر لصيد الأيل. موطنها إقليم ساكسونيا، حوالي عام ١٧٤٠.  
كأس، ارتفاعها ٢٥ سم، منحوت عليها مشهد صيد؛ موطنها إقليم نورنبرج. حوالي سنة ١٧٢٥.



كأس ذات غطاء، ارتفاعها ٣٠×٣ سم، من الزجاج الأندك (اللون بالذهب)، منحوتة فيها أشكال أطفال سائلة العواكة، من صنع جوتفريد شيبو برلين،  
حوالي عام ١٧١٠.

عن كتاب: Ullstein Gläserbuch



كأس ذات عطاء، ارتفاعها ٢٨ سم، من الزجاج اللطيف غير الملون، منحوتة عليها زخارف كلاسيكية. موطها مدينة هرسدورف باتليم سيلسيا، من صنع فريدرش فينتر، أواخر القرن السابع عشر.

كأس، ارتفاعها ٢٠,٥ سم، من الزجاج اللطيف غير الملون، عليها زخارف تحت بطرق قبة مختلفة. موطها سيلسيا، من صنع فريدرش فينتر، حوالي عام ١٧٠٠.

الصور على ص ٣٠ و ٣٢ مأخوذة. عن كتاب: Einführung von Brigitte Klesse. Verlag Lambert Müller GmbH, München 1966.

# ورقة عن تاريخ الاستشراق في ألمانيا:

تيودور نولدكه  
عن إيتوليمان

ولد المستشرق إيتوليمان في أولدنبورج في ١٦/٩/١٨٧٥ وحرس في جامعات برلين وهاله وجرايفالد وستراسبورغ. بدأ حياته التدريسية كحاضر للغات الشرقية في جامعة برنستون في الولايات المتحدة؛ ثم اشتغل كأستاذ للغات الشرقية في جامعة ستراسبورغ عام ١٩٠٦، وفي جامعة جوتنجن عام ١٩١٤، وبين عام ١٩١٦، وأنتيراً في تورينج من ١٩٢١ إلى ١٩٥١. وقد كان عضواً في بعثات الآثار الأمريكية إلى سوريا والحبيشة وآسيا الصغرى؛ كما ترأس البعثة الأثرية الألمانية إلى الحبيشة. ومن أهم مؤلفاته: «حول تفسير النقوش النوبية (١٩٠٤)»، «تاريخ الأدب اللاتيني (١٩٠٧)»؛ «مطبوعات حملة برنستون الاستكشافية إلى الحبيشة» في أربعة أجزاء (١٩١٠ - ١٩١٥)؛ «الكلمات الشرقية في اللغة الألمانية» (١٩٢٠ و ١٩٢٤)؛ «أول ترجمة كاملة لألف ليلة وليلة بالألمانية» في ستة أجزاء (١٩٢١ - ١٩٢٨ و ١٩٥٢/١٩٥٤).

والانتباه. وكانت النظرية منذ حداثة سنه تحتل مكان العمل إلى حد بعيد. ولكن هذه النظرية لم تكن وهمة غربية عن العالم، ولم تكن محدودة الأفق. وبقراءة كتب الرحلات عن الشرق ودراسة الآداب الشرقية، تعرف نولدكه في سن مبكرة على شعوب الشرق الأدنى أفضل من كثيرين من عاشوا الأعمار الطوال هناك. وكان يفتقر إلى الجانب العملي في اللغات أيضاً؛ فلم يتح له إلا تعلم التكلم قليلاً بالتركية في فيينا، كما كان في لايدن يجيد التكلم بالهولندية. غير أن اللغات التي كان يتناولها بأبحاثه العلمية كانت أقرب إليه منها إلى أي شخص آخر من زملائه المختصين. وفي الخامسة عشرة من عمره اضطر إلى التوقف عن الدراسة مدة ربع عام لصابته بفقر في الدم. وعندما انكب على دراسة العبرية بمفرده حتى توصل بعدها إلى إغاثته من مادة اللغة العبرية المدرسية. وكانت دراسته الرئيسية في المدرسة تشتمل على اللغات القديمة التي راح يدرسها باجتهاد تحت إشراف والده في هاربورج، وكذلك في لنكن، حيث نقل هذا عام ١٨٤٩. وفي خريف عام ١٨٥٣ التحق بجامعة جوتنجن ليصبح مستشرقاً، على حد قول أبيه. أما هو فقد كان ينوي دراسة اللغات القديمة والشرقية؛ غير أن شخصية الأستاذ إيتوليمان الجبارة، وقد كان صديقاً لوالده، استحوذت عليه كلياً لدراسة الاستشراق وحده. وقد ظل مديناً لأستاذه طيلة

رغم الهدوء الذي كان يسود بوجهه عام مجرى حياة المستشرق العظيم تيودور نولدكه، إلا أن مكاسبه العلمية وقوة نفوذه طبعت حفل الاستشراق بكامله خلال السبعين عاماً الأخيرة<sup>(١)</sup> بطابع شخصيته المؤثرة، ولولاه لما أمكن تصور أي تطور لهذا العلم.

ولد نولدكه في الثاني من آذار (مارس) عام ١٨٣٦ في مدينة هامبورج، حيث كان والده آنذاك عييداً للمعهد الثانوي المتوسط. وقد خللت المدينة ذكره بتخصيه مواطناً فكرياً وبتسمية شارع باسمه يوم عيد ميلاده التسعين. وأسرة نولدكه واسعة الانتشار في شمالي غربي ألمانيا، ويعود أصلها عبر عدة قرون إلى أحد وجهاء مدينة هلمسهايم، كان يعيش في بداية القرن السادس عشر. وقد برز من عائلة نولدكه هذه عدد كبير من رجال الدين والمعلمين والموظفين. وقد كان العميد نولدكه في هاربورج موظفاً أميناً كذلك، وكان بالنسبة لابنه مثالا لتفاني في أداء الواجب، كما أبقت فيه، ككامل للغات القديمة، حب علوم الأوتار، ذلك الحب الذي لازم الابن طيلة حياته. وكان نولدكه في مطلع حياته صلياً ضعيفاً؛ ورغم أنه كان يشترك في الألعاب الرياضية لفتية هاربورج، ويتحدث بلهجته، غير أن اشتراكه في ذلك لم ينسجم بالحوية والقوة الكافية. وقد عرض عما كان يفتقر إليه من حرارة الاختلاط وعن الاحتكاك الشخصي بالبيئة المحيطة به بقوة الملاحظة

الثانية على صعيد واحد مع اثنين من رجال العلم البارزين كانوا اكبر منه سناً. وبعد ذلك عمل على اتمام ترجمة ألمانية لكتابه الفاتر أصدرها عام ١٨٦٠، وهى الكتاب الشهير الذى اشترى إليه سابقاً : « تاريخ القرآن »، وهو أول مؤلفاته العظيمة الكثيرة. وبه دل على طريق البحث العلمى الصحيح فى الدراسات القرآنية. وقد أظهر هذا الكتاب ميکراً جميع خصائص طريقة تولدكه فى البحث، معرفة

شاملة على أساس بحث أمين فى جميع التفاصيل، وحكم واضح دقيق يرد كل ما هو مشكوك فيه ويرفض ما لا يقبل الاحتمال. وبطبيعة الحال فكان مما لا بد منه أن تسبب طريقته هذه تناقضاً بينه وبين استاذة إيفالد، الذى كان رغم علمه وعبقريته، عالياً متسلطاً شديد التعصب والايمان بنفسه، وهو استاذة الذى كرس له هذا الكتاب بالذات فى كلمة الاهداء. ثم مكث تولدكه عاماً ونصف العام فى برلين كمساعد فى المكتبة. وفى هذه الفترة تصادق مع عدد من العلماء والباحثين المسنين، كان لهم أثر طيب فى تعريفه بمجول جديدة من العلم والمعرفة. ولكن عندما وجه إليه مدير المكتبة عام ١٨٦٠ طلباً جازماً مس كرامته وحرية الشخصية، عزم بسرعة على الاستقالة وغادر عمله بعد أن وجه رسالة تنبض بالرجولة إلى رئيسه. وعلى أثر ذلك مضى إلى إيطاليا لمدة ربع عام، وساعده على تحقيق هذه الرحلة عم طيب غنى.

وقد كتب عن أعماله ونجاريه وانطباعاته أثناء «أعوام ترحاله» بالتفصيل فى رسالته إلى استاذة إيفالد. وفى هذه الرسائل يحتل العلم المكان الأول، ولكنها لا تحلو كذلك من اهتمامه الحوى بالأحداث العالمية. وفى بداية كانون الأول (ديسمبر) من عام ١٨٦٠ عاد تولدكه إلى جوتنجن وأصبح فوراً مساعداً فى المكتبة. وفى ربيع ١٨٦١ قدم اطروحة الكفاءة التدرسية الجامعية وأصبح محاضراً خاصاً للغات السامية. وتخلل عن منصبه فى المكتبة بعد عام ونصف العام من جديد، إذ كان عمله فيها يعيقه كثيراً عن أبحاثه ودراساته العلمية. وأهم خلال تلك الفترة بالدرجة الأولى بالشعر العربى وباللغة التركية التى تعمق فى دراسة هجتها وبرع فيها.

وفى ربيع ١٨٦٤ استدى إلى جامعة كييل ليخلف الاستاذ ديلمان<sup>(٨)</sup>. وظل هناك أربعة أعوام كأستاذ غير نظامى، ثم أربعة أعوام ونصف العام كأستاذ نظامى عام. وقد كان الاستدعاء إلى كييل، كما اعتقد تولدكه نفسه، الداعى الاول إلى خصومة لاكار<sup>(٩)</sup>، الذى كان يعيش كأستاذ آنذاك فى ظروف بالسة جداً، والذى كان يأمل فى الحصول

حياته. رغم أنه اضطر لمقاعد إلى الانفصال عنه شخصياً؛ وقد أدرك أن تأثير إيفالد الرئيسى كان يكن فى أنه كان كأستاذ يطلب من تلاميذه أكثر بكثير مما يقدرون عليه، بحيث كان بذلك يجبرهم على العمل الشديد والتفكير الحاد. وبالإضافة إلى اللغات السامية فقد انكب على دراسة القاموس والتركية، ثم تعلم الفلسفة بآشراف الاستاذ بنفائ<sup>(١٠)</sup>.

وفى عام ١٨٥٩ ظهر أول مؤلف لتولدكه. فقد تمكن من الفوز بالمسابقة العلمية للكلية، طبع مؤلفه واعتبر فى الوقت نفسه اطروحة الدكتوراه بحيث نال فى اغسطس من العام نفسه هذه الدرجة العلمية. أما عنوان المؤلف باللاتينية فهو: «De origine et compositione Surarum qoranicarum ipsiusque Quran» وترجمة ذلك بالعربية : «حول نشوء وتركيب السور القرآنية». أما تولدكه نفسه فقد دعا مؤلفه نتاج قوة لا يقسم بالنشوء، وسر أنه تمكن من تخطيه بامتياز فى كتابه «تاريخ القرآن» الذى نشر عام ١٨٦٠. وقد كانت الفترة الواقعة بين ١٨٥٩ و ١٨٦٠ أعوام تجوالة وترحاله. فقد اتجه أولاً إلى فيينا لتعرف على مخطوطات المكتبة الملكية هناك، ماراً بمدينة لايبزج، حيث زار استاذ علوم اللغة العربية الشهير فلاشر<sup>(١١)</sup>. وكانت تساوره سراً فكرة الانتقال من هناك إلى الشرق؛ غير أن هذه الرغبة لم تتحقق، وطالما اعتراه التندم على عدم تمكنه من التعرف إلى الشرق بنفسه وبأمر عينيته. وفى خريف ١٨٥٧ انتقل إلى لايدن حيث قضى شهوراً بهيبة فى العمل الجهد على المخطوطات العربية الموجودة هناك فى حلقته من الزملاء المختصين الشباب. وعقد آنذاك ايام صداقة عميقة مع ميشاليل يان دى خويده<sup>(١٢)</sup>، المستشرق الهولندى العظيم. وفى تلك الأثناء أقامت اكااديمية المخطوطات الباريسية مسابقة موضوعها تاريخ القرآن. وكان تولدكه المرشح المناسب للفوز بهذه المهمة، وبالفعل فانه لم يفوت الفرصة، بل غادر لايدن قبل الموعد الذى كان مقرراً، ليدرس فى غرتا وبرلين مخطوطات 'كانت مهمة بالنسبة لعمله. وفى ربيع ١٨٥٨ جاء برلين وأتم فيها كتابة بحث المسابقة. ثم أرسل المخطوط باللفة اللاتينية إلى باريس، حيث كان قد وصل مخطوطان آخران كتبهما عالمان معروفان هما : الألمان شينجر<sup>(١٣)</sup> والاباطلى أمارى<sup>(١٤)</sup>. وما كان من الاكااديمية إلا أن ضاعفت الجائزة وزعت المبلغ بالتساوى على الفائزين الثلاثة. وهكذا كان الشاب الذى لم يتجاوز سنة الاثنتين والعشرين عاماً قد حل مسابقتين علميتين، كما فاز فى



*It is a pleasure to meet you and to  
see you in your country!  
The Englishman*

الاستاذ تيودور نولذكه قبل وفاته.

الايمان والمعرفة. ولذا فقد هاجم كذلك «العقلانية الضعيفة، التي يلجأ إليها حتى مؤمنون الراشدون أكثر فأكثر»<sup>١٠</sup> إذ أن «عقلانيته» كانت من عهد قوى، كروحه، التي كانت تعمر في جسد ضعيف كجسده.

وأما قيامه بالدراسات الآرامية فقد كان بمحض الصدفة. إذ أن مكتبة جامعة كييل، التي كانت لا تملك من الكتب الخاصة باللغات والشعوب السامية إلا التراقييل، حصلت من خلفات آدلر<sup>(١١)</sup>، الذي تولى عام ١٨٣٤، وهو في منصب المشرف الأعلى العام لمقاطعة شليزفيغ-هولشتاين، على عدد كبير من المؤلفات الخاصة بالأدب السرياني. وكانت هذه المكتبة هي الدافع إلى اهتمام نولذكه الآن بصورة أعمق وأدق باللغة الآرامية. وكما وضع الأبحاث القرآنية على قواعد متينة ثابتة في كتابة وتاريخ القرآن، فقد وضع الآن الاسس العلمية لدراسة اللغات السريانية، والسريانية الحديثة والمندعية. وظهر

على كرسى الاستاذية في كييل. ولكن نولذكه لم يدعه بعافى طويلاً من أجل ذلك، فحين أصبح منصب الاستاذ لإيفالد شاغراً عام ١٨٦٩، ورغب أنه كان يريد أن يكون خليفة استاذة في منصبه العلمي، إلا أنه كتب إلى جوتنجن قائلاً: إنه لا يعرف أحداً يرغب في التخلي من أجله عن منصب إيفالد الشاغر أفضل من لاكارد، الذي يعتبره واحداً من أبلغ المستشرقين وأمين العاملين خلقاً. حقاً، لقد كان عزاً ذلك القدر الذي كان يبعد شخصياً أولئك العظماء الثلاثة: إيفالد ولاكارد ونولذكه، الواحد منهم عن الآخر. ومن المسلم به أن طلباتهم كانت متباينة جداً. إذ لم يكن لإيفالد ليحتمل أية معارضة، وكان يعتبر الآراء التي تختلف عن آرائه وكأنها أخطاء خلقية؛ أما نولذكه فكان يؤمن بحق الرأي الحر لكل إنسان، وكان يناقش الجميع بتجرد وموضوعية. وبينما كان لاكارد رومانتيكياً، كان نولذكه، كما كان يقول بنفسه، عقلانياً. وكثيراً ما كان إيفالد ولاكارد ينساقان بطريقتيهما العاطفية إلى إصدار أحكام جائرة. أما نولذكه فقد كان في القضايا العلمية مفعماً بروح العدل المحردة من العاطفة. وفي الرابع من تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٨٦٩ بعث برسالة وداعية إلى إيفالد، بعد أن سبق لهذا أن تعدى عليه عدة مرات بالكلام القاسي. وقد كانت رسالة قصيرة، وجيزة، حازمة، وقد أعرب فيها عن امتنانه واحترامه الدائم لاستاذة بأسلوب يملك الحواس. وكان نولذكه قبل ذلك قد تعرض بالتفصيل إلى وضعه مع إيفالد في رسائل إلى صديقه الأبرى فيزل<sup>(١٢)</sup>، دون أن يفقد في أي منها أسلوبه الواضح وروحه الموضوعية. وكان لاكارد يهاجم نولذكه كثيراً في مؤلفاته، مهيماً علمياً وشخصياً. ويحتم نولذكه دفاعه في وجه هذه الهجمات بالكلمات التالية: «وَأما أن أجييب على اتهامي بالتبني المقصود على الحق، فهذا ما لا تقبل به كبريائي».

وفي الفترة التي قضاه في كييل أهم نولذكه بالمعهد القديم، الذي كان عليه شرحه في محاضراته، كما أهم باللغة الآرامية بالدرجة الأولى. وأصدر آنذاك كتابي: «المؤلفات المختصة بالمعهد القديم» و«البحاث في نقد العهد القديم». وكان الأول عرضاً شاملاً، والثاني يشكل الأساس العلمي لذلك. ومع أن هذين الكتابين قد أصبحا قديمين في معلوماتهما إلى حد ما، وخاصة بفضل مؤلفات فلهاوزن<sup>(١٣)</sup> الطليعية في هذا الحقل، فقد كانا عمليين يمتازان في صغرهما كافيين لإسباغ آيات الفخار على أي علم مختص بشئون المعهد القديم. ولم يكن نولذكه يعرف حلاً وسطاً بين

السامية باستثناء اللغة البابلية - الآشورية والقوش العربية الجنوبية، كما كانت تشتمل كذلك على الفارسية الحديثة والتركية. وكان التلاميذ يترجمون، بينما كان يصحح ويقوم بالتعليق والشرح، لغة ومحتوى. وكان أستاذه إيفالد، يفرض على تلاميذه مطالب عالية؛ فتعلموا منه أن يكونوا أسماء في أصغر التفاصيل، والا يفقدوا نظرهم إلى الكل عموماً، وأن يجتنبوا النظريات الفلكية التي لا تصمد أمام النقد ولا تستند إلى الحجة والبرهان. وسجن كان أحد التلاميذ يلحن في القراءة أو يخطئ في أحد بحور الشعر أو في الترجمة، كان جسم الأستاذ الصغير الشديد الحركة يتعالى فجأة من مكانه المعتاد في زاوية المقعد الطويل احتجاجاً واستنكاراً للخطأ الفادح. وبعد إحالته على التقاعد ظل يعقد حلقاته التدريسية مرات عديدة، ويبحث فيها نصوصاً عربية وفارسية صعبة، وكان أفضل تلامذتي الخاصين يشركون في ساعاته التدريسية أيضاً. ولقما كان يقوم بالقاء المحاضرات المنظمة، ورغم السهولة والسلامة التي كانت يهما نضاض له الكلمة المكتوبة، ورغم الحيوية وعمق الأثر والروية الفكرية التي كانت تتصف بها أحاديثه - إلا أنه لم يكن يجب إلقاء الخطب العامة. وقد نحل عن المحاضرات المتعلقة بالعهد القديم في ستراسبورج عن قصد، إذ كان الأستاذ القدير إدوارد رويس<sup>(١٢)</sup> يمثل هذه المادة التعليمية خير تمثيل.

وبالإضافة إلى قواعد الآرامية الشرقية والسريانية، فقد أُلِفَ تولدك في ستراسبورج سلسلة كبيرة من الكتب، وخاصة في حقول الدراسات العربية واللغات السامية المقارنة، والحكايات الخرافية الشرقية، والدراسات الإيرانية. وكان في جوتنجن قد اشغلت على دراسة الشعر العربي القديم. وفي ستراسبورج أُلِفَ ترجمات وشروح خمس مقالات واعطى بذلك مثلاً فريداً من نوعه في وضوح التفسير، لغة ومتناً. ولغرض الدقة في تحديد الحيوانات والنباتات التي وردت في النصوص، كان يستشير علماء الحيوان والنبات. وبحثه حول "قواعد اللغة العربية الكلاسيكية" كان اول من عالج العربية معالجة جادة من حيث الاعتبار والعرض التاريخي. وتناولت أبحاث أخرى دين وتاريخ عرب الجاهلية حيث ظهرت بوجه خاص أهمية معرفته الثامة بالمصادر اللاتينية والإغريقية. فقد كانت هذه عوناً شديداً له في جميع أبحاثه التاريخية، وكذلك في ترجمته لكتاب تأريخي سرياني، ويوجه خاص في كتابه "تاريخ الفرس والعرب في عصر الساسانيين. مترجم من

كتاب قواعد السريانية الحديثة وهو لا يزال في كمال، بينما ظهر كتابا قواعد السريانية والمندعية أثناء وجوده في ستراسبورج. وتعتبر كتب القواعد الثلاثة مؤلفات تعليمية من الدرجة الأولى إطلافاً. وتأليف الثلاثة فقد كان عليه أن يعمل منتقياً في مواد اللغة كلها بمنتهى الدقة والعناية. وأدت قواعد السريانية الحديثة بعد فترة جديدة إلى بحث اللغات السامية الحية، التي تحمل أهمية كبيرة للحكم على اللغات القديمة. أما قواعد الآرامية الشرقية فقد كونت الأساس لفهم الأدب الآرامي الشرق فحسب، بل وكذلك لتفهم كثير من مشاكل المقارنات اللغوية السامية؛ وكان كتاب قواعد السريانية، الذي صبرفيا بعد في طبعة ثانية، وترجم كذلك إلى الإنجليزية، عرضاً ممتازاً لهذه اللغة العظيمة الأهمية بالنسبة للشرق المسيحي. وفي ربيع ١٨٧٢ استدعي تولدك إلى الجامعة الألمانية التي انشئت آنذاك حديثاً في ستراسبورج، وفي خريف العام نفسه انتقل هناك وظل فيها حتى عام ١٩٢٠. وكان المفروض أن يستدعي في عام ١٨٧٦ إلى جامعة برلين، ولكن أحد تلاميذه تسبب في عرقلة الاستدعاء وحصل على المنصب لنفسه. ثم رفض طلبات استدعاء إلى جامعات فيينا ولايبزج وجوتنجن، حيث كان مركزه في ستراسبورج ثابت الجذور. ومع ذلك فقد أبتج بوجه خاص لاستدعائه إلى جوتنجن، حيث كان المفروض أن يحلف لا غارد. ومنذ عام ١٩٠٦ أحيى تولدك على المعاش. وعندما دخل الفرنسيون، بعد انكسار لألمانيا، أراضي الأكراس وأبعدوا جميع الألمان من ستراسبورج، لم يجرأ أن يفعلوا ذلك مع هذا العالم الجليل، الذي اشتهر اسمه في جميع أنحاء العالم. فعاد في ربيع ١٩٢٠ المدينة بحض اختياره وأنجه إلى كارلزيه ليقم مع ابنه هناك. وظل هناك مدة أحد عشر عاماً قضاهم في لحظة فكرية ثامة، إلى أن غارق الحياة في صبيحة يوم عيد الميلاد من عام ١٩٣٠ وهو متكى على كرسي الشيوخفة، بعد أن كان في اليوم السابق قد أتم قراءة رواية للأديب كوتارد فريدياندا ماير<sup>(١٣)</sup>.

وفي ستراسبورج صلحت كتب تولدك الرئيسية. وبفضله أصبحت ستراسبورج مركز الدراسات الشرقية ليس بالنسبة لألمانيا وحدها فحسب، بل وكذلك بالنسبة للعالم أجمع. وقد تمعد ألا يؤسس لنفسه "مدرسة" خاصة؛ ولكن جميع علماء اللغات السامية المعاصرين أصبحوا تلاميذه، سواء أدرسوا على يديه، أم استمدوا من كتبه منهم العلمية وسلاحهم للبحث والدراسة. وكانت حلقاته التدريسية التي كان يعقدها في غرفة عمله تتناول مجموع حقول اللغات

Karlsruhe: 21. 32. 1884, 53.

Ihre geschätzte Karte Dankend!  
Beson. Danke für die Übersetzung Ihres Schiffs, die ich  
mit großen Interesse gelesen habe. Die großen Ereignisse, durch  
die Sie sich beschäftigen haben, sind mir zu Teil geworden, zum  
Teil so gut wie gar nicht bekannt. Mit Aufregung habe ich die  
Reise von Mesopotamien auf dem Tigris, die in die Zeit, vor der Arabischen  
Beherrschung alle Tümpel verfallen, hinein fällt, verfolgt, aber  
was sind die Stellen arabischer Sprache, wenn auch vielfach werden  
arabischer Herkunft, aber der Zusammenhang und die großen  
Teile der alten Mesopotamien erzählen, das ist so, dass nicht  
vorgegangen. Natürlich ist es nicht immer leicht, das  
Geschichte von der Legende oder der willkürlichen Konstruktion  
zu sondern. Sie gehen oft in der alten Beschreibung über den  
Trop der türkischen Herkunft, gerade die wirklich Geschichte  
zu erkennen, zumal das die Regierung sind die große Mische  
Jah, das Form zum Beispiel eines keltischen Nachschlages  
zu verwenden, und die die Form der Regierungstruppen der keltischen  
Regierung sind keltischen die keltischen Nachschlages, und es  
die Legende, das ist die Folge von der Legende der keltischen  
so gemacht, alles anders, und ich danke Sie für Ihre Karte

من رسالة الأستاذ نولده الى الدكتور روى پارت. (يوجد امضاء نولده لهذا المکتوب مل من ٢٥).  
شكر الأستاذ پارت في جامعة تونين لتبرعنا بنشر هذه الرسالة، ولا انقادنا به من معلومات قيمة من تيجور نولده.

الفارسية القديمة بينا ترك الشعر الوجداني الفارسي الحديث  
جانباً بسبب ازواج معناه.  
وقد كرس نولده لأبحاثه في اللغات السامية المقارنة  
مؤلفين هما : «أبحاث في علم اللغات السامية» و«أبحاث  
جديدة في علم اللغات السامية». وبتمكن كامل من المادة،  
ومعرفة لغات، لم يحصلها من كتب القواعد والقواميس،  
وإنما من المصادر الأولية، عالج عدداً من المسائل اللغوية  
الهامة، متمسكاً في ذلك دوماً بما هو قائم فعلاً، ومجتنباً

تاريخ الطبري ومرفق بإيضاحات وتبَيّات تفصيلية». وقد  
أدت دراسته للمصادر الفارسية إلى قيامه بدراسة الخواصيات  
القومية الإيرانية، التي قرأ من أجلها أسطورة الفردوسي  
المنظومة «شاهنامه» الضخم مرات عديدة، كما أدت أيضاً إلى  
أبحاثه حول اللغة الفارسية الوسطى (البلوية) وأدبها، وهي  
تتميز بالصعوبة الشديدة، وفي هذه الدراسات حدد نهائياً  
وبصورة قاطعة الطابع الحقيقي لهذه اللغة، تماماً كما فعل  
صديقه أندرياز<sup>(١٤)</sup>. وقد أتم كذلك بدراسة النقوش



So auch وَمَا جَعَلَ الْبَرْدُسَ مَاتٍ يَتَنَبَّيْ, und nicht hast du dich entfernt, den Paradiesgarten zu suchen' Ham. 792 v. 3 und رَأَيْتَ أَعْلَمَ بِإِسْنَانٍ مَا يَتَقَلَّبُو, und Gott weiss am besten, welche Mäthe sie in S. auf sich nahmen' Ham. 284 v. 6. Ähnlich die Voransetzung eines su seinem Participle oder Verbaladjectiv mit Artikel gehörigen Ausdrucks: وَمَا هُوَ خَلَّاهَا بِالْحَيْثِ الرَّبِيبِ, und nicht ist es eine Geschichte, die man nur so über sie erzählt' Zuhair. Mo. 29;

فَقُلْ لَيْسَ بِالرَّاضِي بِأَذَى مَبِيتِهِ وَلَا لِي بِوُتِّ الْحَمْدِ بِالشَّرْحِ.

ein Mann, der nicht mit dem elendesten Leben zufrieden ist und sich nicht in die Häuser  
des Stammes eindringt' Ham. 764 v. 3, <sup>1/2</sup> 3/103 = 74 1/2

وَالْحَرْبُ صَاحِبُهَا الصَّالِبُ عَلَى تَلَايِلِهَا الْعَزْمُ

„und der Mann des Kampfes ist der Feste, der bei dessen Schwankungen energisch bleibt“  
Hann. 582 v. 1; 14. 14852.

وَالْحَيْلُ أَجْرُهَا النَّائِبُ عِنْدَ كَيْفِهَا الْأَذْوَمُ

und das beste Rennpferd ist das wetlaufende, das beim Ueberstürzen der Rosse bissig ist Ham. 582 v. 5. Ein weiteres Beispiel Chis. 3, 568.

Eine ungewöhnliche, aber auch den obigen Fällen ähnliche, Trennung des Zusammengehörigen ist in *قَدْ دَانَ عَلَى الْأَصْحَابِ سَائِلَاتُ* 'ein Bein, das von den Genossen schmerzlich vermisst wird' Agh. 21, 69, 21 = Jaq. 1, 665, 12 und ebenso mit *قَدْ* für *قَدْ*, das den Genossen sehr werth ist, Agh. 21, 70, 1 = Jaq. 1, 665, 13. *بِمَنْ يَنْفَعُ*

فان كان هذا حيد اعانه = würde dieser erjagt, so erhielte er meinen Werthen (= Ganz-ungewöhnlich hart in die Wortstellung aber in folgenden Stellen: Vater) am Leben' Hudh. 2, 14;

فَمَا مِنْ فِقِّيٍّ كُنَّا مِنَ الْفَاسِ وَاحِدًا      وَتَتَجَيَّ مِنْهُمْ عِيْدًا نَادِلِسْ

und es giebt unter den Menschen keinen Mann, den wir als einzigen für ihn zum Führer, der ihn ersetzen sollte, suchen möchten! Ham.

und nicht giebt es unter den Menschen einen Lebenden, ihm nahekommend, ausser einem Fürsten, dessen Muttervater sein eigener Vater ist<sup>1</sup>. Wright, Op. ar. 67 und sonst citirt.

<sup>1</sup> Der Angewandte ist ein mittlerlicher Oheim des Chailen Hiam (des Fürsten).

وَيَزَعُمُ أَنَّهُ جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۚ وَيَزَعُمُ أَنَّهُ رَاقِدٌ عَلَيْهِمْ يَوْمَئِذٍ عِلْمُهُ ۚ

إذا كثر ذو النيات السوء - إذا ظن أن الميعاد ذو التيقن فاحضر به (الله) مبادي

الفرصيات الثقيلة. وقد ساعد بدة أبحاث نقدية ومقالات ومنشورات صغيرة على تطوير المعرفة بالهجرات العربية والحبيشة، وكذلك بالنقوش السامية إلى حد بعيد. وفي حقل القصص الخرافية الشرقية ألف عدداً كبيراً من المقالات والرسائل الكبيرة والصغيرة، أهمها: «بحث حول تاريخ رواية الأسماك» و«دراسة حول رواية أحقار». وساهم كذلك في إلقاء الضوء على تاريخ قصص ألف ليلة وليلة، أو بعض حكايات هذه المجموعة، كما خاض البحث في مجموعة قصص «كليلة ودمنة»، مقتنياً طريق انتقالها من الهند عبر إيران والشرق الأدنى إلى الغرب. لقد كان تولده سيد الأسلوب العلمي والأسلوب الشعبي معاً. وإن خمسة من كتبه، وهي «الولفات المختصة بالمهد القديم» الذي ذكرناه سابقاً، و«حياة عمدة»، و«مقالات في التاريخ الفارسي»، و«أبحاث شرقية» ثم بحث «اللغات السامية»، قد جعلت نتائج دراساته العلمية ثروة عاملاً للعالم المثقف.

وفي عيد ميلاده السبعين كُرس له مؤلف تذكاري مجلدين، اشترك في تأليف صفحاته الألف والمائتين مستشرقون من الحقول العلمية ذات العلاقة بالاستشراق من جميع الدول وأجمعوا في ذلك على ميايعة وتقديره. وفي عيد ميلاده الثمانين سرتني أن أحمل إليه في ستراسبورج كتاباً تذكاريًا من جميعتنا<sup>(١٧)</sup> مع كلمة إهداء من السيد إيرتر<sup>(١٨)</sup> وفتي. وطبع على الكتاب باللغة العربية البيت التالي:

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا من بعدنا إلى الآثار  
ولكننا نحن الذين كنا مقرين إليه لا يمكن أن ن فكر  
بمؤلفاته وأعماله دين الرجل نفسه. فقد كان جميع الذين  
تعرفوا إليه عن كتب يقدرونه ويولونه أبلغ آيات الاحترام.  
ففي كيل هناك علم اللاهوت ليسبوس<sup>(١٩)</sup>، واستاذ التاريخ  
القديم فون كوتشميت<sup>(٢٠)</sup>. أما بين تلاميذه في ستراسبورج  
فهناك خصوصاً سى. بارت<sup>(٢١)</sup>، الاستاذ السابق في برلين،  
ويغان<sup>(٢٢)</sup> الاستاذ الحالي في كامبردج، وبيترلند<sup>(٢٣)</sup>  
وبرونو<sup>(٢٤)</sup>، الاستاذان السابقان في هايدلبرج، وفريبنكل<sup>(٢٥)</sup>  
الاستاذ السابق في برسلو، وجيورج ياكوب<sup>(٢٦)</sup>،  
الاستاذ الحالي في كيل، ورويكناكيس<sup>(٢٧)</sup>، الاستاذ الحالي  
في غراتس، وسنك هيركرونه<sup>(٢٨)</sup>، الاستاذ الحالي في لايدن،  
وتورى<sup>(٢٩)</sup>، الاستاذ الحالي في نيميغن، كونكيتيك  
بالولايات المتحدة الأمريكية. وكانت تربطه بالعلماء  
دى نخوية في لايدن، وجويدى<sup>(٣٠)</sup> في روما، وجولد-  
تسهر<sup>(٣١)</sup> في بودابست، وراينش<sup>(٣٢)</sup> في فيينا، وج

هرفان<sup>(٣٣)</sup> في كيل صداقة متينة. وكان كل من تولده وغلهاوزن يقول عن الآخر إن الآخر أم من نفسه بكثير. وكان يتبادل الرأي بنشاط مع إدوارد ماير<sup>(٣٤)</sup> وإدوارد شفارتز<sup>(٣٥)</sup>. وكان يكرس وقتاً طويلاً للاتصال الخطي مع أصدقائه وزملائه. وكان في مراسلاته أميناً منتظماً. وإنه يشبه الاسطورة الخيالية أن هذا الرجل الخليل الجسم، الذي بلغ عدد منشوراته العلمية ما يقارب السبعينات بحث، والذي كان يساهم بتصيب فعال في أعمال كليت وجامعته ومصر وطنه، والذي كان قارئاً حصف نشيط، والذي كان يحضر كل محاضرة وكل تقريب علمي للكتب الجديدة تحضيراً في غاية الدقة والتمحيص والتفصيل كان يجد دهم كل ذلك متسماً من الوقت لكتابة عدة آلاف من الرسائل. وفي الأعوام الأخيرة من حياته كانت رسائله تبدأ غالباً بالشكرى من صفحه الجسدي، ولكن سرجان ما كانت تفلو ذلك تعليقات علمية وسياسية فعالة. ولم يكن ذلك ممكناً إلا بأزاده الحديدي في رفض كل ما كان يعوقه عن العمل. وكانت تساعده في ذلك بكل حرص وعناية زوجته المخلصة التي اختطفتها يد اللثمة منه عام ١٩١٦.

وكثيراً ما كان تولده يدهو نفسه بالقلان؛ ولكنه لم يكن كذلك بالمعنى المألوف لهذه الكلمة. ويمكن أن ندعوه بدلاً من ذلك ممثلاً للعقل الإنساني السليم في الشؤون العلمية؛ أما في المسائل الشخصية فكثيراً ما كان يصيب عاطفياً تماماً. وكان ينفر من كل ما هو رومانتيكي وصوفي. ولذا فانه لم يتم كذلك بدراسة التصوف الشرقي، الذي لعب من دين شك دوراً هاماً جداً في الإسلام. وقد رافقته روح الفكاهة حتى آخر أيامه وساعدته على التغلب على كثير من المصاعب والمزجات. وقد كان يوده أن يصبح مؤرخاً للأحداث العالمية، ولذا فقد نغمته السعادة الكبرى حين أظهر له تيودور موسن<sup>(٣٦)</sup> اعتراجه بعلمه، عندما اعترض تولده على بعض ما جاء في بحث لموسن حول السياسة الرومانية في الشرق الأدنى.

لقد كان تيودور تولده يمثل العالم الألماني من الطرز القديم في ذرى كاله. ومن صفاته أيضاً أنه كان، رغم معرفته التامة الحقبة بنفسه، متواضعاً بكل ما في هذه الكلمة من معنى؛ فقد كان ينفر من كل جسيمة فارقة وغرور وحسب للظهور.

لقد ولى ببقده عهد عظيم من عهود العلم البشري.

ترجمة: محمد علي حشيشو

► صيغة من كتاب تولده حول الشعر العربي مجراني للزلات.

مأخوذة من الطبعة الجديدة لهذا الكتاب التي أصدره الأستاذ أدون شيدال في جامعة ميونخ، دارمشتاد ١٩٦٣.

## تعليقات.....

لمحمد علي حشيش

(١) فريدريش ويرليوس أُرْسِمت فيولر (F. J. A. Wieseler) عالم آثار وفنان قديم. ولد في أشتراله في شمال ألمانيا في ١٨١١/١٠/١٩ وتوفي في جوتينغن في ١٨٩٢/١٢/٣. كان من تلامذة الأستاذ إيفانك، ثم مال إلى دراسة اللغات الكلاسيكية والآثار. أصبح منذ عام ١٨٥٤ أستاذًا للآثار والفنون القديمة، وقام برحلات علمية كثيرة ونشر عدة أبحاث تطوره أعماله بالجمع بين الآثار القديمة وعلم اللغات الكلاسيكية.

(١١) ويلهيلم فايلهاوس (J. Wellhausen) مستشرق وعالم لاهوت بروتستانتي، ولد في هامبلن في ١٨٤٤/٥/١٧ وتوفي في جوتينغن في ١٩١٨/١/٧. ويهتم أهم عالم تخصص بالهدم القديم، في القرن التاسع عشر. أصبح أستاذًا لللاهوت في غرايفزاله في ١٨٧٢ وإساذ اللغات الشرقية في هاله عام ١٨٨٢، ثم في ماربورغ عام ١٨٨٥، وفي جوتينغن عام ١٨٩٢. له مؤلفات وأبحاث عظيمة في اللاهوت وتاريخ العهد القديم. وكشفت بارز اكتشاف في الإنجيل آثارًا ذات أصول آرامية. وكما بالغة العربية وعلوم الإسلام فقد شرح الفهاريز وبغايا الوثنية العربية وألّف أول تاريخ فقه الفترة الإسلامية الأولى في كتابه والأبواب والبرية وسقطها كما ألّف أيضًا كتاب والأحزاب الدينية السبسية المعارضة في بؤركه الإسلام.

(١٢) يعقوب جيورج كريستيان أدلر (J. G. C. Adler) حاش بين ١٧٥٦ و١٨٤٤، وأتم دراسة القرآن والكتاب المقدس.

(١٣) كونراد فريدانه ماير (Conrad Ferdinand Meyer) من أكبر شاعر سويسرا، ولد عام ١٨٢٦ وتوفي في زيوريخ عام ١٨٩٨.

(١٤) إدوارد رويس (Eduard Reuss) عالم لاهوت أنجيلي ولد في ستاسبورج عام ١٨٠٤ وتوفي فيها عام ١٨٩١. أصبح أستاذًا منذ ١٨٣٤ وكان من أبرز على طريقة البحث التاريخي النقدي في علم اللاهوت.

(١٥) فريدريش كارل أندرياس (Friedrich Carl Andress) مستشرق تخصص بالدراسات الإيرانية ولد عام ١٨٤٦ في باثاليا وتوفي عام ١٩٣٠ في جوتينغن. ألّف عدة أبحاث حول النقوش الفارسية الوسطى وحول الهجرات الإيرانية الحديثة.

(١٦) جميعه العلوم في جوتينغن.

(١٧) لا تعرف هوية.

(١٨) ريتشارد أدولف ليبوس (R. A. Lepsius) عالم لاهوت أنجيلي ولد في جيرا عام ١٨٣٠ وتوفي في بينا عام ١٨٩٢. كان أستاذًا في لينتا وكيل وبينتا وسام بأبحاث هامة في تاريخ العقائد الدينية وفلسفة الدين وكذلك في تفسير العهد الجديد.

(١٩) ألفريد فون غوتشميت (Alfred von Gutschmidt) باحث تاريخي ولد بالقرب من برسميدن في ١٨٣١ وتوفي في جوتينغن عام ١٨٨٧. كان أستاذًا منذ ١٨٣٣ في كيل وكينيكيرج وبينتا وتوتينغن. اخص بدراسة تاريخ الشرق القديم وخاصة إيران.

(٢٠) يعقوب بارت (Jakob Barth) عالم باللغات السامية من الطائفة الإسرائيلية ولد في ألتيم بادن عام ١٨٥١ وتوفي في برلين عام ١٩١٤.

(٢١) أنثوني آشلي بيغان (Anthony Ashley Bevan) مستشرق وعالم لاهوت بريطاني تخصص بدراسة الكتاب المقدس واللغات السامية ولد عام ١٨٥٩ وتوفي عام ١٩٣٣. (إن كلمة والمجاهد في مقالة الأستاذ ليشان تشير إلى أن حوت الحظاء ولد وفاة تولد ك بقليل، أي في عام ١٩٣١).

(٢٢) كارل كريستيان إيرست بژوله (C. C. E. Bezauld) مستشرق وعالم باللغات السامية ولد عام ١٨٥٩ وتوفي في مايدلبرج عام ١٩٣٣. أتم خاصة بدراسة الفخارية والآشورية.

(١) اكتسب المثال من خطاب تأييد أثناء العلامة لجان عام ١٩٣٠.

(٢) هاينريش إيفانك (H. Ewald)، مستشرق وعالم تخصص بالهدم القديم، ولد في جوتينغن في ١٨٠٣/١/١٦ وتوفي فيها في ١٨٧٥/٥/٤. ظل أستاذًا في جامعة جوتينغن من عام ١٨٣١ إلى ١٨٣٧، ثم انتقل إلى جامعة توبنجن، وعاد إلى جوتينغن ليشان على التقاعد عام ١٨٦٧ بسبب معارضة لإساق جين اللا، ملك بروسيا. وكان مؤلفاته حول اللغة العبرية وتفسير العهد القديم وتاريخ بني إسرائيل أثر بارز على علم الفوار العلمية المختصة بهذه الحقول.

(٣) تيودور بنسلي (T. Benfey) عالم باللغة السنسكريتية وباحث في اللغات والأساطير الشرقية، ولد في نورن في ١٨٠٩/١/٢٨ وتوفي في جوتينغن في ١٨٨١/٩/٢٦. كان أستاذًا في جامعة جوتينغن وأسس بإجالة علم القصص الخرافية المقارنة.

(٤) هاينريش ليرشت فليشر (H. L. Fleischer) مستشرق شهير ولد في شالدها في ١٨٠١/٢/٢١ وتوفي في لايبزج في ١٨٨٨/٢/١٠ حيث عين منذ ١٨٣٥ أستاذًا للغات الشرقية، وبرز كأحد رواد البحث في اللغة العبرية في ألمانيا. ومن أشهر أعماله إصداره تفسير التيسافري في جليلين، بالإضافة إلى أبحاث كثيرة في اللغة العبرية.

(٥) ميشاليل يان دي غويو (M. J. de Goeje) من أشهر المستشرقين وعلماء العبرية في هولندا. ولد في دوردرب (في فريسلند) في ١٨٣٦/٨/١٢ وتوفي في لايدن في ١٩٠٩/٩/١٧ حيث كان أستاذًا للغات الشرقية منذ ١٨٦٦. ومن مؤلفاته الأولى: مذكرات في تاريخ وجغرافية الشرق، أما أهم أعماله لإصدار المؤلفات الجغرافية العربية تحت عنوان: الملكية الجغرافية العربية في سبع مجلدات، ويصير مرجعًا هامًا للبرلمان العرب ومؤلفاتهم.

(٦) ألويس شرينكر (Aloys Sprenger) مستشرق ولد في شتيرول في ١٨١٣/٩/٢ وتوفي في مايدلبرج في ١٨٩٣/١٢/١٩. أقام منذ ١٨٤٣ في أختد وترأس من ١٨٥٠ إلى ١٨٥٧ المعهد الإسلامي العليا في كالكتينا ثم عين أستاذًا للغات الشرقية في برن وسويسرا من ١٨٥٨ حتى ١٨٨١. من أشهر كتب حياته حياة محمد وعالمه، وطرق البريد والسفر في الشرق، وجغرافية الجزيرة العربية القديمة.

(٧) ميشال أماري (Mc. Amari) مؤرخ ومستشرق إيطالي ولد في فالرو في ١٨٠٧/٧/٧ وتوفي في روما ١٨٩١/٧/١٦. قضى وقتًا طويلا في حياته في المنى من عاد عام ١٨٥٩ إلى إيطاليا وأصبح وزيرًا للتعليم من ١٨٦٢ حتى ١٨٦٤. اشتهر لأبحاثه القيمة حول جزيرة صقلية أثناء الحكم التركي.

(٨) ألويس ديلمان (A. Dillmann) مستشرق وعالم لاهوت بروتستانتي. ولد في ولاية فورتنبرج بألمانيا في ١٨٢٢/٢/٢٥ وتوفي في برلين في ١٨٩٤/٧/٤. عين عام ١٨٥٤ أستاذًا في كيل، وعام ١٨٦٤ في فيسن، وعام ١٨٦٩ في برلين. برز في أبحاثه في اللغة الآشورية، كما ألف عدة شروح لكتب العهد القديم.

(٩) بولر أنثوني دي لاغارد (P. A. de Lagarde) مستشرق وفيلسوف صفاني ولد في برلين في ١٨٢٧/١/١٢ وتوفي في جوتينغن في ١٨٩١/١٢/٢٢. عين منذ عام ١٨٦٩ أستاذًا للغات الشرقية في جوتينغن ومازل أثره حتى ساء اليوم بفضل شروحه وتعليقه لتصوص العهد القديم. اشتهر كذلك بمقالاته السياسية التي تتناول النقد الحضاري والشمسية والروح القومية الرومانتيكية.

٢٩) إغنازيو جويدى (Ignazio Guidi) مستشرق إيطالي بمستوى  
تيجور تولدكه ولد عام ١٨٤٤ وتوفى عام ١٩٣٥. قدم إيجائاً حارة  
في علم اللغة العربية وساهم في نشر عخطوط في التاريخ الإسلامى وعلم اللغة.  
٣٠) إغناز جولدزير (I. Goldziher) مستشرق مجرى من الطائفة  
الإسرائيلية ولد عام ١٨٥٠ وتوفى في بودابست عام ١٩٢١. بعد أن أتم  
دراسه في بودابست أثار مدة عام في مصر حيث كان أبل أوروبى درس  
في الأهرام في القاهرة، مركز دراسة لثقته الإسلامى. أصبح عام ١٨٩٤ أستاذاً  
في بودابست. وأهم في بدائى الأبحاث المتعلقة باليهودية، إلا أنه عاد  
لفتح كليا للدراسات الإسلامية. وأهم كتبه ودراسات علمية مجريين  
ووسائل في علم اللغة العربية وعلومها وعلماء في الإسلام ودراسات  
تفسير القرآن.  
٣١) ليوايش (Leo Reinisch) باحث لغوى وعالم بالغة والحفارة  
لمصرية القديمة ولد في النمسا عام ١٨٣٢ وتوفى في ١٩١٩.  
٣٢) جيورج هوفان (G. Hoffmann) ولد عام ١٨٤٥ وتوفى عام  
١٩٣٣. خلف تولدكه في منصبه كأستاذ ومستشرق في جامعة كبل.  
٣٣) أدوارد ماير (E. Meyer) مؤرخ عاش بين ١٨٥٥ و ١٩٣٠.  
٣٤) أدوارد شوارتز (E. Schwartz) عالم بالفلسفة الكلاسيكية ولد  
في كبل عام ١٨٥٨ وتوفى في ميونيخ عام ١٩٤٠. كان أستاذاً في  
جوتينغن وفرانكفورت وستراسبورج وميونيخ. أهم خاصة بالأدب الإغريق.  
٣٥) ثيودور مومسن (Th. Mommsen) مؤرخ وعقوف كبير ولد في ١٨١٧  
في شبال لألمانيا وتوفى عام ١٩٠٣ في شارلوتبورج. اشترك عام ١٨٤٨  
حين كان أستاذاً في لايبزغ في الحركة للديمقراطية أطلقه فصل يسبب  
ذلك. ثم أصبح أستاذاً في زيوريخ وبرسلاورلين حيث درس التاريخ  
القديم. أصبح من ١٨٧٢ حتى ١٨٧٩ نائباً ليبراليا في البرلمان البرسي،  
ومن ١٨٨١ حتى ١٨٨٤ عضواً في الرايشتاغ. كان من خصم سيباك  
وله عدة مؤلفات تاريخية عامة. وحصل عام ١٩٠٢ على جائزة نوبل  
للأدب.

٣٦) رودلف برنوف (R. Brünnow) ولد في الولايات المتحدة من عائلة  
ألمانية سنة ١٨٥٨م. ثم أتم تحصيل الفات السامية وبخاصة العربية  
في ألمانيا؛ حين أستاذاً في جامعة برينستون في الولايات المتحدة عام ١٩١٠،  
وتوفى هناك سنة ١٩١٧.

٣٧) زيمسولد فريكل (Siegmond Fraenkel) مستشرق اختص  
بالغات السامية ولد عام ١٨٥٥ وتوفى عام ١٩٠٩. اشغل بدراسة  
الغة الآرامية وساهم في العمل على تاريخ العبرى.

٣٨) جيورج ياكوب (Georg Jacob) مستشرق غرض بالغة  
التركية وعلوم الإسلام ولد عام ١٨٦٢ في كونيغزبرغ وتوفى عام ١٩٣٧.  
أصبح منذ عام ١٩١٢ أستاذاً لغات الشرقية في جامعة كبل وأهم خاصة  
بدراسة التصوف وأصحاب الطرق كالإشكاشية. وله مؤلف طريف وهام  
حول تاريخ مسرح المراسل وشيخ الطل في الشرق والغرب.

٣٩) نيكولايس ريدوكاناكيس (N. Rhodokanakis) مستشرق نمسوى  
ولد عام ١٨٧٦ وتوفى عام ١٩٤٥. أهم بدراسة اللغة العربية وآدابها  
وأصدر ديوان حيد الله بن كيس الرضائي مع ترجمة له. وساهم كذلك  
في دراسة حفارة جنوبى الجزيرة العربية.

٤٠) كريستيان سنوك هورغرونج (Ch. Snouck Hurgronje) مستشرق  
هولندى ولد عام ١٨٥٧ وتوفى عام ١٩٣٩ وأهم بالدرجة الأولى  
بدراسة الفقه الإسلامى. يعتبر بالنسبة لهولندة كنولده بالنسبة لألمانيا.  
أسست أبحاثه وأعماله أسساً للدراسات الإسلامية الحديثة حيث أثارها  
قامت نظرة تاريخية لحقول الدين والتشريع والحفارة الإسلامية. ظل  
أستاذاً في لايدن، مركز الاستشراق الهولندى الكبير، من ١٩٠٦  
حتى ١٩٢٧.

٤١) تشارلز كلر تورى (Charles Outler Torrey) مستشرق امريكى  
اختص بالغات السامية ولد عام ١٨٦٣ وعمل أستاذاً في جامعة ييل  
من ١٩٠٠ حتى ١٩٣٢، وتوفى عام ١٩٥٦.

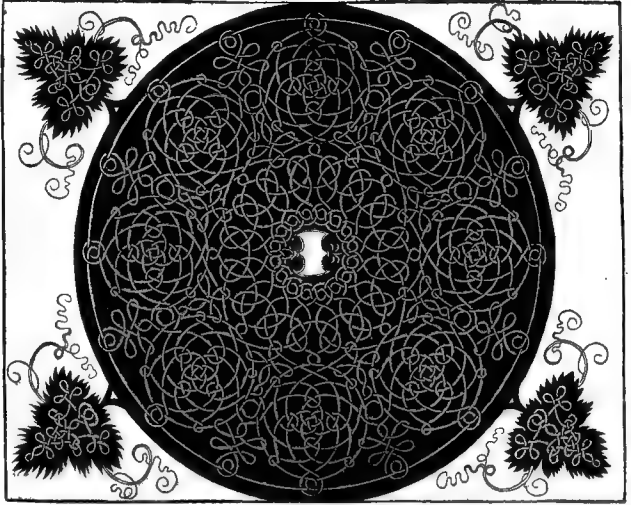
بعد اتمام هذا المقال نسلنا نص بعض الذكريات للأستاذ الدكتور فؤاد حنين على أن العلامة تولدكه، وسرنا ان نضيف  
قسما منها الى مقال الأستاذ ليمان.

تيجور تولدكه (٢ مارس ١٨٣٦ — ٢٥ ديسمبر ١٩٣٠)

لن انسى ذكريات يوم وفاته فقد كنت طالبا بجامعة ميونيخ وكنت حديث عهد بألمانيا وجامعاتها، وشاء الله أن ارى واسمع  
نعى هذا المستشرق العظيم في معهد من اكبر معاهد تلك البلاد، ومن عالم من اشهر رجالات ألمانيا الذين كرسوا حياتهم  
لخدمة الشرق والشرقين، وتولدكه لم يكن غريبا على، وأنا الذى شغفت بدراسة الشرق العربى، لغاته وآدابه، حضاراته  
ودياناته، قديما وحديثا، فكان لزاما على أن اتعرف على آثار هذا العلامة كلما اتحت لي فرصة. وقد عرفته في مصر  
لا عن طريق المصادر الألمانية، فقد كنت أبهمل حينذاك تلك اللغة، بل عن طريق مصدرين انجليزين عالمين، وهما  
دائرة المعارف البريطانية ودائرة معارف الكتاب المقدس، وذلك لأن المستشرقين الانجليز اسندوا اليه تحرير معظم المواد المتصلة  
بالشرق والشرقين في مرجعين السابقين.

في ذلك اليوم دخل (فريتز مولر) العالم المتواضع والشيخ الذى نيف على السبعين قاعة البحث عابسا مضطربا، لقد كان  
اليوم عربسا قمتطريا، وما كاد يصل الى مقعده حتى صاح صيحة الحزين الكتيب «مات تولدكه» واستطرد في الحديث  
عنه وريثا.

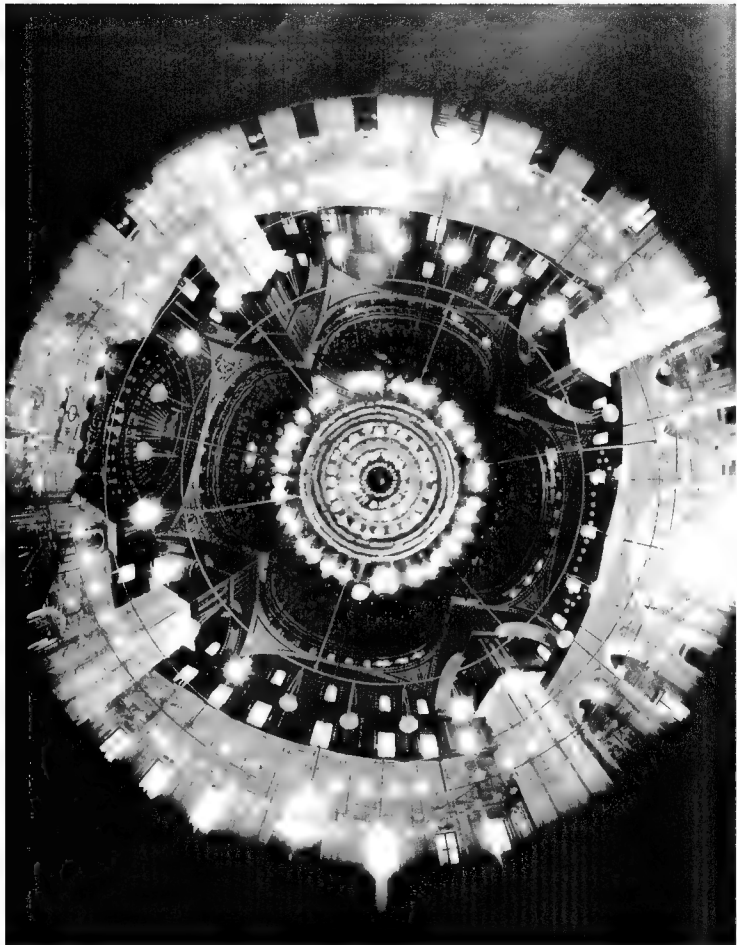
مات نضم المستشرقين الذى وان كان في العالم القديم يذكر في الجليل لا ينكر. مات تولدكه الذى رفع لواء الاستشراق  
عاليا وظل رافعه زهاء نصف قرن، مات ذلك العالم الذى كان اما في فرد واجيالا في شخص. تولدكه هو المستشرق الذى  
خلق علوما لم تكن معروفة من قبل، وهجم على اعوص المشكلات فحلها لنا ووضع ايدينا على حقيقتها، فهو لم يمت  
الا بعد أن ترك للعالم أربعة وعشرين سفرا، وأكثر من سبعمائة بحث في الشرق، لغاته وآدابه، تاريخه ودياناته.



البرشت دورر: مقدة ثمانية.

.... والآن احب ان اضع بين يدي القارئ صورة تبين سر عظمة هذا العالم وقوته، وهذه الصورة ليست من عمل ريشي او من وصي خيالي بل هي حقيقة مسجلة في مقدمة الطبعة الثانية من الجزء الاول من كتابه في (تاريخ القرآن) الذي نشره (فريدريش شواللي). فقد ارسل ناشر هذا الكتاب الى (نولذكه) عام ١٨٩٨ بخطاب يرغب فيه اليه ان يعيد نشر هذا الكتاب او يقترح عليه عالما آخر يراه اهلا للقيام بهذه المهمة، فاجابه (نولذكه) «.... فرفضت انا لاسباب عديدة وذلك لانه لم يكن في استطاعتي ان اعيد نشر هذا الكتاب في ثوبه الجديد الذي قد يرضيني، لذلك اقترحت على الناشر بعد تفكير لم يستغرق زما طويلا تلميذي وصديقي الاستاذ (شواللي) الذي اظهر اذناحه واستعداده لتأدية هذه الرسالة. فقد جعل من هذا الكتاب الذي الفتته منذ نصف قرن سفرا يتفق الى حد ما مع المتقضيات العلمية الحديثة، اقول الى حد ما وذلك لان آثار هور الشياح لا يمكن محوها جميعها الا باعادة تأليف كتاب جديد، وكثير من المسائل التي كنت اعتقد قليلا او كثيرا بصحتها، تبينت لي فيما بعد انها غير مؤكدة...»

فؤاد حسنين على



# بعض النقاط البراقة من علم حياة الجزئيات

## بقلم روبرت شويتزر

أولا : بينا لا نقوى البلورات على تغيير المواد، التي تحيط بها، تغييرا كيميائيا، لكما يصبح بعض هذه المواد صالحا لأن تستخدمها في نموها، ترى أن الكائن الحي قادر على ذلك، فهو يغير بعض ما يحيط به من مواد، وكذا بعض ما يصل إلى باطنه من غذاء، يتركب من مواد غير متجانسة، تغييرا كيميائيا، وذلك بتحويلها إلى تركيبات كيميائية بذاتها، تصلح لأن تستخدمها في نموه، وفي غير ذلك من مظاهره الحيوية، وصفاته ومنجزاته. وتسمى هذه التفاعلات الكيميائية ألهامة، التي تميز الأحياء بها عن الجسام عمليات التحول الغذائي (Stoffwechsel—Metabolismus)

ثانيا : هناك فرق هام بين الأحياء وبين البلورات في عملية التوريث أيضا، أي من حيث الصفات والخواص والكنجزات، التي يرثها الخلف عن السلف. فبينما تنكاثر البلورات في بنان متطابقة التكوين، ذات خواص متطابقة، تمام التطابق، ترى الأحياء تخضع في تكاثرها، لما يسمى «فاعلية الطفرة»، وهي تلك الفاعلية، التي تسبب حدوث تغيرات فجائية طفيفة (Mutationen)، في المعلومات الوراثية، أخاصة بنوع ما من الكائنات الحية، وذلك بحيث تؤدي هذه التغيرات، بفرض توافر الظروف الوراثية لذلك، إلى أن يرث الخلف، من هذا النوع، خواصا وصفات مكتسبة، لم تتوارثها أجيال هذا النوع، من قبل. وعلى الطفرة، وفاعليتها، بنيت نظرية داروين المعروفة عن الارتقاء (Darwinsche Evolution). وجعل القول، هو أن التحول الغذائي والوراثية، وما ينتج عنها من نمو وتكاثر وارتقاء، تعد خواصا يمكن التفريق بها، بين الأحياء وبين الجسام. والأحياء جميعا سيان، فها أسلفنا من صفات، وخواص، ومنجزات حيوية بدائية، بما في ذلك أبسط الكائنات الحية تكوينا، أي تلك الكائنات

(1) ما هي الحياة ؟ سؤال لم يتمكن أحد من الأجابة عليه، بعد، أجابة مختصرة واضحة ! ولبت الأمر أقتصر على ذلك فقط، إذ يظهر إن الأجابة على هذا السؤال سوف تزداد صعوبة، كلما ازدادنا علما بكنه العمليات الحيوية، التي تحدث، بصفة مستمرة على هذا الكوكب، الذي نعيش عليه. ونظرا لهذا العجز، يحاول العلماء تعريف الحياة، إلى حد ما، بذكر الصفات والمظاهر الحيوية، وكذا تعداد المنجزات، التي يقوم الأحياء بها، مثل التكاثر والنمو، والولادة والموت، والقدرة على الحركة، وعلى الإدراك، وعلى الفهم، وعلى الأحساس، وكذا ما أصطلح الناس على تسميته روحا ونفسا، وغير ذلك. وبهنا أن نحدد، فيأيلي، تلك الصفات والمظاهر والكنجزات، التي يمكن أن تعتبر معيارا للتفريق بين الجسام وبين الأحياء، سواء في ذلك ما أرفق منها، وما كان منها في أبسط تكوين.

وليس من شك، أن التكاثر (وهو مرتبط بالمو ارتباطا وثيقا)، وكذا توريث الصفات والكنجزات للخلف، هما أهم خاصيتين تميز الأحياء بهما. غير أنه يتبين لنا، إذا ما قدقنا النظر فيها حولنا، أن هاتين الخاصيتين بالذات، ليستا بغريبتين على بعض الجسام، وذلك أن للبلورات، مثلا، القدرة، على اختيار الذرات، والجزئيات، التي تكون بنائها، مما يحيط بها من مواد غير متجانسة، كما أن لها القدرة أيضا، على ترتيب هذه الذرات والجزئيات، وعلى تجميعها، تجميعا فيزيقيا، يتفق مع بنائها، وبذلك تصبح صالحة لكي تستخدمها في نموها. زد على ذلك أن للبلورات الصغيرة، وكذا لشظايا البلورات الكبيرة، نفس هذه الخواص، أي أن للبلورات خواصا، تشبه، إلى حد ما، خواص التوريث للخلف، في عالم الأحياء.

ولعله من المفيد، أن نقارن، فيأيلي، بين نمو البلورات وتكاثرها في صور متطابقة، من جهة، وبين نمو الأحياء وتكاثرها، مع إمكان الارتقاء، من جهة أخرى، مقارنة تظهر بوضوح، ما بينهما من فروق، في كلتا الحالتين :

الجلهرية (الميكروسكوبية)، ذات الخلية الفردية. ويهمن أن تتعامل، الآن، عن حكم الفيروسات (Viren)، في هذا الصدد؟

٢) هل يصح، على أساس ما تقدم، اعتبار الفيروس كائنا حيا أيضا؟ لا تقوى الفيروسات، وحدها، على أنجاز عمليات التحويل الغذائي، اللازمة لحياتها، وهي قادرة، بالرغم من ذلك، على التكاثروعل الفو، ولكن بشرط هام، وهو أن يكون ذلك في باطن خلية حية. وبيان ذلك أنه إذا ما اقتضحت الفيروسات خلية كهذه، تنتج عمليات التحويل الغذائي، التي تحدث في باطن الخلية الحية، لأصاية، جزئيات بنية الفيروس، وذلك عوضا عن جزئيات بنية الخلية نفسها، وبذا تنمو الفيروسات وتتكاثر. ونظرا للشباب بين البلورات، من جهة، وبين الفيروسات، من جهة أخرى، من حيث التكاثروالنمو، يرى البعض أن الفيروسات نوع من أنواع الجلماد.

ولا يوافق كاتب هذا المقال على هذا الرأي، إذ أن أخلالها الحية السليمة لا تنتج عادة جزئيات بنان الفيروسات، وإنما تجبرها الفيروسات على ذلك. وبذا، فع التسليم بعدم قدرة الفيروسات على إنجاز عمليات التحويل الغذائي، اللازمة لها، بنفسها، إلا أنها قادرة على التحكم في تكيف هذه العمليات، كما أنها قادرة أيضا، على تنظيمها، في باطن تلك أخلالها الحية، التي تقتحمها، وذلك بتعديل هذه العمليات تعديلا مناسباً لتركيب بنانها. زد على ذلك أن معلومات الفيروسات الوراثية، تخضع لفاعلية الطفرة أيضا، وبذلك يكتب الجليل من الفيروسات خواصا وصفات جديدة، يورثها، يفرض توافر الظروف المواتية لذلك، الى أخلط، وهي خواص وصفات مكسبة لم تتوارثها أجيلال الفيروسات، من قبل، وبذا تشبه الفيروسات في ذلك، تمام الشبه، تلك الكائنات، التي تتمتع بالحياة تنمنا تاما.

فهل يكفي ما أسلفناه، لكما نعتبر الفيروسات أحياء تتمتع بالحياة تنمنا تاما؟ أم أنه من أخلات، فقط، أن نعتبر الفيروسات كائنات أكتفال من عالم أخلماذ الى عالم الأحياء؟ ويميل العلماء، اليوم، إلى التساؤل عن حكم الفيروسات، في هذا الصدد، بالصيغة التالية :

هل مازالت الفيروسات تتمتع بالحياة تنمنا تاما؟ ويرجع ذلك الى أنه يصح أن نعتبر الفيروسات كائنات حية، قد فقدت، على مر الزمن، القدرة على أنجاز عمليات التحويل الغذائي، ذاتيا، غير أنها أحتفظت، في نفس

الوقت، بقدرتين تتعلقان بهذه العمليات، نود أن نذبه إليهما بصفة خاصة، وهما :

الأولى : القدرة على التحكم في تكيف عمليات التحويل الغذائي، وكذا على تنظيمها بحيث تنجز بطرق بنانها.

الثانية : أن الفيروسات قادرة على توريث هذه القدرة على التحكم في تكيف التحويل الغذائي وتنظيمه، الى أجيلالها المتعاقبة.

أما أهمية هاتين القدرتين بالذات، فمرجعهما الى أننا نعتبر أن القدرة على توريث الصفات والمنتجات الخلط، وعلى القيام بعمليات التحويل الغذائي ذاتيا، وكذا القدرة على التحكم في تكيف هذه العمليات وتنظيمها، بطرق معينة، تمد أخلواصا حيوية أساسية. وطالما أقتصرت بحوثنا على تعريف الحياة في المنطقة، التي تقع بين الأحياء، وبين أخلماذ، فليس هناك ، أن شئنا ذلك، ما يمنع من أمحال أخلدى هذه أخلواص أخليرية الثلاث، مؤثقا. أما إذا ما بدأنا في التفكير في بداية الحياة الأولى، أوفى أجراه نتجارب عملية في هذا الشأن، فإن كل خاصية من هذه أخلواص، نصيب، في حد ذاتها، في غاية الأهمية، وبذا لا يمكن أن تهمل قطعا. فهل كان توافر خاصة واحدة، من هذه أخلواص الثلاث، كافيا لانطلاق الحياة، عند بدايتها الأولى، وكذا لاستمرارها، حتى أصبحت في صورتها أخلالية؟ أم كان توافر هذه أخلواص الثلاث، مجتمعة، ضروريا لانطلاق الحياة، بعد أخلماذها، ولا استمرارها، حتى أصبحت على الصورة، التي نراها عليها، اليوم؟

٣) ما هي الأسباب، التي تبرر دراسة علم حياة أخلزيمات؟ يعكس كاتب هذا المقال عن ذكرياته، التي ترجع الى عام ١٩٢٧ (وقد كان في ذلك الوقت طفلا، في السادسة من عمره، عندما سمع، لأول مرة في حياته، بغير، يتعلق بعلم حياة أخلزيمات<sup>(١)</sup>). ويشير الكاتب بذلك الى نجاح سونر (Sumner)، عام ١٩٢٦، في بلورة الأنزيمات البوليوية (Enzym Urease)، أى البورية، وهي أنزيمات ذات وظيفة هامة، في أنجاز التحويل الغذائي، أخلواص باليات، إذ أنها تعالج، كيميائيا، مركبا يمتوى على جزئيات مادة البولييا (Substrat Harnstoff)، وذلك بتحويله، تحويلا مائيا، (أى بواسطة الماء) الى نيتادر، والى أخلاض كريتوك. وعمما بسطفت النظر، أن هذه الأنزيمات تتميز بدقة بين جزئيات البولييا، وبين أخلزيمات أخلشابة لها، أخلوجودة معها بهذا ألكرب الكيميائي، وذلك



ومنذ ذلك الوقت ثبتت حقائق، أشد طرافة، مما أسلفنا، منها أماكن استبعاد جميع أجزئيات الزلائية من الفيروس بالطرق الكيميائية، ومع ذلك، تحتفظ جزئيات الأحماض النووية، الباقية، بالقدرة على العدوى، وكذا بالقدرة على إنتاج ملايين من الفيروسات، في أوراق شجرة تبغ مصابة بها. وهذه الفيروسات كانتات كاملة البنية، أى أنها فيروسات تتركب، أيضا، من أحماض نووية، ومن زلاليات.

ومن بين هذه الحقائق أيضا، أن العلماء تمكنوا من استنبات سلالات جديدة من الفيروسات، بفاعلية الطفرة، وهى فيروسات ذات خواص مكتسبة، يرثها الخلف، وقد كان ذلك بأشراك أحماض الفيروس النووية في تفاعلات كيميائية خارجية، فرضت على هذه الأحماض، عندما قام هؤلاء العلماء بتجارهم. هذا، وتركيب بنان السلالات المستنبته، على هذا الوجه، من أنواع جديدة من الأحماض النووية، ومن البروتينات، تختلف في تركيبها عن نظائرها، قبل حدوث هذه التفاعلات الكيميائية الخارجية. وبذلك ثبت، علاوة على ما تقدم، أن أى تغيرات في تركيبات الأحماض النووية الكيميائية، الموجودة في بنية نوع ما من الفيروسات، يسبب، بالنتيجة، حدوث تغيرات في التركيبات الكيميائية الخاصة، بزلاليات هذا النوع من الفيروسات.

ومجمل ما أسلفنا من دراسات أجريت على فيروس التبغ الفيسيقاتى، هو أن جزئى الحمض النووى، وحده، هو المسؤول الأول عن مضمون المعلومات الوراثية، التى تتحكم في تشكيل الخلف، كما أن هذا الجزء، هو المسؤول الوحيد أيضا، عن التحكم في تكوين عمليات التحول الغذائى، وكذا عن تنظيمها، وذلك بحيث تنجز بطرق، بذاتها، في باطن خلية حية، قد أصبحت بهذا الفيروس، أو كما يرق البعض أن يسمى خلية كهد، في كثير من الأحيان، خلية مضيفة (Wirtzelle). ولقد أثبتت الدراسات الكيميائية الحيوية، وكذا الدراسات، التى تعالج تاريخ التطور الوراثى (genetische Untersuchungen) أن تعميم نتائج البحوث، التى لخصناها بعاليه، أمر في حيز الأماكن، وبذا فهى حقائق ذات صفة عامة، جارية بأبائها، في الصيغة العامة التالية :

تقوم أجزئيات الزلائية بأتمام جميع العمليات الخاصة بالتحول الغذائى، وذلك في حين أن جزئيات الأحماض النووية، هى المسؤولة، وحدها، عن المعلومات الوراثية من جهة، كما أنها مسؤولة، من جهة أخرى

بحيث يقتصر التحلل الكلى على جزئيات البولينا، دون غيرها. وإذا ما أراد أحد الكيميائيين تحليل مركب مشابه، تحليلا مائيا كهدا، في معمله، فلا بد له من تسخين هذا المركب، من جهة، كما أنه يعتمد عليه، من جهة أخرى، أن يقصر تحليله على نوع بلدته من أجزئيات، دون الأساس بأجزئيات المنقوعة الأخرى، الموجودة، مع هذا النوع كليلين من أجزئيات، بذلك المركب. وما هذه الوظيفة الأثرية، التى لخصناها بعاليه، سوى واحدة من آلاف الوظائف الأثرية الأخرى، التى قد تعرفها تعقيدا، والتى يتطلبها أتمام عمليات التحول الغذائى المختلفة، تلك العمليات، التى لا غنى لأى كائن حى عنها. ولكل عليه من هذه العمليات أنزيم، متخصص في أتمامها، على نحو تخصص الأنزيم البولوى في أتمام عملية، بذاتها، من هذه العمليات الحيوية.

ولقد كانت بلورة الأنزيمات البولينية، هى بداية سلسلة من البحوث، استنبتت فيها، وريث، أنواع مختلفة من الأنزيمات، تفوق كلفة عددا، ثم بلورت جميعها، بعد ذلك، ودرست بعناية. ولقد أنبقت، عن هذه البحوث حقيقة أساسية هامة، وهى أن الأنزيمات، لا تعدو أن تكون، من الوجهة الكيميائية، بروتينات (Proteine)، خالصة نقية، أى أن الأنزيمات، ما هى إلا زلاليات، كما يروق لنا، أن نسمى البروتينات، في كثير من الأحيان.

ومجمل القول، هو أن الأنزيم عبارة عن جزئى زلالى. وما أشبه هذه أجزئيات الزلائية المختلفة برهط من الكيميائيين، ذوى الحجم دون الجهرى (الميكروسكوبى)، وقد عكفوا، في باطن الخلية الحية، على أتمام كل ما يتطلبه التحول الغذائى، من عمليات كيميائية حيوية.

ثم مضى على هذا الكشف الهام، تسع سنين، تمكن بعدها ستانلى (Stanley)، في سنة ١٩٣٥، من بلورة فيروسات التبغ، التى تسمى فيروس التبغ الفيسيقاتى (Tabak-Mosaik-Virus)، وبذلك أمكن تغيير خواص "كائن حى"، بحيث تطابق مع خواص مركب عضوى نقي، تمام التطابق. ثم تبين، بعد ذلك، أن بنية هذا الفيروس تشبه أنبوبة دقيقة، تتركب من جزئيات من البروتينات النووية، ومن جزئيات أحماض نووية، في هيئة خيط، ملفوف لفا لولبيا، قد نظم فيه ما يقرب من (١٢٠٠٠) جزئى زلالى، لا فرق بينها أطلاقا، وقد نظمت هذه أجزئيات الزلائية في ذلك الخيط اللبى، كما تنظم اللآلىء في خيط المقد.

أيضا، عن التحكم في تكييف عمليات التحول الغذائي، وكذا عن تنظيمها، بحيث تنجز بطرق، بدأها. ويجعل القول، هو أن هذين الصنفين من الجزيئات، هما أصغر التكوينات، التي تحمل أسس الحياة، وخواصها البارزة.

يتبين مما تقدم، أنه من المفيد، ألا تقتصر العلوم البيولوجية على علم حياة النبات، وعلم حياة الحيوان، وعلم حياة الكائنات المجهرية (الميكروسكوبية)، فقط وذلك نظرا لأن دراسة مواضيع حيوية كثيرة، تتطلب أن تخصص، علاوة على ذلك، فرعا خاصا من البيولوجيا، لدراسة خواص جزيئات الأحماض النووية، وكذا لدراسة خواص الجزيئات الزلائية، دراسة مستفيضة، ونهى بذلك «علم حياة الجزيئات».

ويمكن تصنيف هذا العلم، أحدث نسبيا، بطريقتين مختلفتين، بين أنواع العلوم الطبيعية، والإنسانية الروحية، المختلفة :

الأولى : يعتبر علم حياة الجزيئات شطرا من علم الكيمياء الحيوية، (Biochemie)، إذ أن الكيمياء الحيوية تعالج، منذ نشأتها، كل ما يتعلق بالأحماض النووية، وبالزلايات، من مواضيع ومسائل. ويكفي للتدليل على ذلك، أن نشر هنا، إلى تلك البحوث القيمة المبكرة، التي قام بها، كل من، فريديك ميسر (Friedrich Miescher)، عام ١٨٦٩، وأميل فيشر (Emil Fischer)، في أوائل هذا القرن

الثانية : يتعدى علم حياة الجزيئات، من جهة أخرى، حدود الكيمياء الحيوية، فواضيعه متشعبة في نواح كثيرة، يتطلب بعضها ابتكار وتعاون رده عديد من علماء، قد تخصصوا في شتى نواحي المعرفة، من طب، وعلوم أحياء، وجيولوجيا، إلى الكيمياء، والفيزياء، والرياضة، وغير ذلك من نواحي التخصص المطلوبة، مثل الفلسفة، والدين. وهو ابتكار وتعاون قد بدأ بالفعل، وأصبحت على درجة كبيرة من الأهمية، كما أن الحاجة إليها قد أصبحت ماسة، لكي تتمكن من تطوير «علم حياة الجزيئات»، في المستقبل، تطويرا مشمرا منتجا، يعود على البشرية بالخير.

أما الناحية الكيميائية من «علم حياة الجزيئات» فهي تعالج الأسس الكيميائية، التي بنيت عليها تلك للنتجات والعمليات، الحيوية، التي تقوم الأحماض النووية، وكذا الزلايات، بأدائها. وجدير بالذكر، أن المواد التي يتناولها

هذا العلم بالدرس، لا تقتصر على مواد هتين المجموعتين فقط — ومعلوم أنها أهم البروتينات الحيوية (Biopoly-meren)، أي أهم الجزيئات الحيوية ذات الأصل المتضاعف — بل يتالج هذا العلم، أيضا، الليبيدات (Lipide)، وهذه مواد تشبه الدهنيات في تركيبها، وكذا البوليساخريدات، (Polysaccharide)، وهي مجموعة من المواد تحتوي على النشويات، وعلى الكربوهيدرات أي السكر، وغيرها. وكل هذه مواد تقوم بأدوار هامة مساعدة، عند تطوير أبسط التكوينات الحية، إلى تكوينات أرقى منها، مثل، أغشية الخلايا الحية، وكذا الأجهزة العصبية، وغير ذلك، مما يبين أهمية البحث في هذا الأنحاء، وخصوصا، من الناحية الطبية.

٤) الجزيئات، التي تحمل المعلومات الحيوية : يستخدم من يريد أن يحاضر سامعيه، أو أن يكتب لقرائه، في موضوع ما، حروفا هجائية ينطقها أو يكتبها بترتيبات معينة، نسميا كلمات وجمل، وتحتوي هذه الكلمات والجمل على أعداد متغيرة من كل حرف من أحرف الأبجدية المختلفة، كما أن هذه الحروف لا تتابع فيها، على وتيرة واحدة.

وقسم عملية كهذه، تنابع فيها الرموز المطلوبة، أو المكتوبة الواحد تلو الآخر، بقصد الأعلام، عملية استوخاسية (Stochastischer Prozess) وليس استخدام العمليات الاستوخاسية، للتعبير أو للضام، بجديد على الأحياء، التي تعيش على كوكبنا، كما أنها ليست مقصورة أيضا، على اللغات المختلفة، التي يستخدمها البشر للضام فيها بينهم، إذ أن هذه العمليات قد استخدمت لتكوين كل المعلومات الحيوية، التي تحملها البروتينات والأحماض النووية، التي تدخل في تكوين كل كائن حي، وذلك منذ أن نشأت هذه الكائنات.

وبيان ذلك، أن بنان البروتينات، وكذا بنان الأحماض النووية، تشبه في تكوينها، سلاسل طويلة، تتكون، كل واحدة منها، من عدد معين من حلقات، تختلف كل حلقة منها عن الأخرى في النوع. فأذا ما رمزنا لكل نوع، من هذه الحلقات بحرف هجائي خاص بها، وذلك للاستدلال عليها، لوجدنا أن كل حلقة، من نوع بذاته، تتكرر في أية سلسلة، من هذه السلاسل، عددا معيناً من المرات، بترتيب خاص، بالنسبة لحلقات السلسلة الأخرى، وذلك بنفس الطريقة التي يتكرر بها، مثلا، ذلك الحرف الهجائي، الذي يدل على هذا النوع من الحلقات، في مواضع بذاتها، بالنسبة للحروف الأخرى،

التي تكون، في مجموعها، جملا، ذات مفاهيم معينة، قد كتبت بلغة من اللغات العادية.

٤,١) لغة البروتينات، أي الزلايات : يحمل كل نوع من جزيئات البوليبيبتيدات (Polypeptidmoleküle)، أي الزلايات المختلفة، تلك المعلومات الحيوية، التي تمكنه من أداء الوظيفة الحيوية، الخاصة به، وإليك بعض الأمثلة على أنواع الزلايات، وعلى الوظائف التي تقوم بها: الأنزيمات : تحمل المعلومات الحيوية، التي تمكنها، في أطار كل عملية، من عمليات التحول الغذائي للعديد، ألفتحة، من التعرف على جزيئات السوبسترات (Substratmoleküle)، أي على جزيئات ذلك المركب الكيميائي، الذي يصين على أنزيم، بذاته، أن يتناول تركيبه الكيميائي بالتصير (Substrat)، وكذا على تلك المعلومات الحيوية، التي تمكن ذلك الأنزيم من الأمساك بهذه الجزيئات، ومن تغيير تركيب السوبسترات الكيميائي، على الوجه المطلوب.

الهرمونات : تحمل المعلومات الحيوية، التي تمكنها، في كل حالة بذاتها، من التعرف على خلايا الكائن الحي، وعلى أعضائه، المختلفة، كما يحمل كل هرمون منها، أيضا، المعلومات التي تمكنه من تنظيم إنجاز عمليات التحول الغذائي، التي تتم في باطن الخلايا أو الأعضاء، التي تدخل في اختصاصه.

الأجسام المدافعة، أو المضادة : تحمل المعلومات الحيوية، التي تمكنها من التعرف، في كل حالة بذاتها، على المادة السامة، أو الفيروس أو الميكروب، كما يحمل كل جسم مضاد منها أيضا، المعلومات، التي تمكنه من إطلاق عملية الدفاع عن حياة الكائن، من مقالها، ومن عرقلة الفتح به.

الزلايات الناقلة : تحمل المعلومات الحيوية، التي تمكنها، في كل حالة بذاتها، من نقل الطاقة، أو نقل المواد المختلفة، من مكان الى آخر، في بنية الكائن الحي.

زد على ذلك أنواعا أخرى من البروتينات، تقوم بوظائف أخرى، بالإضافة الى ما تقدم، نخص بالذكر منها مثلاً، أنه من المحتمل، أن ذاكرة الإنسان تعتمد على بعض المعلومات، التي تحملها زلايات بنية الإنسان وأعضائه النورية، في القيام بمنجزاتها، أي أن هذه المعلومات، هي التي يحمل الإنسان قادراً على أن يتذكر ما مضى. يظهر من الأمثلة، التي أوردناها بمآله، أن لغة البروتينات لابد وأن تكون لغة غنية بمفرداتها، وبجملها، وبتركيبها. ولا غرو في ذلك، إذ أن أبجدية هذه اللغة، تحتوي

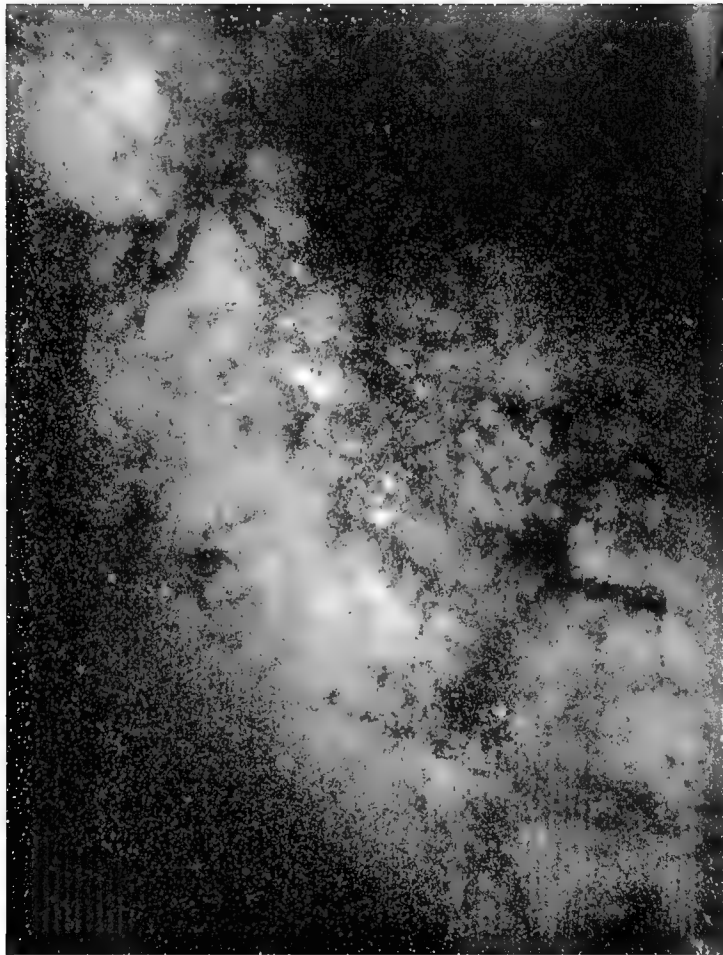
على عشرين تركيا كيميائيا مختلفا، يمثل كل واحد منها حرفا هجائيا، من حروف أبجديتها، أي ما يقرب من عدد حروف أبجدية لغة أوروبية حية، كاللغة الألمانية مثلا. وبهنا أن نشير الى أن كل كلمة، أو جملة من كلمات لغة البروتينات، وجمليها المختلفة، تحتوي على عدد خاص بها من حروف هذه اللغة الهجائية، يتراوح ما بين ستة حروف، ونحو ثلاثة حروف هجائي، أي أن عدد التركيبات الكيميائية المختلفة، التي تدخل في تركيب جزيء واحد من جزيئات البروتينات، العديدة ألفتحة، يتراوح بين هذه الأرقام تقريبا.

أما ما نمر عنه بقولنا «حروف لغة البروتينات» الهجائية، وأن شئت، بقولنا «أحجاريات الزلايات»، فهي مركبات كيميائية شديدة التعقيد، يسميها الكيميائيون أحماضا أمينية (Aminosäuren)، كما يرمزون لكل منها، تبسيطا لمعادلات تكوينها الكيميائية، المعقدة، بثلاثة حروف هجائية صغيرة، أو بحرف واحد كبير، من أبجديات اللغات الأوروبية، مما يبرز أوجه الشبه، بين لغة البروتينات، وبين اللغات العادية.

وأذا ما درسنا أنواع البروتينات المختلفة، دراسة إحصائية، لوجدنا شها كبيرا بين طريقة توزيع حمض أميني، بذاته، في جزء من جزيئاتها، وتكرار هذا الحمض فيه، وبين طريقة توزيع حروف هجائي عادي، بذاته، في كلمة أو جملة عادية، وتكرار هذا الحرف فيها.

ولقد تبين، على ذلك، أن أحجاز عملية ما، من العمليات الحيوية، تتطلب ترتيب عدا أحماض أمينية معينة، بطريقة محددة، خاصة بهذه العملية الحيوية، وحدها. وبذلك يشبه مفهوم بروتين معين، بلغة البروتينات مفهوم جملة، مدونة بلغة عادية، وذلك من حيث أن جملة، كهذه، لا تقيد مفهوما بذاته، الا اذا احتوت على عدد معين من حروف هذه اللغة الهجائية، وألا اذا رتب هذه الحروف، الواحد منها تلو الآخر، بنظام محدد، يتوقف على المفهوم المقصود، وكذا، على قواعد هذه اللغة.

٤,٢) لغة الأحماض النووية : تحمل الأحماض النووية كل المعلومات الوراثية، وكذا كل المعلومات اللازمة للتحكم في تكييف عمليات التحول الغذائي، وتنظيمها، وهي مدونة، في جزيئاتها، بلغة الأحماض النووية. ولا تحتوي أبجدية هذه اللغة، ألا على أربعة حروف هجائية فقط، كما أن كل كلمة من كلماتها تتكون من ثلاثة حروف هجائية فحسب. وبذلك يبلغ عدد كلمات لغة الأحماض



النوية (٢٤ = ٦٤) كلمة فقط. ولقد توصلنا لهذه المعلومات القيمة، عن تلك ألفة، منذ فترة وجيزة من الزمن، وقد كان ذلك بفضل ما قام به نخبة من العلماء، وعلى رأسهم كريك (Grick)، وكهورانا (Khorana)، ونيرنبرج (Nirenberg)، من بحوث مبتكرة، في التطور الوراثي (genetisch)، وكذا في تركيب المواد، تركيباً كيميائياً أصطناعياً (synthetisch-chemisch)، وأخيراً في الكيمياء الحيوية (biochemisch).

أما أحرف لغة الأحماض النووية الأربعة، فهي وحدات كيميائية، في غاية التعقيد، يسميها الكيميائيون نيوكليوتيدات (Nukleotide)، وهي مركبات، جزئيات كبيرة، ذات أصل متضاعف، مقرها نواة الخلية. ويبدو أن لغة الأحماض النووية، لغة عامة شاملة، بمعنى أن مفهوم كل كلمة، من كلماتها، هو مفهوم ثابت لا يتغير، في جميع الأحياء التي تعيش في الوقت الحاضر، وأغلب الظن، أن هذه الكلمات، بذاتها، كانت تؤدي نفس هذه المفاهيم، في الأحياء، التي انقرضت، على مر الزمن، أيضاً.

وتتوقف كمية المعلومات، التي تحملها المادة الوراثية، وأن شئت، الكتلة الوراثية (Erbbmasse) على درجة ارتفاع الكائن الحي، فإن كانت بنيت بسيطة التركيب، كانت هذه المعلومات قليلة مختصرة، وكلما ازدادت بنية الكائن الحي تعقيداً، بازرقاله إلى درجة أعلى، كلما ازدادت هذه المعلومات تفصيلاً. ففي بعض النبان الكهفوية الخلية، مثلاً، لا يزيد طول جزئيات الأحماض النووية، التي تحمل المعلومات الوراثية على نحو مليمتر واحد، كما أن أطوارها، لا تزيد على (١٠) أنجستروم (١)، وهي جزئيات مركزة فيما يسمى كروموزومات (Chromosomen) أو صبغيات، وتحتوي هذه الجزئيات على نحو ثلاثة ملايين حرف هجائي، أو على ما يقرب من مليون كلمة من كلمات هذه اللغة. وعلى فرض أن الصفحة من صفحات كتاب مدرسي، مكتوب باللغة الألمانية مثلاً، تحتوي على ثلاثة آلاف حرف هجائي، نجد أن تدوين كل ما يتطلبه تكوين كائن مجهرى، وكذا ما يتطلبه تفسير عملياته الحيوية، من معلومات وراثية، يحتاج إلى ألف صفحة من صفحات هذا الكتاب المدرسي. وإذا ما راعينا، أن مفاهيم كلمات لغة الأحماض النووية، أكثر تركيزاً من مفاهيم كلمات اللغة الألمانية، نرى أن تدوين هذه المعلومات الوراثية، باللغة الألمانية، يحتاج إلى عدد من الصفحات، يزيد على هذه الصفحات ألف،

بقدر كبير. ذلك التحيز الكبير، هو، على وجه التقريب، التحيز الذي يتطلبه تفصيل المعلومات الوراثية اللازمة لتكوين بنية ميكروب ضئيل، ولتتمتع بالحياء، أي هي كتبت باللغة الألمانية، مثلاً، أو بأية لغة أوروبية أخرى.

وفي حالة، جزئيات الأحماض النووية، المتركزة في الست وأربعين صبغية، التي توجد في بويضة بشرية، وهي تلك الصبغيات التي تحمل المعلومات الوراثية، الخاصة بالإنسان، فإن طول هذه الجزئيات، يبلغ نحو متر واحد، تقريباً. ولو أن هذه الجزئيات، كانت جزئيات حبل من حبال تسلك الجبال، قطره يبلغ عشرين مليمترات، مثلاً، لبلغ طول هذا الحبل خمسة آلاف كيلومتر تقريباً، وحتى إذا ما فرضنا أن بنان بعض جزئيات الأحماض النووية، قد تكون من نسخ متطابقة، تماماً، لوجدنا، على الرغم من ذلك، أن تدوين المعلومات الحيوية الخاصة ببنية الإنسان، وبخواصه وعملياته، لازال يتطلب مكتبة قوامها ألف كتاب، أو تزيد، أن هي كتبت باللغة الألمانية، في أساس ما قدمناه من فرض. أما لسهولة الفعالية، التي يتطلبها تدوين هذه المعلومات الحيوية، كلها، بلغة الأحماض النووية، في الطبيعة، فلا تبلغ إلا ثلاثة على مليمتر، من المليمتر المربع، وهي، لعمري، مساحة تبلغ حداً من الضالة، يجعل تكوين جزئيات الأحماض النووية مثلاً أعلى، يقتدى به، عند تصميم حافظات تخزين المعلومات، بالعقول الإلكترونية.

ويجب أن نوثق هذه المعلومات الوراثية، إلى الخلف، من جهة، كما يجب أن نتولى هذه المعلومات من جهة أخرى، التحكم في تكييف عمليات التحول الغذائي، وتنظيمها، في باطن الكائن الحي.

(٤) فاعلية الأتريعات عند التورث للخلط : عندما تنشط خلية حية إلى خلتين، أحدهما أصلية ولنسميها، للاختصار، «الأم»، والأخرى فرعية، ولنسميها «البت»، تقوم أتريعات، قد تخصصت في ذلك، بنسخ كافة المعلومات الوراثية، التي تحملها الأم، نسخاً طبق الأصل، أي أن هذه الأتريعات تعد، بحروف هجائية جديدة، من النيوكليوتيدات، نسخة (١)، وذلك بحيث تستخدم أجزئيات النوية، الموجودة بالأم، وذلك بحيث تستخدم أجزئيات القديمة كأصل لهذا النسخ، وأن شئت كأصل لهذا الطبع، ثم تحصل البت، بعد ذلك، على نسخة، ذات صورتين، موجبة وسالبة، كما سنبين ذلك، فيما بعد.

وهيما، أن نشير، هنا، إلى تلك البحوث الثورية، التي

(1,4) كيف تنجز عمليات التحول الغذائي في باطن الكائن الحي؟: تحدث في باطن أي كائن حي عادي، مئات من التفاعلات الكيميائية يتم بعضها آتيا، أي في نفس الوقت، كما يتم البعض الآخر، خلال فترات زمنية متعاقبة. ولكل عملية من هذه العمليات، أنزيم متخصص فيها، وظيفته الحفزية، هي إنجاز هذه العملية، بالذات، دون غيرها. وتقوم بروتينات منظمة، أو ما نسميه هرمونات فيما أركنى من الكائنات الحية، بتثبيت أجناز هذه العمليات. وجدير بالذكر أن معظم الهرمونات، بما في ذلك أهمها الحياة، هي في حقيقة الأمر، بروتينات أيضا.

ولقد قام نفر من الكيميائيين، ومن البيولوجيين من أمثال كين (Kühn)، ويوتناندت (Butenandt)، وبيدل (Beadle)، وهورويتز (Horowitz)، وكثير غير هؤلاء، أثناء أربميتات، وخمسينيات هذا القرن، ببحوث مبتكرة أثبتت فيها الحقيقة الهامة التالية :

تقوم كل موروثة (Gen) أي كل ناسلة من المورثات، أي النسلات، العديدة، الموجودة بالكروموسومات أي بالمادة الوراثية، بتكوين أنزيم واحد فقط، تكوننا حيوسا.

ولقد صيغت هذه الحقيقة الهامة، في القرض المعروف الذي يعبر الاخصائيين عنه بقولهم :

«موروثة أي ناسلة واحدة - أنزيم واحد»

ولقد أثبتت الأيام صحة هذا القرض، من حيث الجوهري، ثم تطور إلى نظرية أدق منه تميرا. أما عن مضمون هذه النظرية، فهو ما يعرفون عنه بقولهم :

«زيسترون واحد - بروتاين واحد، أوزيسترون واحد - بوليبيبتيد واحد». ومضمون هذه النظرية، على مستوى الجزيئات، هو أن معنى زيسترون (Ziastron) واحد، أي أن معنى جزء صغير، من جزء من جزيئات الأحماض النووية، يناظر معنى جملة بأكملها، من جمل الكتاب، الذي دونت المعلومات الوراثية فيه، كما أن جملة، كهذه، تتضمن المعلومات الوراثية، أي التعليلات اللازمة، لتكوين، وأن شئت، لبناء جزء، واحد، من البروتين، بذاته، سواء في ذلك، أكان هذا الجزيء أنزما، أم كان هرمونا، أم كان بروتينا منظما، أم كان من أي نوع آخر، من أنواع البروتينات المختلفة العديدة.

وتقوم أنزيمات، معينة، قد تخصصت في ذلك، بنسخ هذه التعليلات بلهجة لغوية خاصة، تسمى لهجة الأحماض الريبونوية (Ribonukleinsäuresprache)، وهي إحدى

قام بها عالم التطور الوراثي وأطسبون (Watson)، وكريك (Grick)، وكذا عالم البلورات وكتر (Wilkins)، إذ أن هذه البحوث، تمكن القارئ، من أن يتصور كيميائيات العمليات، التي يتم النسخ أو الطبع بها، بالتفصيل. ويبان ذلك، خطوة بعد خطوة، فيما يلي :

أولا : ليتصور القارئ، خطا من جزيئات الأحماض النووية، أي من الجزيئات، التي تحمل المعلومات الوراثية بالأمر، ولتتمثل هذا الخط، بمثابة صورة شمسية (فوتوغرافية) موجبة، لصفحة كتاب، قد دونت هذه المعلومات الوراثية فيها، بلغة ما، من اللغات العادية. وبذا، يمثل هذا الخط، ولنسميه الخط الأول، أصل المعلومات الوراثية الموجب، بالتحلية الأمر، مدون بلغة الأحماض النووية.

ثانيا : لتتخيل، إلى جانب هذا الخط الأول مجموعة ثانية من جزيئات الأحماض النووية، مكملة للمجموعة الأولى، وقد نظمت جزيئات المجموعة الثانية، بالمثل، في خط ثان، تتشبه، بمثابة فلم أو صورة سائلة من صفحة ذلك الكتاب. وبذا يمثل الخط الثاني أصل المعلومات الوراثية السالب، بالتحلية الأمر، مدون، أيضا، بلغة الأحماض النووية.

ثالثا : الخططان الأول والثاني، وأن شئت، الأصلان السالب والموجب، متقاربان في باطن الخلية الأمر، من بعضها تقاربا شديدا، وقد لف كل منهما حول الآخر لفا لوليا. وتعرف هذه المجموعة من الجزيئات، بأكملها، بما يسمى لولب (DNS) ذوالباين. أما الحروف المجالية (DNS) فترمز إلى أحماض ديزوكسيريونووية (Desoxyribonukleinsäure)، وهي من البولينيوكليوتيدات أي أنها من الأحماض النووية الأصلية.

رابعا : من المرجح، أن هذين الخططين يفصلان عن بعضهما، قبل أنشطارت الخلية الأمر، إلى خليتين متطابقتين، أي قبل أنشطارتها إلى أم وبنت.

خامسا : تنسخ أنزيمات، قد تخصصت في هذه العملية، من الأصل الموجب، فلما جديدا، أي صورة سائلة جديدة، كما أنها تنسخ من الأصل السالب، أي من الضم الأصلي، صورة موجبة جديدة، وبذا تحصل البنت على صورتين سائلة وموجبة، طبق الأصل، من الأصلين الموجب والسالب، الكذين تحمل الخلية الأمر فيها، كافة المعلومات الوراثية.

ومجمل القول، هو أن المعلومات الوراثية تنقل من جيل إلى الجيل الذي يليه، بنسخها، نسخا طبق الأصل.

الأحماض النووية المخططات، وأن شئت، التصميمات، التي تبني هذه الجزيئات، نفسها، وكذا جزيئات البروتينات، بمقتضاها. وليست جزيئات الأحماض النووية بقادرة على تنفيذ هذه المخططات بنفسها، كما أننا نود أن ننبه، بصفة خاصة، إلى أن هذه الجزيئات ليست بقادرة أيضا، لا على التكاثر بنفسها، ولا على أن تنسخ نفسها، بنفسها.

أما الجزيئات، التي تتولى تنفيذ هذه المخططات، فهي أنزيمات معينة، تقوم ببناء نفسها، بنفسها، كما تقوم، أيضا، ببناء الجزيئات الزلالية الأخرى، وكذا ببناء جزيئات الأحماض النووية، أي أن هذه الأنزيمات هي التي تنجز خاصة التكاثر، التي تتميز الأحياء بها. وإذا ما أعدمت تلك المخططات، فإن هذه الأنزيمات، تنسخ عاجزة عن بناء أي جزء، من هذه الجزيئات.

نستخلص، مما تقدم، أن توزيع السلطات، في باطن الكائن الحي واضح، يكاد الأتسان، أن يراه رأى العين، فالسلطة التشريعية، من اختصاص الأحماض النووية، كما أن السلطة التنفيذية، من اختصاص البروتينات. زد على ذلك أن أي نوع من هذه الجزيئات، لا يقوى على الحياة، بدون النوع الآخر.

٥) معاني البروتينات، البيولوجية، أي معاني كلمات لغة البروتينات وجمالها، البيولوجية: ليس من شك، أن هذا التصوير النظري، لقدرة الأحماض النووية، والبروتينات، على التعبير، وعلى الأعلام، لتصوير في غاية الطرافة، كما أنه، علاوة على ذلك، تصوير مفيد للغاية. ولعل القارئ يذكر ما أسلفناه، من تشبيه بنان هذين الصنفين، من الجزيئات، بالعمليات الأستروخاسية، التي يستخدمها البشر، في أطار اللغات المخططة للتضام فيما بينهم، وبذا فأنتا تعتقد أن تناول لغتي الأحماض النووية، والبروتينات بالزبد من الشرع والأيضاح، لا يخلو من طرافة وفائدة، وخصوصا، إذا ما ركزنا البحث، فيما يلي، على لغة البروتينات، وهي تلك اللغة الغنية بمفرداتها، وبركيبتها اللغوية.

وأول ما يحضر ببال الأتسان، عندما يحاول فك طلاسم هاتين اللغتين، هو استخدام نظريات علم الأحياء، وذلك للكشف عن تلك القواعد اللغوية، التي كانت قد استخدمت عند تكوين جمل هاتين اللغتين، للتعبير عن مفاهيم، بذاتها، وذلك قياسا على استخدام نظريات علم الأحياء، عند فك طلاسم لغة، قد اندثرت، وأصبحت مجهولة، لا يفهمها أحد. وغنى عن البيان أن هذا قياس

لمجات لغة الأحماض الازوكسيريتوبوية، إلى دونت المعلومات الوراثية بها. ثم أن الرسالة، كالتسوخة، بهذه الكلمة الخاصة، تنقل من الكريوزومات، كالتسوخة في نواة الخلية، إلى مكعب الترجمة. ويتكون هذا المكعب من كرات ضئيلة جدا، تسمى ريبوزومات (Ribosomes) منتشرة في بلازما الخلية (Zellplasma) حيث تترجم، هذه الرسالة، إلى لغة البروتينات. وتتلخص عملية الترجمة، نفسها، في ترتيب الأحماض الأمينية المخططة، (وهذه هي، كما أسلفنا، حروف لغة البروتينات المجهانية) بذلك الترتيب الصحيح، الذي ينص عليه مفهوم الكلمات، التي ودرت بهذه الرسالة، أي تلك الكلمات التي كانت قد كتبت بحروف مجهانية، من النيوكليوتيدات. هذا، ويقوم مكعب الترجمة، علاوة على ذلك، بتكوين جزيئات البروتينات، أي بتركيب الأحماض النووية، وأن شئت، أشجار بناء الزلايات، تركيبا كيميائيا صحيحا، مع بعضها البعض، وذلك بعد أن رتبها على الوجه، الذي فضلناه بمأله. وغنى عن البيان أن كل حمض أميني، بذاته، أي كل حجر من أشجار بناء البروتينات، يناظر كلمة، بذاتها، من كلمات شفرة الأحماض النووية.

وجعل القول، هو أن المعلومات الوراثية، التي تحملها لكادة الوراثة تترجم، بهذه الطريقة، إلى معلومات تستخدم في التحكم في تكيف عمليات التحول الغذائي، وتنظيمها في باطن الكائن الحي. وبذا فإن المخططات، أو عبارة أخرى، التصميمات، التي تحملها الأحماض النووية، تستخدم في بناء آلات - وهي في حالتها هذه، البروتينات - تقوم بأجهاز كافة عمليات التحول الغذائي بطرق معينة، أي بمقتضى برامج محددة.

ولما كانت الخلية البنت، قد حصلت على صورتين، طبق الأصل، من الأصلين الموجب والسالب، أكملين تحملهما الخلية الأم، فإن بنان البروتينات المخططة، تبني في كلتا الخليتين، في تكوينات متطابقة تماما، كما أن التحكم في تكيف عمليات التحول الغذائي ينتج، في باطن كل خلية منهما، على وتيرة واحدة، أي أن الخلية البنت، قد ورثت عن أمها، كل طرق أنجاز عمليات التحول الغذائي، بالتفصيل.

٥ء) العلاقة بين وظائف الأحماض النووية، ووظائف البروتينات، الحيوية: يتبين مما تقدم، أن العلاقة بين وظائف الأحماض النووية، الحيوية، وبين وظائف البروتينات، الحيوية، هي علاقة مقددة، أشد التقيد، لنخصها، فيما يلي، بعبارة سهلة مبسطة: تحمل جزيئات

مع الفارق، إذ يجب أن يسبق تطبيق القواعد الأحصائية، على هاتين الألفتين البيولوجيتين، أجزاء بحث كيميائية مضنية، في غاية التعقيد، ترمي إلى الكشف عن الطرق، التي تتابع بها حروف هاتين الألفتين المجعّبة ثم يأتي، بعد ذلك، تطبيق القواعد الأحصائية لفهم معاني الحروف المجعّبة ذاتها، وكذا لفهم الكلمات، وذلك تمهيدا لفهم الجمل والقواعد اللغوية.

ولقد حاول كاتب هذا المقال، ومساعدوه، أن يبالغوا في طلائع هاتين الألفتين، بطريقة أخرى، تخلف، في جوهرها، عما أسلفنا، من استخدام قواعد علم الأحياء، لهذا الغرض، وذلك بتربك جزئيات البوليميدات، ذات الفاعلية الحيوية، تركيبا كيميائيا اصطناعيا (chemische Synthese). هذا، ولقد ركزوا جهودهم، بصفة خاصة، على تركيب الهرمونات الزلالية، بالتجارب العملية. ولهذا الطريقة، المكتوبة الجديدة، مزايا عديدة، منها أنها تسمح للباحث، بأن يستبدل ما يريد من الحروف المجعّبة، التي تدخل في تركيب جزئ ما، بحرف أخرى غيرها، كما أنها تسمح له، أيضا، بإضفاء، يختلف أجزاء بالكلمات، من تكوين هذا الجزيء.

وبلذا يمكن فحص كل منطقة، من مناطق هذا الجزيء، فحصا علميا منظما، كما يمكن الكشف أيضا، عن المعلومات الحيوية، التي يحملها جزء معين، بذاته، من بين أجزائه المختلفة. ولقد ظهر من استخدام هذه الطريقة، للمرة الأولى، أن المعلومات الحيوية، التي يحملها أي جزئ زلالي، قد صيغت في كلمات، كل منها مستقلة بذاتها، ذات معنى، يختلف عن معاني الكلمات الأخرى.

ولعل من المفيد، أن نضرب مثيلين على تطبيق هذه الطريقة بيننا مدى فوائدها العملية، وخصوصا، فيما يتعلق بالعلاج الطبي.

المثال الأول: الهرمون الأدرينوكورتيكوزوني (Adreno-corticotropes)، ويرمز له بالحروف المجعّبة العادية (ACTH)، وهو أحد الهرمونات، التي تفرزها الغدة النخامية<sup>(\*)</sup>، كما أن وظيفته الحيوية، في غاية الأهمية، إذ أنه ينظم قيام غدة القشرة الجارالكظرية بوظائفها، وينبها، لكي تفرز الهرمونات الأسترويدية (Steroidhormone)، مثل الكورتيزون (Cortison)، والسديزوكورتيكوستيرون (Desoxycorticosteron)، ويؤثر الهرمون (ACTH)، علاوة على ذلك، على الخلايا، حاملة الصبغ الأسود (melanophore Zellen)، وذلك

في الحيوانات البرمائية، على وجه الخصوص، مما يجعل جلودها تصطبغ باللون الأسود. ويتكون هذا الهرمون من (٣٩) حرفا، من حروف لغة البروتينات المجعّبة، أي أن عدد أحجار بنائه، يبلغ (٣٩) حصصا أمينيا، ولها فهو، من أشد الزلايات، التي ركبت اصطناعيا، إلى الآن، تعقيدا، كما أن سلسلة جزئياته، تعد من أطول سلاسل هذه الجزيئات.

هذا وتتابع الحروف المجعّبة، التي ترمز إلى تكوينه، وكذا إلى معناه، بلغة البروتينات، على النحو التالي :

S-O-S-M-E-H-F-R-W-G-K-P-V-G-K-K-R-R-P-

V-K-V-O-P-D-G-A-E-D-Q-L-A-E-A-F-P-L-E-F-

ولقد سبقنا الإشارة إلى أن كل حرف من هذه الحروف المجعّبة، يرمز إلى فرع من الأحماض الأمينية، بذاته.

وأما الكلمة الرئيسية (M-E-H-F-R-W-G)، في هذه الجملعة، فتتكون من الحروف الرابع، إلى العاشر، من بين الحروف المذكورة أعلاه، وهي تحمل المعلومات الحيوية، الأساسية، الخاصة بالتأثير على الخلايا، حاملة الصبغ الأسود. وتضاهي فاعلية هذا التأثير من عشرة آلاف إلى مئة ألف مرة بمقتضى مفهوم كلمتين اثنتين، الأولى (S-O-S)، من الحروف الأولى، إلى الثالث، والثانية (K-P-V)، من الحروف العاشرة، إلى الثالث عشر. وبإضافة الحروف (G-K-K-R-R)، من الحروف الرابع عشر، إلى الثامن عشر، يصبح مفهوم التعليلات، التي تنص، هذه الحروف عليها مجتمعة، كما يلي :

خفف التأثير على الخلايا حاملة الصبغ الأسود، واستبدله بالتأثير على القشرة جارالكظرية.

وهكذا، تصدر عن الغدة النخامية، تعليلات جديدة، في نوعها، موجهة إلى غدة القشرة جارالكظرية بالذات. وأما الحروف المجعّبة الباقية، من الحروف التاسع عشر، إلى التاسع والثلاثين فأنها تقيد بتعليلات، جوهرها نوع من التوضيحية، بأجرام التسجيلات الأزمنة، لانتقال هذا الهرمون، من الغدة النخامية إلى القشرة جارالكظرية، عن طريق الأوعية الدموية. وبهنا أن نشير، الآن، إلى مفهوم الحروف (D-G-A-E-D-Q-L-A-E) من الحروف الخامس والعشرين، إلى الثالث والثلاثين، بصفة خاصة، إذ أنها تحدد نوع الحيوان، الذي ينشأ هذا الهرمون إليه، وبذا تتمكن الأجسام المضادة، بواسطة هذه العلامة المميزة، من التعرف على سلائل هذا الهرمون، فإن كان من نوعها كفت عن أبطال فاعليته، وأن كان هذا الهرمون ينتمي إلى سلائل غريبة، على الجسم، الذي يوجد



فيه، أطلقت هذه العلامة المعيزة، بذاتها، مناعة ذلك الجسم، من عقلا، دفاعاً عن حياته.

ولقد انبثقت عن هذه البحوث، خبرة ومعلومات، ذات فوائد عملية، منها ما يلي :

يُحفّز أجزءه، الذي يؤثر على الأجسام المضادة، أى من أحرف الخامس والعشرين، الى التاسع والثلاثين، أمكن تركيب دواء اصطناعي (synthetisches Heilmittel)، جديد، لا يضر المريض أطلاقاً، أذ أنه لا يطلق مناعة جسمه، من عقلا، كما أنه لا يسبب له أية عوارض حساسية (allergische Erscheinungen) أبداً، وذلك بعكس الأدوية المماثلة، التي كانت تستخلص، قبل ذلك، من غدد بعض الحيوانات. ولله من المفيد، أن نذكر، هنا، أن أسم هذا الدواء التجارى، هو «سيناكتين» (Synacten).

المثال الثانى : هرمون الأنسجة الحية لسمى أنجيوتنسين (Angiotensin)، ووظيفته تنظيم ضغط الدم، وكذا تنظيم أداء الكل لوظائفها الحيوية، وهو ذلك الهرمون، الذى يرمز الى تكوينه، وكذا للمعلومات الحيوية، التي يحملها، بالحروف العادية (D-R-V-O-V-H-F-F). ولقد صيغت المعلومات الحيوية، فى هذه الحالة أيضاً، فى كلمات مستقلة، تفيد، كل كلمة منها، معنى خاصاً بها. وما يلتفت للنظر، وجود الحمض الأميى (D)، فى كلمة من بين هذه الكلمات. وأما وجه الغرابة فى ذلك، فهو أن وجود هذا الحمض، فى تركيب هذا الجزيء، يمنع جميع الأتزانزيمات الهامة، الموجودة بالدم، من هدمه، على وجه السرعة. ويستثنى من ذلك أنزيم واحد فقط، له القدرة على مهاجمة هذا الجزيء، أذ يبدو، أن هذا الأنزيم متخصص فى هدم كل ما زاد عن حاجة الجسم، من الهرمونات، على الفور. أما من حيث العلاج، بواسطة الأنجيوتنسين الاصطناعى (synthetisches An-) giotensin)، أى المركب تركيباً كيميائياً اصطناعياً، (وهو علاج يلزم عند تعرض شخص ما، لصدمة عنيفة، نشأت عن أصابته بجروح خطيرة على حياته، أو عند أجراء جراحة خطيرة له) فإنه يجب حقن هذه الهرمونات فى الوريد. ويرجع ذلك، الى أن حقن المريض بأدوية، كهذه، فى العضل، أو تحت الجلد، من شأنه إبطال فاعلية الهرمونات المفعولة، فى القور، بفعل ذلك الأنزيم المتخصص فى مهاجمة الأنزيمات، الزائدة على حاجة الجسم، وبذلك تعطل الفائدة المرجوة من العلاج، مالم يحقن المريض، بهذه الهرمونات، فى الوريد.

ولما كان من الصعب على الطبيب، حقن مصاب فى الوريد، قبل نقله من مكان الحادث الذى وقع له، أو حقن جنتدى فى الوريد، وهو مازال فى ميدان القتال، فقد تامل كاتب هذا الكفا، ومساعدوه، حمض الأسباراجين (D) بالتعديل، وذلك بحيث أصبح مفهوم المعلومات الحيوية، التي يحملها هذا الهرمون، بعد هذا التعديل، كما يلى :

«لا تسمح بهلك، ألا ببطء شديد وبذلك أصبح العلاج بهذا الهرمون المعدل، مقبداً أيضاً، عندما يحقن به المصاب، فى العضل.

٢) التأثير الكيميائى، لما تحمله الجزيئات، من معلومات حيوية، على عمليات التحول الغذائى : قام ڤروترز (Perutz) وكندروف (Kendrew)، وكذا نورث (North) وزسلاوّه العبدلين، بكبرج، وبلندن، ببحوث رونتجوجرافية (röntgenographische Untersuchung-gen) على بعض أنواع الزلايلات الناقلة، بعد بلوربها. ولقد تبين من هذه البحوث، أن كل سلسلة من سلاسل البوليبيبتيدات، الخاصة بالهيموجلوبين (Hämoglobin)، وبالميوغلوبين (Myoglobin)، وكذا بالأنزيم ليزوزيم (Enzym Lysozym) مطوية على بعضها، فراعياً، بطريقة معينة ثابتة، لا تتغير، خاصة بكل مركب من هذه المركبات الكيميائية، وحده. كما ظهر من هذه البحوث، أيضاً، أن أى تغيير فى تتابع الأحماض الأمينية، بسلسلة من هذه السلاسل، يسبب تغييراً فى الطريقة التي طويت هذه السلسلة بها، طياً فراعياً. ويستخلص من ذلك، أن طريقة طي أية سلسلة، من هذه السلاسل، تتوقف على الطريقة، التي تتابع الحلقات المتنوعة، فى هذه السلسلة، بها، وأن شئت، على الطريقة، التي تتابع حروف لغة البروتينات المختلفة، بها. كما يستخلص من ذلك أيضاً، أن شطراً من المعلومات، التي يحملها بروتائين ما، تستخدم فى تنظيم أحيار بنائه، تنظيمياً معيناً، وذلك بحيث يشكل هذا الجزيء داخلياً، وخارجياً، أى فراعياً، بشكل محدد، خاص به، وحده.

وأذا ما طويت سلسلة، ذات تكوين خاص، بطريقة محددة، تقترب حلقات، بذاتها، من حلقات أخرى، كانت بمقتضى ترتيب الحلقات، بعيدة عن بعضها، لو أن السلسلة لم تطو بهذه الطريقة. وبذلك تنشأ عن هذا الطي تشكيلات فراغية جديدة، قد وزعت، حروف وكلمات لغة البروتينات، فى كل منها، توزيعاً فراعياً معيناً. وأذا ما شبيها سلسلة، كهذه، بصفحة كتاب، مثلاً، تتابع

وما تصور الأتزم، على نحو ما أسلفنا، سوى تطوير، بشئ من التفصيل، لفكرة باول أبريلش (Paul Ehrlich) القديمة، التي تلخص في أن المواد، التي يجب تغيير تركيبها الكيميائي (Substrate)، وكذا المواد الوسيطة، التي تؤثر على العمليات الحيوية باللاسمة (Wirkstoffe)، تتوافق مع الأتزمات، أومع استقبالات (Rezeptoren) كما يتوافق مفتاح، مع قفله.

وهناك وسيلتان مباشرتان، في الوقت الحاضر، تمكنان من الحكم على مدى صحة تلك الفروض النظرية، التي يقوم عليها البحث، في هذا الصدد، وهما :

الوسيلة الأولى: دراسة بنية المجموعة «سوبرات» — إتزم، دراسة روتجينوجرافية، تفصيلية. ولقد تقدمت البحوث، التي تجرى على الأتزم ليوتزم بهذه الطريقة، تقدما كبيرا، كما أسلفنا.

الوسيلة الثانية: تركيب نماذج للأتزمات، تركيبا كيميائيا أصطناعيا (chemische Synthese)، وذلك بحيث ترتب حروف لغة البروتينات المجانية، فراغيا، على هياكل جزيئية، صغيرة الحجم، بسيطة التركيب، نسبيا. هذا، ويجب أن ترتب الحروف على هذه الهياكل، في كل حالة بنائها، بذلك الترتيب، الذي نتوقع، أنه سوف يمثل بنية الأتزم كالمقصود، أحسن تمثيل.

ومن بين الصعوبات، التي تعترض تطبيق هذه الوسيلة، أن هيكل الأتزم شديد الحساسية للحرارة، إذ أنه ينهار، عندما يتعرض للدرجات حرارة، تزيد على خمسين درجة مئوية، مما يطل فاعلية الأتزم الحيوية، ويغير من طبيعته. ولذا لت أسباب انهيار هياكل الأتزمات، عند ارتفاع درجة الحرارة، محبولة. زد على ذلك، أننا لم نصل، بعد، إلى الكشف عن تلك العوامل، التي تؤدي إلى تشكيل هيكل الأتزم، تشكيلا فراغيا بذاته، عندما تتابع حروف لغة البروتينات المجانية في تكوينه، بطريقة معينة. ونظرا لهذه الصعوبات، يقوم كاتب هذا الكفا، ومساعدوه، في الوقت الحاضر، ببحوث على أئزمات كائنات مجهرية حية، تبنى على قيد الحياة عند درجات حرارة، تزيد على (٧٠°) (٨٠°) درجة مئوية، كذلك التي تعيش في البرك، التي تتكون في حقول الجيزيرات (Geysirfelder)، وفي بتايبع كياه الساخنة، وكذا في أكوام الخشيش الخفيف، القابلة للاشتعال، ذاتيا.

وسوف يكون من المفيد، حقا، بل ومن الطريف، أيضا، أن نرى تلك الطريقة، التي رتب حروف لغة البروتينات المجانية بها، في بنان هذه الأتزمات الحية للحرارة

الكلمات، والجمل فيها، في مطور متتالية، ثم طويت هذه الصفحة، على بعضها، بطريقة محددة، يحدث في كلمات هذه الصفحة، ما حدث، بالتي، للحروف والكلمات البيولوجية، إذ تقرب، بطي هذه الصفحة حروف، وكلمات، بذاتها، من حروف وكلمات أخرى، كانت، بتقصي تتابع الكلمات والجمل، بعيدة عن بعضها، لو أن هذه الصفحة لم تطو، بهذه الطريقة الأحدة، أي لو أنها بقيت بدون أي، تتابع الكلمات، والجمل فيها، سطرا بعد سطرا، بترتيب خاص، تمليه قواعد اللغة، التي كتبت هذه الصفحة بها، وكذا ذلك المفهوم المحدد، الذي تضمنته.

هذا، ويظن بعض العلماء، أن هذه التشكيلات الفراغية الجديدة، التي تتكون بطي كل سلسلة من سلاسل أليزينات بالطريقة الخاصة بها، هي التي تمسك بما يسمى سوبراتات (Substrate)، أي تلك المركبات، التي يتعين تغيير تركيبها الكيميائي (أو تمسك بالمركبات، التي يجب أن تنقل، من مكان إلى آخر، أو تمسك بمولدات الأجسام المضادة).

وبذلك تتمكن تلك التشكيلات الفراغية، التي كانت قد أمسكت بالسوبراتات، مثلا، من القيام بالتغيرات المطلوبة في تركيبها الكيميائية، سواء أكان ذلك يتناول جزئياتها بالهلم، أو بالإضافة، وذلك بفضل ما اكتسبته، بطي سلاسلها، من تشكيلات فراغية معينة، ذات خواص كيميائية جديدة، محددة.

وبمثل العلماء، اليوم، إلى القول، بأن جزء أي أئزم ينقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية، يكون الجزء الأول منها هيكل الأتزم نفسه، كما أن وظيفة الجزء الثاني، هي التعرف على السوبرات، أي على ذلك المركب، الذي يتعين على هذا الأتزم، أن يتناول تركيبه الكيميائي بالتغير، وأما وظيفة الجزء الثالث، فهي تنفيذ هذا التغير، إذ تكن فاعلية الأتزم الكيميائية فيه.

ولذا لت العلماء يعملون على فرض نظرية، يستعملونها عند البحث في طبيعة حروف لغة البروتينات المجانية، التي تدخل في تكوين الجزيئين الثاني والثالث، أي في تكوين جزئي الأتزم، المتخصصين في التعرف على السوبرات، من جهة، وفي تغيير تركيبه الكيميائي، من جهة أخرى. أما أهم ما في تصور الأتزم، بهذا التقسيم، فهو أن الأتزم يحفظ بالسوبرات، في تجويف، أي في خزن، جد صغير، موجود بهيكله، وذلك بفاعلية قوى كيميائية فيزيائية معينة، قد خصصت لهذا الغرض.

(thermophil) بحيث تمكن هياكلها من الاستمرار . حتى عند درجات حرارة مرتفعة، الى هذا الحد، وكذا عندما تمكن من المقارنة، بين تنابع حروف لغة البروتينات، في هذه البنات، وبين تنابيح في بنات الأزيمات العادية (mesophil)، التي لا تستقر هياكلها، إلا اذا وجدت عند درجات حرارة متوسطة الارتفاع، أي عند درجات تقلّ، بقدر كبير، عن (٧٠ الى ٨٠) درجة مئوية.

٧) الغلطات الملمبية، في المعلومات الوراثية : من المعلوم، أن مؤلفات الفلاسفة، القدماء، تخترى على أخطاء كثيرة، في الكتابة، كانت قد وقعت عند تأليف هذه المؤلفات، أو عند نسخها، أو طبعا، مرة بعد أخرى، على مر الزمن.

ولقد تراكت هذه الأخطاء، في الكثير من هذه المؤلفات، وذلك نظرا لتكرار عمليات النسخ والترجمة والطبع، مرارا وتكرارا، أثناء طواف نسخ هذه المؤلفات، في البلاد العربية، الى أن وصلت الى أوروبا، عن طريق أسبانيا. بل أن من بين هذه المؤلفات ما عاد، الى أوروبا، مرة ثانية، إذ أنها كانت قد بدأت طوافها، منها. ولقد ظلت بعض الأفكار والمفاهيم، الملوثة بهذه المؤلفات، على الرغم من وجود هذه الأخطاء، مفهومة، كما أن منها ما لا يمكن فهمه، إلا بشئ من الجهد. وأما بقية هذه الأفكار والمفاهيم، فهي على العكس من ذلك، إذ أن منها ما أعثره تحريف شديد، كما أن منها أيضا، ما تغير معناه، كلية، وبذلك أصيبت، بسبب تراكم هذه الأخطاء، أفكارا ومفاهما، جديدة.

ولقد تراكت، بالمثل، أخطاء كثيرة، عندما نسخ المعلومات الوراثية، — بجزيئات من أحماض نووية — مرارا، وتكرارا، جيلا بعد جيل، منذ عصر آدم وحواء، الى أن وصلت الى عصرنا الحاضر. ولقد أدى تراكم هذه الأخطاء الوراثية، الى ما سبقت تسميته «بفاعلية الطفرة»، وهي تلك الفاعلية التي تسبب حدوث تغيرات فجائية، طفيفة (Mutationen)، في المعلومات الوراثية، ينشأ عنها، على الدوام، تغيرات مناظرة، في تكوين بنات البروتينات، المختلفة. فأذا ما حدث، بذلك، تحمين في مفاهيم البروتينات، بقى الفرد من الجيل، الذي يعانى هذه التغيرات، على قيد الحياة، كما أنه قد يورثها أيضا، الى الأجيال، التي تعقبه. وما هذه الأوضاع، التي نلخصها هنا، بصورة مبسطة، سوى الأسس، التي يقوم التطور والارتقاء عليها.

أما أسوأ الغلطات الملمبية الوراثية، وأشدّها ضررا بالكانن الحى، فهي تلك، التي تناقل بنى البروتينات، التي يتأثر بها، بالتغير، وذلك بحيث لا يفهم بيولوجيا، أى بحيث تعذر قراءته بلغة البروتينات، ومن ثم يصبح عاجزا عن أداء الوظيفة المكنونة به، في إطار العمليات الحيوية. ولقد قاست البشرية من غلطات، كهذه، ما قاست، إذ أنها تسبب الأمراض الوراثية، وكذا الأمراض السرطانية.

ولا تقع، في معظم الأحيان، سوى غلطة في حرف واحد، من ألف حرف من حروف النيوكليوتيدات الملمبية، أو بعبارة أخرى، سوى غلطة في حمض أميني واحد، من بين كافة الأحماض الأمينية، التي تكون جزيئا زائلا واحدا، والتي قد يبلغ عددها ثلاثمائة حمض أميني، ومع ذلك، فن الجائر، أن تسبب هذه الغلطة الواحدة، موت الإنسان.

ولقد ثبت ذلك، من البحوث الشهيرة، التي قام بها باولنج (Pauling)، وكذا أنجرام (Ingram)، على أنواع فقر الدم المصحوبة بالخلايا الملمبية (Sichelzellenanämien)، وغير هذه من أنواع الأمراض اللمبية. هذا، وتنشأ أنواع فقر الدم المختلفة، من غلطات مطبعية صغيرة، في الميموجولين، تلك المادة، التي تصبغ كرات الدم، باللون الأحمر. وما هذه كمادة سوى بروتينات، قد تخصصت في نقل الأكسجين.

ولقد تسبب أخطاء صغيرة، كذلك، التي تغير كمادة، التي يصطبغ الدم بها، باللون الأحمر، في أبطال فاعلية أزيما، كانت ذات فاعلية تامة، مما يسبب أصابة الأطفال بضعف الإدراك، وهو ذلك المرض الذي يسميه الأطباء أليجورفريا فينيلبروفيك (Oligophrenia phenylpyruvica)، أو يسبب أصابهم بالمرض، الذي يسمى تيروزينوز (Tyrosinose)، أو بالمرض الذي يسمى أليبنيزم (Albinism)، أي أشفار الكون، وأعيار وليس آخرها، أصابة الأطفال الرضعية، بالمرض المسمى الذي يسمى جالاكتوزيمي (Galaktosämie)، وهذا مرض ينشأ، عند حدوث خطأ، في تحويل الكاين الأحادي (Galaktose)، الى سكر العنب (Glukose).

ويحق لنا، اليوم، معتمدين على نتائج البحوث، التي توصلنا اليها، بالفعل، أن نتخذ في صحة عزو الأمراض، ذات الطابع السرطاني، الى حدوث تغيرات في المعلومات الوراثية، ضارة بالكانن الحى، وذلك أبان ما قد يعترى هذه المعلومات، من تطورات، على مر الزمن، وهي



أولا : لقد أثبت أفرى (Avery)، خلال عشرينيات هذا القرن، أنه من الممكن التغلب، على أية صعوبات، قد تعترض وصول تشكيلات اصطناعية، من أحماض نووية، صحيحة التركيب، الى الخلايا المريضة.

ثانيا : يمكن التنبؤ بالطريقة، التي تتابع بها، حروف النيوكليوتيدات الهجائية، في زسرتون بذاته، من تلك الطريقة، التي تتابع بها الأحماض الأمينية في البروتينات الخاظر.

أما ما لم تتمكن من تحقيقه، بعد، فهي طرق التركيب الكيميائي الاصطناعي (chemische Synthesemethoden) التي يجب استخدامها، لتكوين بوليبيكليوتيدات، كبيرة الجزيئات.

٨) من أين جاءت الحياة، وكيف كانت بدايتها الأولى ؟: لقد بينا بعاليه، أن الحياة تقوم على أسس معقدة، تعقيدا، تضيق التضافر، بين جزيئات حيوية كبيرة، ذات أصل متضاعف (Biopolymeren)، تحمل المعلومات الجيوية، وهي جزيئات تلك المركبات الضوية، التي يسميها الكيميائيون، أحماضا نووية، وبين آلات، قد صممت، بمقتضى شطر من هذه المعلومات، تنفذ ما يتبقى منها، وفق برامج محددة ....، ولكن من أين جاءت الحياة، إذن ؟، وكيف كانت بدايتها الأولى، على وجه التحديد ؟

منذ نحو أربع مليارات من السنين، وقد كانت الكرة الأرضية، آنذاك، حديثة التكوين، بدأت درجة حرارة الأرض في الانخفاض. ولقد صاحب برودة سطح الكرة الأرضية التدريجية، تكوين مركبات عضوية، معقدة أشد التعقيد، وهي مركبات كانت قد تكونت بفعل الأشعاع، وكذا بفعل ما كان قد حدث، في ذلك الوقت، من تفرجات كهربائية، في غلاف الكرة الأرضية الجوى البدائي. أما عن تكوين هذا الغلاف، فقد كان يركب من مركبات عدة، أهمها الميثين (غاز الناجم)، والنشادر، وكذا الأليدروجين. ولقد ثبت، بالفعل، من تجارب معملية معينة أن حروفا مفردة، بذاتها، من حروف لغتي الأحماض النووية، والبروتينات، الهجائية، كانت قد تكونت، من بين تلك المركبات العضوية المعقدة المذكورة بعاليه، في الغلاف الجوى البدائي. وبما بلغت النظر، أن هذه الحروف الهجائية الجيوية، ترتب نفسها بنفسها، وذلك بحيث يتكون منها، في نهاية الأمر، جزيئات بدائية، من أحماض نووية، وكذا جزيئات زلاية بدائية، تتابع الحروف الهجائية، في تكوينها

تغيرات ترجع لأسباب عدة، منها حدوث غلطات مطيحية، عند أنشطار خلايا البنية الجية، ومنها تسلل معلومات خاطئة، بفعل الفيروسات، الى تلك المعلومات، التي تحملها الأحماض النووية، وكذا لأسباب أخرى، تخص بالذكر منها، تعرض بنية الكائن الجي، الى فاعلية أشعاعية. هذا، ومن أبحاثنا، أن يكون تأثير كل هذه الغلطات، قاصرا على تلك البروتينات، التي تنظم نمو الخلايا، وكذا على تلك، التي تحافظ على تنوع الخلايا، بالبنية الجية.

ولعل أسمى هدف، يرى علم حياة الجزيئات، الى تحقيقه، هو الكشف عما تسببه فاعلية الطفرة، من تغيرات في المعلومات الوراثية، ضارة بالإنسان (schädliche Mutationen)، كذلك التغيرات، التي تؤدي الى الأصابة بالأمراض الوراثية، أو السرطانية، ونعني هنا، على وجه التحديد، تلك التغيرات الضارة، التي تحدث على مستوى الجزيئات، ثم العمل، بعد ذلك، على تصحيح هذه التغيرات، مستخدمين في ذلك، إحدى وسائل العلاج الكيميائية. هذا وفي ما أوجزناه بعاليه، ما يكفي، لكي نعين وسيلة واحدة، من بين هذه الوسائل، ألا وهي :

تركيب تشكيلات من أحماض نووية، خالية من أدنى خطأ، تركيبيا كيميائيا اصطناعيا، (chemisch synthetisch) وذلك بحيث تحمل هذه التشكيلات، كافة المعلومات الجيوية، اللازمة لتكوين ما صهي أن يكون ناقصا ببنية المرض، من بروتينات وظيفية، ثم التغلب، علاوة على ذلك، على أية صعوبات، قد تعترض وصول تلك التشكيلات، الى هذه البنية. وبهذه الوسيلة، قد تمكن خلايا المرض، من بناء البروتينات المعادية، أي تلك البروتينات، ذات التكوين الصحيح، وذلك الى جانب ما تنتجه من بروتينات، مختلفة التكوين. أما ما نأمله من علاج، كهذا، فهو أن تقوم البروتينات، التي تكونت من العلاج، بكل ما يقتض بنية المرض، من عمليات التحول الغذائي. وإذا ما توصل العلماء، ببحوثهم، الى تحقيق علاج، على هذا الأساس، فسوف يكون علاجا جلدريا، يستأصل المرض من جلوره، ولا يقتصر على علاج أعراضه، فقط، كما أنه، من أبحاثنا أيضا، أن يمتد تأثير علاج، كهذا، الى الخلف.

وليس من شك، أن الطريق الى تحقيق هذا العلاج الجندري، لازال طويلا، مع الأسف، غير أن إمكانات، تحمل على الضاول، قد تحققت، بالفعل، وبیان ذلك فإيلي :

الكيميائي، بمحض الصدفة، بنفس تتابع هذه الحروف، في الجزيئات المناظرة لها، بينان الأشياء. هذا، ويقدر العلماء، أن تكوين هذه الجزيئات، في الطبيعة، كان قد تتطلب فترة زمنية، قوامها ملياراتين، مما نعهده من السنين، وهي تلك الفترة، التي تسمى فترة (التطور الكيميائي) (chemische Evolution).

وعلى أساس ما تقدم، يرجع العلماء، أن أول جزيئات عضوية، لها القدرة على التكاثف، وعلى النمو، وعلى التوريث للخلف، كانت قد نشأت منذ زهاء ملياريين اثنين من السنين. ثم تلا ذلك، فترة التطور الكيميائي (biochemical Evolution)، وهي فترة يقدرها علماء علم سته، اكتسبت هذه الجزيئات، في خلالها، على مدار السنين، القدرة على أنجاز عمليات التحول الغذائي، ذاتيا. ثم تلا ذلك، فترة التطور الحيوي (biologische Entwicklung)، وقوامها ملياري السنين، الباقية، تمكنت فيها، هذه الأحياء المجهرية البدائية، من التطور إلى ما نراه اليوم، من أجسام متعددة، مختلفة البنات.

ويعتقد الكثيرون، وجلم علماء متخصصون في الأحياء، أن بداية الحياة الأولى، كانت قد حدثت، بمحض الصدفة (١)، أو بهجرة أخرى، أن نشوء الأحماض النووية، وكذا الأنزيمات، في بنان معقدة، تعقيدا، قادرة على القيام بوظائف محددة، لكل منها، كان قد جاء عقفا، وذلك بترتيب حروف الألفاظ الجينية، في شكل كينات محددة، بفاعلة الجينية محددة.

وهم يستقلون، علاوة على ذلك، أن تصافر هذين الصنفين من أجفريات أفيوية، على أجاز كل ما يتطلبه أفياء من عمليات، وكذا ما يقوم به الأحياء من مشجات، قد جاء فقرا أيضا، وأن ما يتطلبه هذا التصافر من تنظيم، إما تنظيم، (شبهاء بعاليه، بالنظم اللازم، للأنتاج الصحيح، بين قسم ما، وبين الآلة، التي تنفذ) قد خطته البيئة، وحدها، ونسته.

ويقود هذا الاعتقاد، الى تركيز معضلة بداية الحياة الأولى،  
والى تحويلها الى مسألة حياوية، من مسائل الاحتمالية

١) الحياة الخلوية = Molekularbiologie  
٢) لا يمكن فهم العالم قدسي بهذا الاسم، في تلك البقعة التي، إذ أنه من المآثر أن يكون عالم الفيزياء أشتوري (Aurbury)، هو أول من أطلق على الاسم، في هذا العالم، سنة ١٩٥٠.  
٣) الأنتجسم (A\*) وسدة أطوال تساري (٠,٠٠١ - ٠,٠٠٠) من البلمرة.  
تتكون هذه البلمرة من صوريين: أسطعها موجبة، والأخرى سالبة.  
٤) اللدنة النخاعية (Gehirnhaftung) هي دفقة رئيسية بالغ تصدر التحملات، التي تولد دقة أفسد الأسماء التي تتقبلها.

# النَّقدُ والتَّقليدُ في علم الجراحة

بقلم هانس أولريش بوف

نص المحاضرة التي ألقاها المؤلف بمناسبة انضمامه لهبة التدريس بجامعة زيوريخ في ١٩٦٢

أن هذه العقيدة القديمة لم تكن مجرد صورة خرافية. إذ تبين أن الهواء، بما كان يحمل به من بكتريا في مستشفيات العهد السحيقة، لم يكن بريئا تماما من تلويث الجرح وإصابته بالعدوى. وهاتين اليوم قد عدنا لنعمل حساب جرائم الهواء. على أن ما كان يحرك خوف الأولين من الهواء، لم يكن تصوره لإمكان انتقال الجراثيم عبره، وإنما اعتقادهم بخطورة الجوى، لشيء إذا كان باردا أو شديد الجفاف، فضلا عن طائفة أخرى من التصورات غير الواضحة. — لم يكن إذن الخوف من الجوى خوفا من البكتريا، إلى أن حدث تطور مفاجئ، لم يبع عن التقليد تدريجيا، وإنما خرج مفاجئا إلى الوجود عن طريق اكتشافات باستير، وهكذا تبين على الجراحين أن ينفضوا التقليد المتين عن أنفسهم بأسرع ما يمكن، إن هم أرادوا ألا يوقفوا بحري التقليد.

وعلى نحو أوضح من ذلك حدث تطور عملية التخدير. فقد كانت القاعدة الإنجليزية المتبعة لتسكين الألم، حتى أقل من مائة عام مضت، تقتصر على (إعداد قنينتين من الويسكي قبل كل عملية، واحدة للمريض والأخرى للجراح. ولعل انتشار هذه القاعدة لم ير أسف الأجلو ساكسونيين وحدها. وهنا جاء التقدم مرة أخرى من ميدان خارج على علم الجراحة، إذ نهض على أساس، أرادت أن تحمله عبارة تذكارية محفورة في حديقة عامة بمدينة بوسطن، بالكلمات الآتية: «باكتشاف أن استنشاق غاز الاثير يؤدي إلى فقدان الحساسية بالألم».

كل ذلك تبين من التطور الأخير لطرق التخدير، أنه لم يكن في مقدور الجراحين أن يحققوا من الوسائل الممنوحة لهم أقصى استفادة ممكنة. ولذا فإن التخدير لم يبلغ مستواه الرفيع سوى في السنوات الأخيرة الماضية، بعد أن قرر الجراحين أن يمزقوا حجاب التقليد، ويضعوا التخدير في أيدي إخصائييه.

وإن عملية وقف فقدان المريض للألم ليست من السوء بما كانت عليه في الماضي، عندما كان يضيح الكثير من

أصبح التقدم في نظرا أمرا تقليديا. بل أن سرعة التطور في العلوم التكنولوجية، وضخامة مبالغته من نتائج، لم يعد يدهشنا تماما. على أن آثار هذا التطور التكنولوجي قد بدأت تثير القلق في نفوسنا، حتى بنتا نسأل أنفسنا، عما إذا كان التقدم في حد ذاته طيبا. والبادئ أن هذه المشكلة — مشكلة مزاي التقدم وسوائه — لم تطرح بعد في مجال علم التشريح. ذلك أن التقدم قد حافظ على معيار إنساني، نلمسه بوضوح في هذا الميدان، ومن ثم فهو إيجابي على طول الخط. وإن ما يجري من مقارنات بين الحاضر، وما كان عليه التشريح في الأعرام أو الأحقاب الماضية، ليسفر عن نتائج طيبة لنا.

هبط الخوف من أمراض الجراحة إلى حد أدنى، حتى صرنا نكاد أن نفترض أنه من المفروغ منه، أن العملية الجراحية وعلم الجراحة لن يكونا سوى مجرد فترة مؤقتة في حياتنا، وأنه سوف يصبح في مقدورنا أن نقضي أواخر أيامنا في حمى الطب الباطني، أو تحت رعاية أحدث فروع الطب، وهو المختص بعلاج أمراض الشيخوخة.

ولنا لنسأل أنفسنا: إلى أي حد يوجد ما يبرر هذا التفاؤل، وما إذا كان تقدم علم الجراحة يعد تقليدا لا غبار عليه، وما هو طريقه الذي عبره لينا، واتجاهه الذي سيمضي فيه، وما هو الذي يعود فيه الفضل إلى التقليد، وإلى الخروج عن التقليد.

إن تقدم أسس الجراحة الحديثة، فيما يتعلق بمكافحة العدوى، وفقدان الدم والتخدير، قد تطور عن طريق الخروج عن تقليد دام عدة قرون. وهو قد أتى من خارج ميدان الجراحة والجراحين، بواسطة بعض مائتين في حقول مغايرة من العلوم الطبيعية.

لم يكن سر العدوى معروفا، وإنما آثارها فقط، من حمى ترتب على جرح مفتوح، أو شوائب تلوه. ولقد بذل الكثير وأبكر الأكثر عبر مئات الأعوام للتخلص من هذه المخاطر، ولكن دون أن تتحقق خطوة واحدة إلى الأمام. وهكذا ساد الاعتقاد بأن سر الداء يكمن في الهواء. والواقع

دمه بلا وجه حق. وإن هذا الخطأ ينتمي إلى المبادئ الواسع لزللات الطب الباطنى. ولو أننا تذكرنا الأساليب القاصرة تماماً لوقف ضياع الدم فى الأزمان المنصرمة، أو ما اقترحه آنذاك «فابريكوس هيلدانس» من ترك الدم ليتدفق إلى خارج الساق السليمة، إذا أجريت للمريض عملية بتر فى الربيع لساقه الأخرى المصابة، فلابد من أن نخرج بأن الجراحين قد غفلوا عن خطورة فقدان المريض لدمه. أو أنهم، على الأقل، لم يكونوا فى وضع يسمح لهم بمعالجة هذه الظاهرة.

ومرة أخرى أدت اكتشافات جديدة، خارج نطاق علم الجراحة، مثل وقوف «لاندشتاينر» و «فيلز» على مجموعات الدم، إلى جعل نقل الدم وسيلة مضمونة، وأساس للجراحة الحديثة.

وهكذا كان يتم دائماً كل تقدم هام فى علم الجراحة، من جانب غير الجراحين، ومن طريق معارف قادمة من ميادين أخرى. وكل ما يميز به الجراحين، هو أنهم لم يتوانوا عن إدراك أهمية هذه النتائج الجديدة، وتطبيقها فى حقل الجراحة، دين أن يقفوا فى وجه التقدم أو يعطلوا من زحفه بتمسكهم بالقديم.

على أن التقليد يبدو فى صورة أفضل، من خلال المهارة فى إجراء العمليات الجراحية. إذ يمكن أن جراحاً يدعى «لازى» قام فى موقعة «إيلان» بمأبى عليه بتر فى أربع وعشرين ساعة، وعن جراح آخر نفراً أنه كان يكفى الزائر أن يسمح زجاج نظارته قبل بدء العملية، كى يرى بمجرد وضعها على أرنبة أنفه، الذراع المبتور وهو يبعد عن جسم المريض. ومع ذلك فإن السرعة لاتطابق المهارة دائماً. إذ نسمع عن جراح كان يقوم بعملية فتاق لأحد الأمراء، وإذ به يترجمكة عفوية الشريان الفخذى الأكبر، مما أدى إلى وفاة المريض لتوه. ورغم ذلك فتحت أبواب التاريخ لتستقبل هذا الجراح النابغة، الذى دلف إليه «فغورا» غير متخدلاً. وبعلى المؤرخ على حادثة الأمير الذى أسلم الروح بين يدى أحد الجراح، بقوله: «ولما كان أصحاب السلطة لا يشجعون دراسة التشريح، فقد وجب أن يندفعوا نحن ذلك بأبدانهم».

ويبدوننا التقليد فى خوة الأهمية عندما تفكر فى انحراف الطب والجراحة، تعال أسباب علمية أو متحثة على العلم، للوقوع تحت تأثير لآخلاقى لسلطة الدولة، أو لحاس على شديد الاندفاع فى اتجاه واحد. وإننا كلما قرأنا عن مثل ذلك، أو عن المرضى الذين يتحولون إلى مجرد «مواد» وأرقام ونسب مئوية، يئنا تقتصر مهمة وجودهم على

تأييد نظرية معينة أو دحض أخرى، كلما اقتننا بأن مزيداً من التقليد ذى الزعة الانسانية والمثل الكلاسيكية. كفىل بأن يحى من الانزلاق فى مثل تلك الميادين الخطرة الواقعة بين حدى العلم الإنسانى، والعلم المجرد من الإنسانية.

إذاً فكثيراً ما يقف التقدم والتقليد ك «ناقر ونقير» فى ميدان علم الجراحة. على أننا لزم نظراً للجراحة باعتبارها مفهوماً تجريدياً، وإنما التفتنا إلى أنفسنا كجراحين، لذات المتناقضات من تلقاء نفسها، ولإلثب التقدم والتقليد أن يمتزجا فى وحدة متجانسة. ونحن نعرف بالطبع أننا قد أخذنا الأسس من أساتذتنا، وهولاء عن معلمهم، وإن كان ذلك لم يمنع أحداً من أن يتعلم جديداً. وعندما نتصفح مؤلفات كبار العقائقة — من أمثال «بيلروت» — ونقرأ رسائلهم، نجد — من حيث الاتجاه وأسلوب التفكير — الكثير مما انحدر إلينا عن «كليرمون» Clairmont من جهة، وعن «برونر» Brunner من فرع آخر لشجرة علم التشريح. ونحن (كجراحين) لم نحس أبداً بجلاء الفقرة التى أقم فيها هيبيروا بأن «تحرر معلماً أثناء ممارستنا لفنائه، وإنما نشعر بضرورة العناية بهذا القسم وتوصيله لمن نحفظنا كتقليد واجب لا رجعة فيه.

ومن خلال العلاقة التى تربط بين الأستاذ وطلابه، والذى نعتز عليها فى كل مهنة، ونكتسبها من خلال التعلم على مدى الأعمار على يدى معلم رائد، يخرج نوع من القرابة الفكرية التى تميز أولئك الذين درسوا على نفس الأستاذ. ولو أنه عادة ما نحمل المناهج والأساليب الفنية فى كل عصر، نفس الخطوط العامة فى كل مكان، إلا أنه يوجد بالرغم من ذلك ثمة فريق يمكن التعرف عليها من نوعية الأسلوب المتبع، الذى يرجع إلى أحد كبار الأساتذة، ولازال يعيش فى مدرسته. وكل من نخرج من نفس «المدرسة»، يظل مرتبطاً بتقاليدها.

إلى جانب مختلف المعالم التى تميز كل مدرسة فى التشريح عن سواها، توجد قيم ثابتة بالنسبة لجميع الجراحين فى أى عصر أو مكان، إذ هى مرتبطة بالخصائص المميزة لمهنتنا. وإن الإجابة على السؤال الباحث عن هذه القيم متضمنة أصلاً، إلى حد كبير، فى تعريف علم الجراحة فهو «علاج بواسطة الأبدى، أى عمل يدوى، ينهض على قوانين من واقع العلوم الطبيعية، وهو قابل للتكرار، وبالتالي يتصف بسمه العلم، إلا أنه غير قابل للتعلم بصورة تامة، أى أنه فن».

وهنا يقف العلم اليدوى فى المقدمة، حيث لا توجد مساهمة عقلية فعالة، فى رأى السالقين، حيث كان أطباء



وإن كافة هذه الحاصلات مجتمعة تشكل ما يمكن أن ندعوه بالطابع المميز للجراحين، والتقليد الحق لعلم الجراحة.

وعلى النقيض من ذلك نجد خطأ تقليديا يشوب صورة الجراح في أذهان الناس، فهو في رأيهم إنسان قليل الحساسية وإن لم يكن فظا غليظ الطبع، ضخم المشية قوى العضلات، ذو نظرة حادة ثاقبة، وبراعة بدوية فائقة، لا تأثر فيه مشاهد الدماء والجراح. غير أن هذه السمة قد اندثرت منذ زمن بعيد، ولدت آخر معالمها بانقراض ميادين القتال في القرن الماضي. وأن كانت لاتزال تسيطر على صورة الجراح في مخيلة الكثيرين.

بل أن هذا الطابع لم يعد يناسب «آيزنبرج»، أستاذ «كليمين»، إذ يقول في مذكراته عن الفصل الدراسي الذي قضاه عام ١٨٨٢ في زيوريخ: «لم أتردد على عبادة الجراحة سوى مرة واحدة، فقد كاد أن يقضى على من منظر الدماء». ويبدو أن تجربته مع علم الجراحة قد تحسنت نوعا، بعد ذلك بعام، في باريس. وهناك ظل يراقب كل سبت عمليات الأستاذ الشهير «بيان» Péan التي كان يجريها في مستشفى «سان لوي»، وإذ به لا يدين شيئا عن الدماء أو الأضواء، وإنما يكتب للسطور التالية: «كان أسلوبه رائعاً. وقد أدهشني أنه كان يجري العمليات الجراحية بالبلدلة الرسمية (الفراك)، وروطة عنق سوداء، لم يضع سوى (فوطه) على مقدمة قميصه». ولعل الفصل يعود إلى الخوف على بلدة (الفراك) التي كان يرتديها «بيان» في استعمال ملقط الجراحة - الذي مازال يعمل رسم هذا العلم الشهير حتى يومنا هذا - لسد الأوعية الدموية مؤقتاً أثناء إجراء العملية. ولإبداء أن الحفاظ على تقليد (الفراك) قد حدى من قبل إلى تعميم أسلوب الجراحة، الذي ينحى إلى عدم ضياع دم المريض سدى.

إذاً فلنعد إلى الطابع الأصل للجراح، الذي يحدده عمله المتصل بالإنسان الفرد. فهذا الطابع ليس فحسب بعيداً كل البعد عما يروى عن جراح المبداء، وإفراقه من كل حساسية، وإنما يتناقض كذلك وما يميز العالم الدقيق أو من يمثل الفروع الطبية الأخرى التي تأخذ بمنهج مختلف تماماً في العمل والتفكير.

وأحياناً ما يتفق الجراح بين آن وآخر إلى هدوء المعمل ونظافة العلم في الحقول الأخرى، حيث تنظم التجارب في بساطة ووضوح، كمن تعطي إجابة معينة من سؤال محدد. ولكنه يعلم أن هذا ليس ميدانه، فمكانه في محيط البحث الأكاديمي، الذي لا ينض على تجارب علمية، وإنما على تحليل المرضاء، أي - إن شئت - على مجارب تتساق إليه

الأمراض الباطنية يحتلون قمة المدوخ المرعى، أما الجراحون وحلافو الصمعة، فكانوا في أدنى قاعدة الهرم، واعتبارهم يمثلون أقل الحرف اليدوية الطبية شأنًا، لاسيما وأن الاعتقاد السائد آنذاك كان يقول بأن الفكر أرقاصر على مناقشات العلماء ومناظرهم، أما عامة الناس فلا سبيل لهم أن يفهموا لغة أهل العلم!

إذن فعلم الجراحة، إذا كان يعتينا أن نتعرف على أهم ما يميز مهنتها، وهو إجراء العمليات، عمل يبدى وسيظل دائماً كذلك. فعمل الجراح أن يقوم بنفسه بأداء عمله يديه. وهو لا يستطيع أن يدع آلة تقوم بالعمليات الجراحية، وبذلك يرغب من إنتاجه أو يبعده أكثر اقتصاداً للجهود والوقت. وإنما هو يفضي دائماً، كعامل يدوى من اليونان القديمة أو روما، من القرنين الوسطى أو من عصر النهضة، بعمل ويعمل، ويظل الأخير والوحيد الذي يصلح ما تبقى من رتوق. وهو لا يستطيع أن يفعل أكثره من العاملين في الطب، الذين يتاح لهم عن طريق معارفهم واكتشافاتهم وتنظيمهم، أو بواسطة التفويض بالمصل الواقى، وتوزيع الدواء، وتوجيه الإجراءات الصحية الخ، لإنقاذ أو وقاية مئات الناس المصابين بالأمراض وغير المصابين. أما الجراح فليس مقدوره إلا أن يركز اهتمامه على شخص واحد، يعينه يديه مباشرة، دون وساطة إنسان آخر أو دواء.

لأوجد لعلم جراحة مجرد، إذ لا يمكن تصور هذا العلم بدون جراح. فعلم الجراحة منحصر في الجراح، وهذا - أثناء عمله - في مريض واحد. لذا فإن هذا التخصص لا يحظى من جانب الدولة، التي تنظر إلى الأمور من خلال الأرقام والأحصائيات، بأهمية غير عادية. فالجراحة لا يمكن أن تقاس بزيادة عدد السكان أو بوفاء الرضى الخ، أو بمكافحة الأوبئة والصمعة العامة، فهي في هذا المجال تكاد أن تفسح تحت باب الكليات. وإذاً ففكرهم علم الجراحة من جانب الدولة، يعد دليلاً على بلوغها حد رفيع من التطور، إذ صارت تعنى بكل فرد على حدة. أما الجراح فقد ترتب على طريقة عمله أن تولد لديه اتجاه فكري، أصبح له بمثابة التقليد. فالإنسان يظل بالنسبة له معياراً لكل شيء. وهو يرجع كل أمر إلى مدى علاقته بالإنسان. ويعتبر حقوق الفرد. وعنده أن الشخص الفرد مفضل على المجموع. فالتقدم في نظر الجراح ينحصر في كل ما من شأنه أن يحسن من نتيجة العلاج بالنسبة للمريض، أو يقصر من فترة عدايه أو يخفف من الاحتمالات السيئة لتطور المرض. فعمله مباشر، مستقل، إنسانى وفردى. وهو لذلك وثيق الارتباط بالحياة وعدم التبعية.

البيولوجي. و إلى لأذكر هنا على سبيل المثال تلك المعضلة الرائعة التي تتمثل في نقل نسيج حي من انسان إلى آخر. ونحن نعرف من الأساطير القديمة ذلك الحلم العتيق الذي يمتزج فيه الانسان بالحيوان على صورة القططروس وحرس البحر وإلى الوراء. وكلنا يعلم أن تطعيم الثبات كثيرا ما ينتج. وهكذا أجرى العديد من الجراحين تجارب مثله على الانسان، حيط فيها شخصان يبيضها، لاختيار مدى إمكان امتزاجها بيولوجيا. فقد حيك طفل - أريد ترقيع بشرته - بفخذ أمه. ثم فصلا عن بعضها بعد أربعة أسابيع. وبرغم أنه بدى على رقة البشرة وكأنها قد التأمت تماما، إلا أنه مالمث أن دب فيها جفاف الموت بعد أربع وعشرين ساعة. وفي حالة أخرى كان الأمر أسوأ من ذلك. فقد حيكمت بشرة فتاة إلى بشرته أخوها. في شكل قطرة من البشر بينهما وفي اليوم الثامن أصيبت بأنيميا حصى شديدة، صاحبه تقيؤ وصفره وباقع في اللين، ورعشة مع هبوط الهيموجلوبين إلى نسبة ٣٠ بالمائة في الدم. لذا كان لامفر من فصل تلك الرقعة من البشرة المشتركة بين الفتاة وشقيقها، فوراً، حتى تنقذ حياة الفتاة.

إذاً فقد بادت محاولات الجراحين في هذا الصدد بالفشل. ثم عادت لتظهر من جديد في شكل نقل الأعضاء من جسم حي إلى جسم آخر. فاللثة التي تعيشها كلية نترع من إنسان لنترع في شخص آخر، قد تطول لدرجة تمتنا على الدهشة. على أنه لا يمكن ادعاء النجاح على طول الخط، فان كافة مايتبع من إجراءات، مثل تسليط جراحات كبيرة نسبيا من أشعة إكس (رونتجن) على المرضى، لا يستطيع أن يفعل شيئا أكثر من أن يطيل من تسرب الموت إلى النسيجة الطرية على الجسم. ذلك أن استعمار حياتها بصورة دائمة لا يمكن تحقيقه طالما عجزنا عن أن ننهي فردية الانسان المتغلغلة فيه حتى كل خلية منه. أما إذا أمكن للعلم التغلب على هذه العقبة - وهناك محاولات جادة في هذا المضار - فانه يحق لنا أن نسأل أنفسنا في هذه الحالة، عن مضار التقدم ونزاهه. وبها كان الأمر قد زالت حتى يومنا هذا فردية الانسان، وعلم تقبله للنسيجة الغريبة عليه، هي هي دون أدنى تبديل. ولقد حصل كل من «ملودور» و«بورنيه» على جائزة نوبل في عام ١٩٦٠، لاعتن حلها لهذه المعضلة، وإنما لأنها استطاعت أن يتقدما في بحثها ويقدما شرحاً أفضل لأهم العمليات التي تؤدي إلى المناعة في الجسم.

في استطاعتنا أن نحمي أنفسنا من مرض الجدري إذا حقنا أنفسنا ضده مرة كل خمس إلى عشر سنوات، ولكننا

من الطبيعة، وتنقسم بكل مايقسم به الانسان من مخوض وصعوبة وتعبيد، وتختلف من عوامل كثيرة متشابهة فلاسبيل إلى الفصل بين هذا البحث الاكليتيكي وعلمه البشري بحال. ويقوم الجراح بتكملة هذه المرحلة العملية من بحوثه بدراسة تاريخ حياة المريض، ومقارنة تجاربه مع ما ورد في المؤلفات والشرائح المتخصصة، وكذلك لإدله من تتبع النتائج على مدى زمني طويل. وهو من خلال كل ذلك يخلص إلى القول بمجهه العلاجى المادف. والواقع أن عدم تماشى التنبؤ بسير المرض وتشخيصه وعلاجه، يوضح بما لا يدعوى للشك سبيلا إلى ميدان البحث السريري (الاكليتيكي) ما زلنا بحاجة إلى بحث طويل. وإن التفسير الشخصي للجراح ليلعب دورا حاسما في تقييم النتائج. وهو الأمر الذي يؤكد تاريخ التهاب الزائدة الودية. فقد كان (كرونلاين) أول من استأصل زائدة دودية في زيوريخ، عام ١٨٨٤، غير أن المريض قد دفع حياته ثمنا لهذه «التجربة»! وعاد نفس الجراح إلى إجراء نفس العملية بعد ذلك بعام، ولكنه اضطر بعد ساعة ونصف من البحث بلا جدوى عن الزائدة، أن ينهى العملية دين أن يمش عليها. وإن كانت حياة المريض قد انقذت هذه المرة! ولعل الكثير من الآراء التي تزدهر البحث السريري وتبالغ في تقييم المعتقدات النظرية القائمة على ما أنجز من تجارب على الحيوان، وكان هذه لا تقبل النقض ولا الإبرام، قد عجزت عن أن تفرض نفسها.

وإن خلطا بين البحث السريري من جهة، وبين العلم الدقيق، أو بحوث المعمل من جهة أخرى، لايتأتى، كما لايتأتى أى مزج أو مساواة لهام كل منها بالأخر، إلا أن لايفر الفرق الأساسية بينهما.

• وإنه لى مقدورنا - نحن معشر الجراحين - أن نمد أنفسنا سعداء، إذ نميش في ظل حكومية، مطلبها الوحيد الواضح أن نمنى بمرضانا، ونقتل معارضا إلى طلبتنا؛ ووقوفنا من الفرد فيما اتصل بالبحث العلمى، أن نترك له حرية الخيار في إنتاج السبيل الذى يراه أصح من سواه في دفع تخصصه إلى الأمام. وإن الخطر كل الخطر في فرض مطلب يحمل شعار «البحث العلمى» على حقن فردى سريري كحقن علم الجراحة.

• هنالك معضلات في علم الجراحة لا سبيل إلى حلها عن طريق الملاحظة الاكليتيكية. فارتباطها بالقوانين الأساسية التي تحكم العمليات الحيوية، من الشدة بمكان، بحيث لا اعتقد أنه من حق إطلاقا أن أطبقها على الانسان، قبل أن تهيأ لذلك الأسس اللازمة بوساطة البحث العلمى

نخرج إلى العالم محموتين سلفا بمصل واق من أقرب الناس إلينا، بل من كل من عدنا، ونظل نحفظ بهذا «المصل» مدى الحياة.

وعلى الرغم من كل الأحلام التي تعبر عن رغبات أصحابها، وما تنشره الصحف من أنباء، فإنه لا مفر من أن يعتمد الجراح والمرض على احتياطي كل منها، لمعالجة الأعضاء أو الأنسجة المصابة. أما العظام والعضلات التي تنقل أحيانا من إنسان لإنسان، وتحجز فوق ذلك نجاحا علميا، فلا تستمر حياتها في الجسم الجديد، وإنما تقوم بدور الكمية الميكانيكية، والشكل الميت الذي تكسيه الخلايا الحية. والمعدات أهمية عملية في جراحة الشرايين، كان يصنع لها من البلاستيك بعض الأنابيب المطاطة، وكذلك تستعمل المعادن كبديل لبعض أجزاء المفصل. إلا أن كافة هذه الإمكانات لازالت محدودة، طالما أن الإنسان لم يصبح آلة بعد، يمكن الحصول على قطع غيارها من رفوف أو مستودعات المستشفيات، أو على صورة أعضاء أشخاص لازالوا على قيد الحياة، أو آخرين ترقمهم الأقدار. وينفرد بالانتفاع بهذه الإمكانية الأخيرة التوام الذين خرجوا من بويضة واحدة.

إذا فتقدم جراحة التجميل، وإعادة الأعضاء إلى نصابها القديم، لأبش على استعراض جليدي مثير، وإنما هو جامع لمئة تفاصيل، يمكن حصرها فيما يلي: الأهم بمعالجة الأنسجة العضوية، ولضيق على «تج» عدم فتح جروح جديدة إلا لضرورة ملحة، وهو الأمر الذي يحدو بالجراح أن يضع نصب عينيه المحافظة على كل خلية، بكل ما أوتي من فن ومقدرة، وتكييف الجراحة بطريقة الحياة واختيار سلك الأثر في حالة لاغري، والتحرر من البيانات التقليدية التي تمشي في الكتب الدراسية، واستعمال غير هياب للخيال والإبتكار، ومناخضة التقليد الخاطي، الذي يرى في العملية الجراحية تهديدا لحياة المريض.

على أن المصطلحات الجراحية المتخصصة، ولطابع الذي يميز الجراح، وتاريخ علم الجراحة وتطوره، لا يحيط بكل ما ينطوي هذا الميدان. فالجراحة، بعد كل ذلك مهنة ومادة تلوس. وهنا أيضا يلعب كل من التقدم والتقليد دوره في تشكيل الإطار الخارجي لهذا العلم، وتنظيمه. وإن إجراء المقارنات بين مختلف المصور والأفطار، ليقفنا على فروق كبيرة. ولا زلنا نحن بولونيا<sup>(١)</sup> لا نستطيع حتى اليوم أن نضع ببساطة تعريفا واضحا لعلم الجراحة. فهناك فروع أخرى من الطب مرتبطة باسم هذا العلم

أو بمفهومه، كما أنه في الإمكان أن نصف الجراحة ذاتها إلى عدة أقسام فرعية. فهي -أى الجراحة - لا تحمل ك «يانوس» وجهين فقط، وإنما تبث في نفوسنا صورة «هملرا» يروعها التسعة أو التي تزيد على ذلك، بينا تصبغ مهمتنا أشق من مهمة «هيروكليس» في تمييز الرؤوس القابلة للموت من المرتزة التي لا تعرف الفناء.

ظل علم الجراحة وحدة واضحة المعالم، طالما اقتصر على علاج الجروح والتغيرات الخارجية الظاهرة، إلا أن إمكانية التعرف على الأمراض الباطنية، وعلاجها بالمشروط، قد وسع ميدان علم الجراحة خلال القرن الأخير بدرجة هائلة. ولقد أمكن، بالرغم من ذلك، في بداية هذه المرحلة، أن تضم كافة أطراف هذا الحقل، حتى أن الطب الباطني كان يمارس من الجراحين كذلك، وهو الأمر الذي يبعث اليوم على العجب. وعلى أي حال، فقد بدى وكأن رأى «هيبوقراط»، القائل بأن المرض متصل بالإنسان ككل، وأنه يتعين لذلك على نفس الطبيب أن يعالج مختلف مظاهر المرض لدى الفرد الواحد، قد وجد السبيل إلى التحقيق. وهكذا دين «لابجينيك»، في مقدمة كتابه المعنون: «الجراحة في عام ١٨٤٥»، جمملته التالية:

«إن الطبيب والجراح صفتان لشخص واحد».

ولازل يوجد حتى اليوم في أصقاع كثيرة من سويسرا ذلك الطبيب المخصص في شتى فروع مهنة، والذي تخطئ إن نظرنا إليه على أنه مجرد ظاهرة فولكلورية. فليس التقليد القديم مهمة رائعة للطبيب فحسب، وإنما بالمثل معروف يسدى إلى المريض. لاشيا وأنه يخلصه من الصراع الدائر بين مختلف المناهج والاختصاصين، على حسابه. إلا أن دور العلم والمستشفيات الكبرى لم تستطع بالطبع أن تحتفظ بحجرة الطب. فقد كان لا مفر من تفرع الاختصاصات، وفصلها عن بعضها. الأمر الذي تم حسب وجهات نظر متعددة، بعضها يرجع إلى تشريح الأعضاء، والآخر إلى وظائفها، والثالث إلى فحصها وطرق علاجها.

وإن تاريخ التخصص في كل من طب العين، أو الأنف والأذن والحنجرة، أو في علاج وتقليم تشوهات المفصل والعظام، أو في علم الأمراض البولية، أو تشريح الأعصاب، ليكرر نفسه على الدوام: ففي أول الأمر يظل الميدان المعنى مهما في رحاب علم الجراحة، إلى أن يأتي من يهتم به، وإن لم يستطع أن ينتصر على المقايضة النابعة من التنظيم القديم. إلا أنه بعد صراع عنيف يكون التحرر في النهاية من ربة التقليد. ثم يتبع ذلك الانعقاد تطور عظيم. فإذا ما بلغ الهدف، لم يسلم المختصون، في أحيان كثيرة،

من الوقوع في أخطائه من سبق أن تجربوا عليهم، بأن يتسلطوا دوماً على ميادين جديدة. ويمكن القول بصورة عامة أن الفصل بين التخصصات قد أثبت جدواه. والآن، نسأل أنفسنا عما إذا كان ينبغي أن نواصل المضي في هذا الاتجاه. وإن كنا نميل إلى رؤية التقليد في الوحدة، والتقدم في التخصص، إلا أننا لاثمك أن نؤيد طرقاً على حساب الآخر بلا تحفظ.

وإن هذين القطبين — الوحدة والتخصص — لا يتناقضان في علم الجراحة وحدها، وإنما في ميدان الطب بأكمله، بل في الحياة والطبيعة على حد سواء. وما من جهة تقدم لنا إجابة واضحة عن عاصم وسوايه التقليد والتقدم.

فعلم الاجتماع يرى من ناحية أن أمل المستقبل معقود على مواصلة توزيع العمل. ومن جانب آخر يقول علماء الأحياء أن جميع الخلايا تكون في المرحلة الجنينية متماثلة، لتفاضل بينها. ثم يأتي بعد ذلك التميز والتخصص لوظيفة معينة وعضو معين. ورغمنا عن ذلك فإن قلنا معنا من الخلايا يظل دائماً، في كل أنحاء الجسم، بلا تخصص، بينما يحتفظ بالقدرة على التطور في أي اتجاه، حسب ما تقتضيه الحاجة. ومن هنا يخرج عالم البيولوجيا بالنتيجة التالية: «إن التقدم يحدث بواسطة التخصص، أما نتيجة التقدم فتستمر بفضل عدم التخصص». وتبعاً للفلاسفة تتخذ الحقيقة موقفاً وسطاً، حيث يقول إغلاطون وكانت: «كقاعدة لكل معرفة يجب أن ينقض قانونان متساويان، أحدهما لتأنيل النوع والآخر للتخصص، على ألا تريد كفة الواحد منها على حساب الثاني». كما تعلمنا من هيبوقراط، أنه: «ليس في مقدورنا أن نتركز المتخصص والفرد إن ضاعت منا معالم الكل».

يضاف إلى التطبيق العملي لهذه النتائج المتعارف عليها في كل مكان، واجب مراعاة الظروف المحلية والعوامل الزمنية، لأنها تختلف من سويسرا إلى إنجلترا إلى أمريكا. وإننا لنريد بالدرجة الأولى أن نذكر أولئك الذين يتخذون مثلهم الأعلى من الخارج، بأهمية الملاحظات المحلية. فإذا أردنا ألا يمتص تطورنا إلى مآل يشبه نهاية برج بابل، فها نحن نفضل خيراً بتوثيق صلة علم الجراحة بتنظيم كافة فروع الطب، وكذا بالظروف والملايسات المحلية وصادات الحياة، بل وعقلية المرضى أيضاً.

وإن إعداد وتنظيم العلاج اللازم للمصابين بالحوادث البوية ليقدم لنا النموذج العملي الذي يتطلب تحقيق كل ذلك.

ويرجع عدم الرضى بوضع الجراحة في كل بلد إلى أسباب متباينة، بل متناقضة. فطالما عانى الجرحى في سويسرا من التقليد المتقن الذي يجعل كبيرى الجراحين، في المستشفيات التي تضم الكثير من المرضى، يحسن بوابج التركيز على إجراء العمليات الجديدة الخطيرة. أما العمليات التي كانت تجري في الساعد والساق، أو علاج كسر العظام والحرق وإصابات الظهر، أو إعداد الطرق الجراحية الهادفة إلى المحافظة على وظيفة الأصبع، أو تجنب جرح في الوجه، فكان أمرها يهمل.

ولم يكن الحال، في البلدان ذات الحظ البعيد من التخصص أفضل من ذلك. ولازال... فهناك يوجد إخصائين لكل عضو، إلا أنه ليس من المستطاع أن يتقيد الجرحى بأوقات أو أماكن معينة، عند تلقيهم الإصابات، حتى يستطيعوا الاستفادة من خدمات هؤلاء الإخصائين. أضف إلى ذلك أن حوادث المرور لم تتضمّن عددياً فحسب، وإنما طرأ عليها كذلك بعض التغيير، فهي لم تعد تصيب عضواً واحداً، أو يترتب عليها مجرد أذى للبشرة أو كسر في العظام، وإنما أصبحت في مقدمة الإصابات الحديثة، تلك التي تشمل أكثر من عضو واحد، وبالتالي لاتصلح لقسم جراحى متخصص.

ومن الطبيعى أن يؤدى الجرى المتدنق من طرفى هذين التقيضين إلى نقطة التقاء في الوسط. وهنا يتبين ضرورة النظر إلى علم الجروح على أنه وحدة متماسكة. فهو يشمل كافة الإصابات والأعضاء، وبالتالي يظل وثيق الصلة بعلم الجراحة العام.

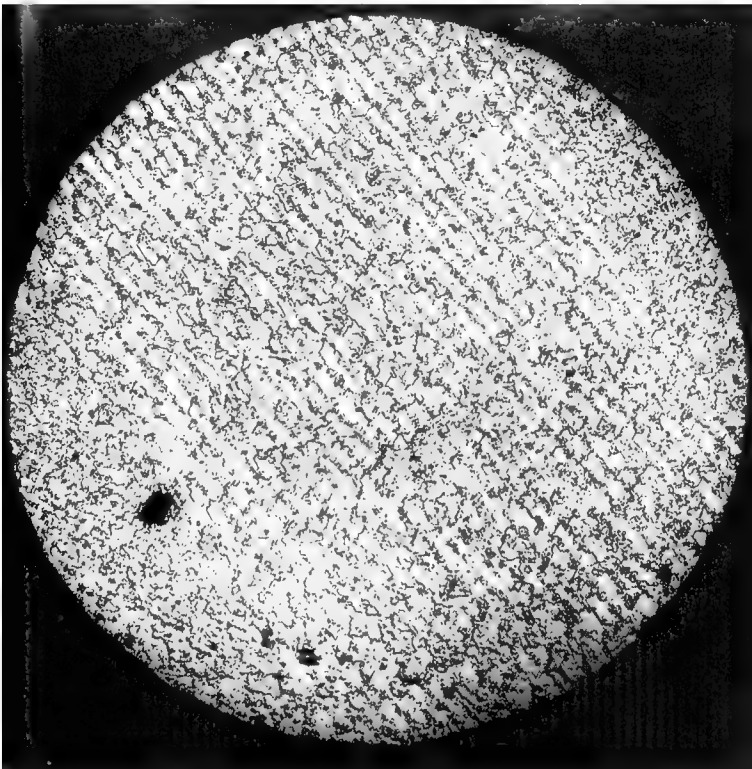
وإن مطلب علم الجروح، الهادف إلى المضي في ركب التقدم والتخصص، لا يصبح في مكانه إلا إذا عني عناية خاصة بمشكلة كافة الأسجة المصابة إما من مرض أو حادث، فضلاً عن ضرورة اهتمامهم بجراحة التجميل، وإعادة أعضاء الجسم إلى نصائبها القديم. وبهذه الطريقة يمكن أن يحقق تقدماً ملحوظاً، وأن يكون في نفس الوقت امتداداً للتقليد الجراحى الذى يرجع إلى مئات الأعوام، والذي كان يدور حول الإصابات والتغيرات الخارجية الظاهرة.

إذا فالتقدم والتقليد في علم الجراحة مرتبطان ببعضهما إلى حد بعيد. ولو أن هذه الصلة التي تجمعهما ليست من باب القدر التي لا محال في قسمهما، إلا أنه يمكن الوقوف عليها وتقييمها في مختلف ميادين هذا العلم.

ترجمة مجدى يوسف

(٢) يتحدث المؤلف باعتباره جراحاً..

(١) كما كان الحال في عهد النازيه مثلاً (المترجم).



مادة الفلورسبيريت بعد تصويرها بالميكروسكوب الإلكتروني. تصوير: Badische Anilin- und Sodafabrik, Ludwigshafen.

# الشحور

## بقلم روبرت موزيل

ومن بين ما كانوا يأتون به من حركات يتحدون بها الله أن يرتكروا بأيديهم على سور البرج ويرفعوا أنفسهم لضغط البطيء على عضلات سواعدهم وأنظارهم موجهة لأفصل ثم يرتخوا على أيديهم فوق ذلك الارتفاع. ولعل من قام بهذه الحركة الأكروباتية على سطح الأرض ليعلم عن كتب إلى أي حد يحتاج الأمر إلى حذو وجسامة وثقة بالنفس لإعادة هذه الحركة على شريط حجري عرضه لا يتجاوز القدم، وفي ارتفاع برج كهذا. ولابد من القول أيضا بأن كثيرا من التلمان الأشقياء الذين لا تعوزهم مهارة لم يجتروا على الإتيان بهذه الحركة مع أنهم كانوا يسيرون بأيديهم فوق الأرض بلا أدنى عناء. فثلا من بين هؤلاء وأه. أما ٢ فكان في صباه صاحب اختراع هذا الاختبار السير. ولعل ذلك مما يفيد في تقديمه باعتباره راوية للقصة. كان من الصعب العثور على ما يصحى بنته. فهي لم تكن تتميز بعضلات رياضية - كما هو الأمر لدى أبدان الكثيرين - وإنما بدا عليه كما لو كان عبارة عن عضلات مجولة بطبيعتها في بعضها البعض دون أدنى جهد. وفوق هذه البنية كان يجلس رأس صغير مستطيل به عتيان يشع منهما بريق يطفله دعة ظاهرة، أما أسنانه فكانت تذكر بلمعان أسنان حيوان يطارد فريسته أكثر مما توحى بوداعة المتصوفة.

تحمس الصديقان فيما بعد - أثناء دراستهم العليا - لتعليل مادي للحياة ينظر للأنسان على أنه مجرد آلة فيزيولوجية أو اقتصادية بلا إله أو روح، وهو أمر غير مستبعد، وإن كان لم ينهم إطلاقا مدى مطابقتها للواقع من علمه، فإجاذية هذه الفلسفة لا تكون في نصيبها من الحقيقة وإنما في طابعها الجهنمي المنشأ والذهني الخفيف. وكانت صداقتهما آنذاك صداقة شباب. فقد درس ١ علم الغابات وتحدث عن نيته أن يعمل مهندسا للغابات في أنطار بعيدة - كروسيا أو آسيا - بمجرد أن ينتهي من دراسته. أما صاحبه فاختار لنفسه حماسا أكثر اعتدالا وانضم في ذلك الوقت إلى حركة عالية صاعدة. وعندما التقوا مرة أخرى قبل الحرب الكبرى كان ٢ قد عاد من روسيا وإن لم يقص الكثير عما فعله هناك، بينما أصبح

كان الرجلان اللذان يتعين على ذكرهما - حتى أروى ثلاث قصص قصيرة يتوقف الأمر فيها على شخصية الراوى - صديقين طفولة، ولندعوما ١ و٢. فالواقع أن صداقة الطفولة تزداد غرابة كلما تقدمت سن صاحبها. وبمرور الأعوام يتبدل حال الإنسان من أعلى رأسه حتى أخص قدمه ومن شعر بشرته حتى قلبه، ولا تتغير هذه العلاقة العجيبة إلا بالقدرة الضئيلة الذي تتغير به صلات المرء بمختلف الأشخاص الذين يحاط بهم، كل في دوره، بلفظة وأناة. وليس من الضروري أن يستثمر المرء ما كان يدور في نفس ذلك الصبي الصغير ذى الشعر الأصفر والعيان الكثير، والذي التقطت له الصور الفوتوغرافية منذ أمد بعيد. لا، بل ليس في مقدورنا أن نزعج بأننا نجح أو نمتز بذلك الكائن الصغير الأرض برغم تركه حول ذاته ومشاكساته. وعلى هذا القياس فلا المرء متفق مع أحر أصدقائه ولا هوراض بهم؛ زد على أن كثيرا من الأصدقاء لا يكون مجرد الحب لبعضهم البعض. وهذه هي، بمعنى أو آخر، أعنى الصداقات الحاوية لذلك العنصر المستطيل على الأفهام دين ما عداه.

أما الطفولة التي جمعت بين ١ و٢ فكانت ليست بأقل من دينية. ذلك أن كليهما نشأ في معهد يتباهى بمجرسه على مبادئ الدين، وإن ركز ناشته كل طموحهم في عدم الاعتراف بهذه المبادئ؛ فثلا كان لهذا المعهد كنيسته جميلة كبيرة ككل الكنائس، ذات برج مشيد بالحجر، وهي فوق ذلك مخصصة لهذه المدرسة. وبما أنه لا يظا هذه الكنيسة قدم غريب فقد كانت جماعات متفرقة من التلاميذ تنزه فرصة ركوع زملائهم الباقين خلف المقاعد الأمامية - حسباً تقضى في الشعائر المقدسة - كي تنهض لتوها وتلعب الورق خلف كاسي الاعتراف أو تدخن الفلفائف على درجات معزف روكزل أو تختفي في البرج الذي يحمل من تحت سقفه المذهب شرقية حجرية كطبليق الشموع، حيث كانت تعرض على سورها فوق ذلك الارتفاع الذي يصيب بالدوار ألعاب أكروباتية في مقدورها أن تقسم رقبة حتى من كان أقل من هؤلاء الصبية امتلاء بالخطيئة.



هورست آنتس: ابرالینین (عام ۱۹۵۹/۶۰).  
 Junge Künstler 1963/64, Du Mont Schauberg  
 من کتاب:



راینر کوشنمایستر: شکل آجر (مهر ۱۹۹۳). Rainer Küchenmeister: Rote Figur.

من کتاب: Junge Künstler 1964/65, Du Mont Schauberg

نشر دار نشر دیومنت شاور برچ بکولوینا لامارتهما لنا کلیشیات هاتین اللرجین.



سلفا في مثل هذه المساكن الخاصة بالطبقة المتوسطة، بمجرد أن يقطعها المرء. ولعلك تسلم بأن حرية الانسان تتوقف بالدرجة الأولى على وقت الفعل والمكان الذي يمارس فيه، إذ أن ما يفعله الناس متقارب إلى حد كبير: وإن لهذا معنى خطير لاسيما إذا خططنا كل شيء على نفس النمط. مرة تسلمت خزانة راجيا من وراء ذلك أن أستغل الخط الأفقي، وفي استطاعتي القول بأن الحديث الفيزيقي، الذي كان على أن أدبره من فوقها، قد أصبح مختلف الموقع تماما.

ضحكك ٢١ من ذكرياته صبب في كأسه بعض الشراب، بينما دار في ذهن ١٢ أنهما جالسين في شرفة بمصباح ذي غطاء أحمر تابع لأثاثه، ولكنه سكنت فقد كان يعلم بالدقة علام يستطيع أن يترض.

وأقر ١٢ أن تلقاه نفسه: إلى لا زالت أسلم حتى اليوم بأن أمرا مهولا يكن في هذا الانظام، ومن قبل كنت أعتقد أن في روح هذا التكتل الوحش ما يشبه صحراء أو مجرأ أو مذبحا في شيكاغو رغم أن هذه الصورة تقلب معدني، أو ليست أمر مختلف تماما عن إصيص ورد! إلا أن الغريب في الموضوع أنه في الوقت الذي حصلت فيه على هذا المسكن رحلت أفكر في والذي بكثرة، وعلى غير العادة. فأنت تذكر أن كنت قد فقدت تقريبا كل ما يربطني بهما، إلا أنه دفعة واحدة سيطرت على ذهني هذه الجملة: لقد منحك الحياة، وجعلت هذه العبارة الغريبة تراودني من حين لأخر كمناسبة لا سبيل إلى طردها. على أنه فيما عدا هذه العبارة الصورية التي طبعت فينا أثناء الصغر، ثم لاحظ شيئا. أما حين كنت أتأمل مسكني فكنت أقول لنفسى: انظر، لقد ابتعت حياتك الآن في نظير عدد معين من المراكات التي تدفعها سنويا كإيجار. وربما قلت أحيانا: الآن، هأنت ذا صنعت حياتك بمجهودك الشخصي. وبدأ في الأمر وسطا بين غزن استبداد وتأمين على الحياة واعتداد بالذات. عندئذ رأيت أنه من المعجب المعجب، بل بمثابة السر الملق، أن يهني إلى شيء سواء أردت أو لم أرد، وإذ به فوق ذلك أصل كل ما عداه. إلى أعتقد أن هذه الجملة حوت كتر من الأمور غير المنتظمة ولا المتوقعة، كنت قد دفتته. ثم أتت قصة الليل.

بدأت بمساء كثيرة من الأسميات الكثيرات. وكنت قد مكنت في الدار، وتوجهت إلى غرفة الجلوس بعد أن ذهبت زوجتي لتنام، والفارق الوحيد عن سائر الأسميات هو أني لم أمسك في جلستي بكتاب ولا بأي شيء،

الآن موظفا بأحدى الشركات الكبرى. وكان باديا عليه أنه قد عانى كمية لا بأس بها من التجارب المريرة وإن كانت أحواله العامة عادية. أما صديق شيا به فصارت تلك الأثناء من مكافح للنظام الطبي إلى رئيس لتحرير صحيفة تكتب كثيرا عن السبل الاجتماعي وتتبع أحد رجال البورصة. ومنذ ذلك الوقت وكل منهما يحتقر صاحبه. ثم انقطعا عن بعضهما فترة، وإذ التقيا من جديد لزم قصير راح ٢١ يقص مايلي بطريقة من يريد أن يفرغ لصديقه ما في زكيته من ذكريات ليحصى بالقماشاة فافرة. لم يكن يعنيه في هذه الحالة كم سيرد عليه صديقه، وإنما كان يمكن أن يروي حديقهما وكأنه مونولوج. وأهم من ذلك ما لم يمكن أن أن نصف بشيء من الدقة مظهر وسلوك ٢١ إذ أنه لا معدى عن هذا الانطباع المباشر للوقوف على ما تعنيه كلماته. إلا أن ذلك صعب المثال. ولعل أقرب ما يمكن أن يقال أنه كان يذكر بسيط رفيع طويل معروق، وضع على طرفه اللين مستودا إلى الجدران، بينما بدا عليه أنه راغب بزمعه النصف قائم والنصف نائم على نفسه في وقت واحد.

قال ٢١ أنه من أغرب الأماكن في العالم تلك الألفية البرلينية التي يبرز فيها فناء أو ثلاثة أو أربعة مؤخرتها لبعضها الآخر، وفي قلوب مربعة وسط الجدران تجلس الطباغات ويرفغن عقائهن بالفناء. بينما يبدو من آنية النحاس الأحمر الموضوعة على الأرفف كم صوت قرعها عال. ومن أسفل يرتفع صوت رجال بكلمات غاضبة تاهرة إلى إحدى الفتيات في الأدوار العليا، أو تحرك على بلاط الفناء المزروع قباقب كبيرة من الخشب راحمة عادية. تحرك ببطء. في صلابة. بلا توقف ولا معنى. بصفة مستمرة. أليس كذلك؟

أما المطابخ وغرف النوم فقريبة هنا من بعضها كاقتراب الحب والمهضم من جسم الانسان. وعلى مر الطوابق ترى مخادع الزوجية مرصوفة فوق بعضها، ذلك أن جميع حجر انتم تقع في نفس الأماكن من الدار، وهكذا يحدد جدار التوافد وحائط الحمام والثالث الذي تستند إليه خزانة الثياب مكان السرير للدرجة متقاربة تقاس بالنصف متر. وعلى هذا النحو نجد غرف الطعام وحجرات الاستحمام بقبائنها الأبيض والشرفات بمصاييحها ذات والأبجيرة الحمراء. وهكذا فالحب والنوم والولادة والمهضم وعودة القواء غير المنتظر والبال الملتب بالقلق والأخرى الحافلة بالمسرات، تقع جميعها فوق. بعضها البعض كمواميد الخيز في «ويقه» أوتوماتيكي. وإن المصير الشخصي ليقدر

وإن كان ذلك أيضا قد سبق حدوثه. وبعد الساعة الواحدة صباحا يبدأ الهدوء في أن ينجح على الطريق، وتصبح الأحاديث نادرة، ويخلو للمره أن يتبع زحف الليل بالأذن. وفي الساعة الثانية ارتفع من أسفل أصوات جليلة وضحك ثم يوضح عن مرور بعض السكارى في آخر الليل. وقد شعرت أني أنتظر شيئا ولكن لم أدر ما هو. وحول الساعة الثالثة بدأ النور يشع في السماء، فقد كنا في شهر مايو. وتحسنت طريق في السكن الممتع حتى بلغت غرفة النوم ووقدت بلا صوت أو جلبة. ولم أكن أنتظر شيئا سوى النوم، وأن يخل في صباح الغد يينا شبيها بسابقه. وحالا ما لم أعد أدري إن كنت قد رحمت في نوم أولائت بقطا.

ومن بين الستائر وثنايا الشباك الدوار جعل يتدفق لون أزرق داكن، يينا تقاطعت أشربة رفيعة من زبد الصباح الأبيض. وربما كان ذلك هو آخر ما وصيت لو كان وجه حلم مضطجع. هنا أيقظني شيء يقترب، تبين أنها نعمات. ومرة بعد الأخرى تأكلت من أن السبات قد شدني إليه. ثم جلست النعمات فوق أعلى نقطة في الدار المجاورة لنا، وراحت تقفز في الهواء كالذلايين. أو ربما أيضا كقطاعات النور في حلقات الصواريخ. فقد تحلف الانطباع الناتج عن الطلقات الضخمة التي تفتت أثناء سقوطها برقة على ألواح الزجاج، ثم هيبت كأنهم القضية الكبيرة في الأعماق. وعندئذ أحسست بوضع صغرى. فقد وقدت في غنخي كتمثال ميت فوق اللوح الذي يغطي قبره، واستيقظت، ولكن على نحو مخالف لاستيقاظي أثناء النهار. وأنه لكم يصعب على أن أصور ما حدث، ولكني عندما أفكر فيه ينجل إلى كما لو أنني كفتت بالعكس فلم يعد لشكلي بروزا وإنما هيبت. ولم تكن الغرفة عجوة وإنما تألفت من نسج لا وجود له بين أقمشة النهار. نسج أسود شفاف، أسود يمكن استشفافه من الداخل، ومنه تألفت أنا أيضا. وأسرع الزمن في عدوه على شكل ضربات نبض صغيرة محبومة. ترى لم لا يحدث الآن ما لا يحدث في العادة ؟ — وقلت لنفسى بصوت مرتفع : إنه بلبل ذاك الذي يغرد !

ويبينا كنت مستغرقا في التفكير راح «٢٤» يستعذر قائلا : غير أنه ربما كان في برلين بلابل عدة. فقد اعتقدت آنذاك أنه لا يوجد أي منها في تلك الجبال الصخرية، وأن ذلك البلبل قد طار من بعيد إلى. إلى أنا ! — هكذا شعرت ونهضت مبتسما. — مصغرون من السماء ! إذا فهناك بالفعل شيء من هذا التريل ! — في مثل هذه اللحظة يصبح للمرء قابلا للاعتماد — في غابة البساطة — بما فوق

الطبيعة من قوى. وإنه ليليدو حينئذ كما لو كان الواحد منا قضى طفولته في عالم صغرى. ودار يتلدى لئوى : سأتبع البلبل. وداعا يا حبيبي ! — هكذا قلت في نفسي ! — وداعا يا حبيبي، يا داري، يا مدينتي !.. ولكني قبل أن أنهض من غنخي، وقبل أن أتبين ما إذا كنت سأصعد وراء البلبل فوق أسطح الدور أو سأبتعد من الطريق، كان المصغور قد سكت وعاد طيره بما لا يحتمل الشك.

ودار في خاطر ٢٤ : الآن راح يغرد على سطح آخر لأنام مغاير. — ربما اعتقدت أن القصة انتهت بذلك ؟ — بل هي قد بدأت الآن، ولست أدري كيف ستكون نهايتها !

أحسست بالوحدة والضييق، وقلت في نفسي : لم يكن بلبلا وإنما شعروا، تماما كما أردت أن تقول. وإن هذه الشحاري لتقلد الطيور الأخرى، كما هو معروف. وهنا كنت قد استيقظت تماما وبدأت أمل السكن. فأشعلت شمعة وتاملت المرأة الرائدة إلى جوارى. لقد بدا جسدها شاحبا كلون أحجار أسطح الدور. وعلى بشرتها كانت ترقد الحفاة البيضاء لغطاء المهدع كشرط من الثلج. وتمرجت خطوط عريضة من الظلال حول جسمها، خطوط لا يعرف مصدرها على وجه التحقيق، وإن كانت بطبيعة الحال متعلقة بالشمعة وحركة ذراعي. — وخطري : ماذا هو فاعل، لو أنه كان مجرد شعروا بالعكس، إن مجرد كونه شعروا عاديا هو الذي طار له صواى : فعناه أكثر من ذلك بمراحل ! ألا تعلم أن المرء يبكي لصدمته إزعاجا بسيط، فإذا صارت مزدوجة ارتسمت على وجه صاحبها ابتسامة. ومن وقت لأخر كنت أعاود النظر إلى زوجتي فكل ذلك متصل ببعضه ولكن لا أدري على أي نحو. وقلت في نفسي : أحبتك منذ سنوات كما لم أحب شيئا في العالم، والآن ها أنت راقدة كقشرة حب محترقة. الآن صرت غريبة غنى تماما. وهأنذا خرجت من النهاية الأخرى للحب. هل كانت السامة ؟ ما أذكر أبدا أني أحسست بالسأم. وإلى لأصعب لك ذلك كما لو كان في مقدور الإحساس أن يمتدق القلب كما يمتدق جبل يوجد على سفحه الآخر علم مغاير يقع فيه نفس السهل ونفس الدور وبعض القناطر الصغيرة. ولكني لم أدر ببساطة ماهية ذلك. ولازلت لا أعرف حتى اليوم. لمثل لست محقا في أن أروى لك هذه القصة في ارتباطها بقصتين أخريتين يتبعانها. ولكني أستطيع أن أقول لك وحسب كيف نظرت إليها عندما خبرتها : لقد نفذ إلى منها إشارة ما — كان هذا هو انطباعي عنها.

عن ذلك التشتت العلب ومضى كصوت منبثق بقوة من نفير، أسمع عريضا بطليبا في بقاع العلو البعيد ..

وفي وسط الليل استلطنا موقعا متقدما في وسط السهل، كان من الممكن القضاء علينا ونحن فيه لو ضربنا بالحجارة من فوق، غير أننا لم نشرلألا بالتران البطيئة لأسلحة المشاة. حتى إذا حل الصباح بعد تلك الليلة البلاء كانت وجوه الجميع ملبسة بسياه غريبة، لم تذهب إلا بمرور بضع ساعات : فلاعين كانت متسعة الحديقات، وارتفعت الرووس من فوق الأكتاف بصورة غير منتظمة وكأنها حشائش سبق أن داسها الأقدام. وبرغم ذلك فكثيرا ما كنت أخرج رأسي من حافة جعري، في تلك الليالي، وأدور به في حذر وكأني عاشق لوان : عندئذ أشهد فرقة وبرتاته في لون سماوي الزرقه شفاف وقد بدا عليها وهي واقفة في الليل كما لو كانت من زجاج مصبوب على هيئة متخرج حاد الزوايا. أما النجوم فكانت في تلك الليالي كثيرة وكأنها مضمصة من ورق مذهب، وراحت تريق كما لو كانت غبرة من عجين مدهون بالسمن. وكانت السماء لا تزال زرقاء بيئا توسطها في تلك الليلة قمر على شكل منجل رفيع مستقل على ظهره في رقة فتاة، راح يعم في محيط من الهجة المقتونة، ويرسل شعاعه فضيا خالصا أو ذهبيا خالصا. لابد أن نحاول جهده لتصوركم كان هذا جميلا؛ فإنا من هذا قبل الجلال في رحاب الحياة الآمنة المستقرة. وأحيانا كان يضيق صدرى بما أنا فيه فأزحف من فرط سعادتي وإشتياقي منجولا في الليل حتى أبلغ الشجر الأسود في زرقه مذهبه وأنهض ناصبا قامتي بينة كرتشة صغيرة بنية زرقاء وسط ريش طائر الموت وهو في جلسته الهادئة ومبقرا الحاد وتنوع ألوانه الساحرة حتى السوداء، على نحو لم تشاهد له مثيل.

وبعكس ذلك كان التجوال ميسورا أثناء النهار على ظهر الخيل في الموقع الرئيسي لعملياتنا. فالواحد منا لا يعرف الخطر إلا في مثل تلك الميادين التي تتيح له فرصة التأمل والفرح. وقد كانت هذه المواقف تجر ضحاياها في كل يوم وبمعدل نسبة مئوية ثابتة كل أسبوع، يقدرها أركان حرب الوحدة في آلية شركات التأمين. وبالنسبة كلنا أيضا، فكل منا يعرف بفرطه ما ينتظره من خط، كما يحس بأنه مؤمن عليه وإن يكن بشروط غير كريمة تماما. وما هذا سوى تلك السكنية الغريبة التي تراود المرء طالما كان يعيش في خط النار. بل من الضروري أن أوضح ذلك منذ البداية حتى لا تصور الأمر على نحو خاطيء. وبالطبع أحيانا ما يحدث أن يشمر الواحد فجأة بمجاز يدفعه البحث

وضعت رأسي لئلا جوار جسدها وهي نائمة بلا وعي ولا متازكة. وبدا صلدها في ارتفاع وهبوط مبالغ فيه، كما راحت جدران الثرفة تقرب وتبتعد عن جسم النائمة كأموالبحر مرتفع حول سفينة قطعت شوطا بعيدا في أعماقه. ولعل ما كنت أستطيع أبدا أن أنصرف عنها مودعا. ولكني إذا ما سرقت نفسي الحين بعيدا عنها فاني أبدو لنفسى ذلك الزروق الصغير المهجور وحيدا بيئا تحبى سفينة كبيرة كمنة، تحبى دين أن تحس بوجودي - قبلت النائمة فلم تشر. وهمت في أخذها بشيء، وربما كنت حريصا على ألا تسمع همسي. فقد ضحكمت من نفسي وهزأت بالليل، وإن كنت قد بدأت أبتعد خفية. وأعتقد أنني شئت بالبقاء، ولكني ذهبت بالفعل. وتفتست الصعداء، ولوأنى حاولت أن أقول لنفسي أنه لا يليق بشخص كريم الخلق أن يفعل ذلك. وأذكر أني كنت كمخمور بهجو الشارح الذي يسير فيه كي يثبت لنفسه أنه يفظ.

وبالطبع كثيرا ما فكرت في العودة، وأحيانا ما كنت أحب أن أعود ولو مرتت بنصف العالم، ولكني لم أفعل. فقد كانت بالنسبة لي غير قابلة للسن. لست أدري إذا ما كنت تفهمني : إن من يحس بالجور في أبعد أعماقه لا يفكر، وبهذه المناسبة لست أريد منك تبرئة لي. وإنما أود أن أروي عليك حكاياتي لأعلم إذا ما كانت حقيقية. لقد عجزت طيلة أعوام طول عن أن أسرّ لأحد بما ينظرني عليه صدرى. ولوأنى سمعت نفسي وأنا أتحدث إليها بصوت مسموع في هذا الأمر لذهرت صراحة من نفسي .. فلتستمسك إذا بالآ بالآ بدعن تمقل لاستنازك. غير أنه بعد ذلك بعامين وجدت نفسي في زقاق مسود، أو قل في زاوية ميتة استدارت عندها الخطوط الأمامية من جيشنا المحارب في جنوب «التيرو»، عائدة من الخنادق الدموية بـ «تسيا دى فيكسينا» والواقعة على بحيرة «كالدوناتسو». وهناك قضيت في أعماق سهل التيرول كوجة من شعاع الشمس ترفرف على تلين ذى إسفين جبيلين، ثم راحت تصعد الجانبا الآخر من السهل لتضع في سلسلة مرتفعات جبيلة ساكنة. وكان الوقت في شهر أكتوبر (تشرين الأول)، والخنادق للمشغولة بعدد يسير من المحاربين امتلأت بأوراق الخريف، واشتعل اللين الأخضر بلا صوت في البحيرة، ورفدت التلال كضفائر زهور ذابلة. وكثيرا ما خطر لي أنها تبدو كجدائل الزهر الموضوعة على القبور، وإن لم أكن أعشأها. ومن حولها راح السهل يتلطف مترددا وموزعا، حتى إذا ما انحدر فيها وراه المنطقة التي استلناها كنص

عن وجه معين معروف سبق أن رآه منذ أيام معدودة، وإن كان قد اختفى اليوم. إن وجهها كهذا قد يبرز النفس بمنع بزبد عن احتمال العقل، وقد يظل معلقا طويلا في الهواء كضوء شمعة مناهت. إذاً فما كان المرء يهاب الموت خوفاً منه في العادة، ومع ذلك فقد أصبح عرضة لأى مثير. فغالباً أنه كما لو كان الحلم من البداية، وهو الذى يربض فوق المرء بلا توقف أو هدنة، قد تخرج .. وأزمرت مكانه على مقربة غير معينة من الموت حرية داخلية عجيبة ..

ومن فوق موقعنا الهادئ كان يعلو مرة أو أخرى طيار مغير .. وإن لم يحدث ذلك بكثرة إذ كان لابد لطائرات العدو من أن تعلق على ارتفاع شاهق فوق سلسلة جبالنا ذات الممرات الهوائية الضيقة - فيما بينها - ولقمة المحصنة بالمناظر الضيقة. وبينما كنا واقفين على أحد أكابيل القيورة فوجئنا للتو بسحب بضياء من ذلك النوع الذى تخلفه الطائرات في السماء، وكأنها من صنع مبدرة سريعة كالبرق. وبدا ذلك مضحكاً، بل كان أن يكون مبهجاً. زد على أن الشمس قد لاحت من خلال جناحي الطائرة بألوانها الثلاثة بينما كانت مارة فوق روستا، فظهرت أشعتها وكأنها تلوح من خلال نافذة إحدى الكنائس أو من ورق حريرى ملون، ولم يفتض تلك اللحظة سوى موسيقى مؤنسات. عندئذ خطر لى أننا نشبه جماعة تشاهد سباقاً في حلقة وتعين هدفاً جيداً. فقد ارتفع صوت أحدنا: عليكم بالاختباء! ولكن أحداً منا كان لا يجد الرغبة في الانزواء داخل ثقب في الأرض كما تفعل قتران الحفول. وفي تلك اللحظة سمعت زيننا خافتاً يقرب من وجهي المشهود إلى فوق. ومن الممكن طبعاً أن يكون قد حدث العكس، فأكون قد سمعت الزين أولاً ثم أدركت اقتراب الخطر. إلا أنى في نفس اللحظة عرفت ما هو: ومع طائرا وكان على هيئة قضبان حديدية مدنية لا تريد صمكا عن خيط الرصاص الذى يستعمله التجارون في القياس. أما هذه الرياح الطائرة فكانت تلقينا الطائرات آنذاك من كل فاذا، أصابت دماغاً ما، ما خرجت إلا من نعل القدم، ولكنها لم تصب كثيراً مما حدا إلى الاسراع بالاستغناء عنها. وهكذا كان ذلك أول ومع طائر في حياتي، أما القتال وضررات المبالغ الآلية السريعة فكانت تصدر أصدواناً مخنقة تماماً. وعلى أى حال فقد عرفت لتوى علام أنا مقدم. وتوتر انتباهي ثم زلاني في اللحظة التالية إحساساً غريباً لا أساس له من الواقع المخمل: أنه سيصيب! وهل تعلم كيف حدث ذلك؟ لم يزل على هذا الشعور

فكرة مزعجة وإنما كحظ سعيد لم يسبق له مثيل! وعجبت أول الأمر إذ خيل لى أنى الوحيد الذى سمع الزين. ثم خطر لى أنه لابد للصوت أن يخفى من جديد. ولكنه لم يفعل. بل تقدم منى، وإن يكن على بعد كبير، وصارت أبعاده أضخم. ونظرت بجذلى وجوه الآخرين غير أن أحداً لم ينتبه إليه. وفي تلك اللحظة التى أدركت فيها بوضوح أنى الوحيد الذى كان يستمع لى غثاه الغلب، صعد شام منى تجاهه: شعاع من الحياة لا نهاية له كذلك القادم من صوب الموت. وإنى لا أبتلع تلك التجربة بل أحاول أن أصفها بأقصى قدر من البساطة. كما أنى مقتنع بأنى قد عبرت عن نفسى بأسلوب فزائى جاف. وبالطبع أعلم أن ذلك كان شبيهاً إلى حد ما بحلم يعتقد الحلم فيه أنه يتحدث بوضوح تام بينما تبدو كلماته في صورة مختلطة من الخارج.

ومر وقت طويل كنت في اثنا عشر انفرد بسجع الحدث الذى كان يقرب. كان صوت رفع منى في ارتفاع وبساطة، أشبه ما يكون بالصوت الناجم عن ضرب حافة كوب. إلا أنى قلت لنفسى أن به شيئاً منفصلاً عن الواقع لم يسبق لى سماعه. وكان هذا الصوت موجهاً نحوى، وكنت أنا على اتصال به حتى أنه لم يزلواى أدنى شك فى أن أمراً حاسماً سيحدث. وما من فكرة واحدة طافت بخملى من نوع تلك الأفكار التى ترادى المرء في لحظات وداع الحياة، وإنما كان كل ما أحسست به متجهاً نحو المستقبل. والحق أنى كنت على ثقة تامة من أنى سأشعر بقرى من جسدى منذ أول دقيقة لى بجوار الله. ولعل ذلك ليس بالأمر المين خاصة بالنسبة لإنسان لم يعتقد فى الله منذ عامه الثامن.

فى تلك الأثناء كان الصوت القادم من أعلى قد صار أكثر نجسداً وانتفض مهدداً. هنا سألت نفسى مرات عما إذا كان يجب أن أحذر الآخرين، غير أنى ما أدركت أن أفل، ولو أصبت أو أصيب سواى. وربما اختفى وراء ذلك زهو ملعن يرجع إلى اعتقادي الزاهم بأن شمة صوت يقنى لى من فوق ساحة الوشى. وربما كان الله ليس بأكثر مما زهو به، نحن معشر الطفيليين، فى وجودنا الخفود، من أن لنا قريباً غنياً فى السماء. وعلى أى حال فقد بدأ الزين يتخلل الهواء إلى الآخرين عن يقين. ولاحظت أن بقما من القلق مرت سريعة بسجهم، وانظر - لم تزل كلمة من فم أحدهم! وتطلعت مرة أخرى إلى تلك السحون، فاذ هى لصبيان ما كان أبعدهم عن مثل هذه الأفكار، وقد قفوا - دين علم منهم - كجماعة من التلاميذ الأتقياء تنتظر



اسكار كوكيشكا : إحدى بوابات مدينة مراكش  
Kunstsalon Wolfsburg, Zürich - Walter Dräger, Zürich. كلا الرسامين محفوظ في

وبالرغم من ذلك فكل مرة أذكر فيها تلك التجربة أحس برغبة في أن أعاني شيئا كهذا مرة أخرى بصورة أوضح!

وبالنسبة، لقد عشيتا مرة ثانية وإن يكن بدرجة من الموضوع لا تريد على الأولى - هكذا ابتداء ٢٢ قصته الأخيرة. وبدا عليه أنه ما عاد على ثقته الأولى بنفسه، وإن لوحظ عليه أنه لهذا السبب بالذات كان يتحرق لأن يستمع إلى هذه القصة وهو يروىها لنفسه.

وتدور هذه القصة حول أمه التي لم تحظ سب ٢٢، وإن ادعى هو بأن ذلك غير صحيح. - حيث قال في ذلك: كلانا لم يناسب الآخر من الوجهة السطحية. وإن ذلك لأمريعي في نهاية المطاف إذ عاشت سيده عجزو طيلة عقود في مدينة صغيرة لم يرحبها، بينما لم يحقق ولدها - حسب مداركها - أى نجاح في العالم الواسع. ولقد بذرت في نفسى القلق كما يبيع وجود مرة تحط صورة الناظر فيها بالعرض، لسبب غير معروف بالضبط. وكنت أكدر أى بانطباع عن زيارتها طيلة أعوام وأعوام. ولكنها كانت تكتب إلى كل بضعة شهور رسالة تنضح

رسالة سماوية. وفجأة تحول الغناء إلى نغم أرضى، على بعد عشرة أقدام أو مائة قدم من فوقنا، ثم تبدد. لقد كان موجودا في وسطنا، وبالقرب منى أنا بالذات، وإذ به يكتم وتبلمه الأرض، وفتحت إلى سكن لا علاقة له بالواقع. ودق قلبي في رصاصة وهله، ومن غير المعقول أن أكون قد اضطربت ولو بلحظه من الثانية، فإني انقضت إلى أفق جزيء من زمن حياتي. إلا أن أول ما أدركت بعد ذلك هو أنهم كانوا جميعا ينظرون إلى. وكنت واقفا بدمي في نفس البقعة وإن انتزع جسمي بشدة إلى الجانب وشكل انحناء عميقة على حياة نصف دائرة. وشعرت أني قد استيقظت من غيبوبة، ولم أعلم كم طال زمنها. ولم يادرنى أحد بالحديث، ثم أخيرا قال أحدهم: ربح طائر! وأقبل الجميع يريدين البحث عنه، ولكنه كان قد اخترق الأرض واندفن فيها على مبدلة أمتار عديدة. وفي تلك اللحظة عمري إحساس بمن ساعن، واعتقد أن الحمرة قد تخللت جسدي بأكمله. ولو قال امره أن نمة اتحادا صوفيا بالله قد استولى على ما ضحككت، وإن لم أصدق. فإني اعتقدت أني حملت منه ذرة واحدة.



اسكار كوكيشكا : الشارع المركزى فى مراكش

سرت فيه من قبل، أو حين أرى دارى السابقة فانى أحس - بلا أى أفكار - ألما وثقلها شديدا هل نفسى كما لو كنت قد تذكرت أمرا غريبا. فما حدث فى الماضى إنما يتجرف عندما يتغير الواحد منا، وإنه ليدو لى أنه ما من تبدل يطرأ على الذات إلا ومرجه أن الشخص الذى تركناه ليس بكامل تماما. ولكن لأنى أشعر عادة بذلك فقد كان رائعا أن لاحظ أن إنسانا قد انقطع لى صورة ثابتة مع أنى لازلت حيا، ويبدو أنها كانت صورة لم تطابقنى على الاطلاق، وبرغم ذلك فقد كانت بمعنى معين بمثابة أمر إبداعى وسجلى. أتفهمنى إذا لو قلت أن أى كانت، بهذا المفهوم الاستعارى، ذات طبيعة أسد مأسور داخل الوجود الفعل لأمراة عديدة الآفاق؟ فهى لم تكن حكيمة حسب مفهومنا ولم يكن فى مقدورها أن توسع من مداركها أو أن ترى ما بعد، وهى لم تكن أيضا طيبة معى فى طفولتى إذا ما رجعت بذاكرتى لتلك الحقية، وإنما كانت شديدة عصبية، ولعله فى استطاعتك أن تتصور ما ينجم أحيانا عن اختلاط حرارة الانفعال بضيق الأفق: ولكنى أريد أن أزعم أن هنالك عظمة وشخصية لا تزال غامضة علينا حتى اليوم من خلال

باللهفة على ومحتوى على الكثير من الأسئلة. وإذا كنت لا أجبها على كتابها أيضا، فقد كان هنالك بالرمز من ذلك شيء جد غريب. وبرغم كل ذلك فقد كنت على صلة حميمة بها كما تبين فى النهاية.

ولعله كان قد انطبع فى نفسها منذ عقود طويلة صورة غلام صغير وضعت فيه جل آمالها التى صارت هباء فها بعد، ولما كنت أنا هو ذلك الصبي الذى اختفى منذ مدة طويلة فقد تعلق حبها فى كما لو كانت كل الأجرام والشموس التى سبق أن هبطت من عليائها لا زالت عالقة بين الضوء والظلمة. هنا فى وسعك أن تتغير زهوك الغامض مرة أخرى، الذى هو ليس يزهو على الاطلاق. فالواقع أنى لا أحيد الوقوف عند ذاتى، وإنى لأعجز عن فهم ما يفعله الكثيرون حين يتطلعون بارتياح إلى صورهم الفوتوغرافية وهى تعرضهم فى مراحل حياتهم الماضية، أو حين يتذكرون ما فعلوا هنا وهناك - هذا النظام الشبيه بذكر تغير الذكريات. كما أنى لست بغريب الأطوار أو متقلب الطباع ولا أنا بمن يعيشون للحظهم، ولكن إذا ما مرى شيء فانى أنا أيضا أكون قد مررت بذلك. وحين أذكر أثناء عبورى أحد الطرق أنى طالما

تجسدها في الصورة التي يعرض الإنسان بها نفسه حسب تجاربنا المادية، كما كان الأمر في عصور الأساطير حين كانت الآفة تنمض أشكال الثعابين والأحماك.

بعد قصة الريح الطائر بوقت قصير وقعت أسيرا في روسيا، ثم خبرت هناك بعدلك ما جرى من تغير كبير، ولم أعد بسرعة إذ أصبحت تلك الحياة الجديدة زنا طويلا . ولائلت أصعب بها حتى اليوم، ولكني اكتشفت ذات يوم أنه لم يعد في مقدوري أن أنطق بعض الجمل المقاديرة التي لا سبيل إلى التثني عنها دون أن أنثايب، وهكذا وفرت على نفسي ما يتصل بذلك من خطر على حياتي، بأن أنقذت نفسي بالعودة إلى ألمانيا حيث كانت الفردية في أوج تغفها. ومارست عددا لا بأس به من الأعمال المريبة، بعضها عن فقر والآخر عن استمتاع بالوجود مرة أخرى في بلد قدم يمكن فيه الإتيان بسوء دون أن يضطر المرء إلى أن يشعر بالخزيان. ولم يعد ذلك على بالتغير كما أتى أحيانا ما كنت أعاني من ذلك أشد التناء. كذا لم يكن أبواي على غير ما يرام. فقد كتبت إلى أبي بضعة مرات لتقول لي: ليس في مقدورنا معاونةك، ولكني إذا كنت أستطيع أن أمد لك يد المساعدة بإقليل الذي كنت ستره، فاني لأعني لنفسي الموت. لقد كتبت إلى هذه الكلمات مع أتى لم أزرها منذ سنوات أو أبديت لما أرى بادرة حب. ولابد أن أعترف بأنني لم آخذ هذه العبارة سوى على أنها ضرب من الكلام المغالي فيه، ومن ثم لم أجعل له أية أهمية، برغم عدم شكى في صدق الأحاساس الذي عبر عن ذاته بطريقة عاطفية.

وفكر ٢٢ - لقد ماتت عن مرض لا بد أنها كانت تمحله بين ثنائياها دون أن يدري به إنسان. ففي الامكان أن نسبح على التفاء الكثير من الأمور تفسيرات طبيعية. وإني لأخشى أن تأخذ ذلك على لوم أقبل نفس الشيء. ولكن الأمر العجيب كان هذه المرة أيضا هو الملابس الجانبية. فهي أبدا لم ترد أن تموت. بل أعرف أنها طالما كانت تستنكر الموت المبكر لنفسها وتندب. كما أن عزيمتها الحية وقراراتها الحاسمة وريبتها كانت جميعا موجهه ضد ذلك الحدث. وليس في الامكان القول بأن ثمة قرار شخصي قد عارض إرادتها الراحنة، وإلا لفكرت من قبل في الانتحار أو في اختيار الفقر، وهو الأمر الذي لم يدرى خلدتها بمثل ذرة. فهي قد كانت بلباتها ضحيصة بالمعنى الكامل للكلمة. ولكن لم تلاحظ أبدا أن بلبسك إرادة مغايرة لإرادتك أنت شخصا ؟ لاني لأعتقد أن كل ما يدور بخلدنا في شكل إرادة أو مشاعر وأحاسيس

وأفكار خاصة بنا، يبلو عليها كما لوكانت تسيطر علينا، إنما لا فضل ذلك حقا إلا باسم تفويض محدود، وأنه في حالات المرض الشديد والشقاء، والصراع غير التكتافي وكل تحول حاسم للمصير، يوجد نوع من الجسم الأساسي يتخله الجسم بأجمعه، حيث يتضمن القوة والحقيقة الأخيرة. ومهما كان الأمر من المؤكد أنه تخلف في نفس عن مرض والدني انطباع ما بأنه كان على نحو اختياري خالص. ولو أنك اعتبرت كل شيء بمجرد خيالات لا أكثر، فقد حدث برغم ذلك أتى عندما سمعت نبأ رقاد والدتي في فراش المرض طرا على تغير كامل وبطريقة واضحة للبيان، مع أنه لم يكن هنالك إطلاقا ما يدعوا للقلق عليها: ففي اللحظة نفسها ذابت الصلابة التي كانت تحيط بي، وليس في مقدوري أن أقول أكثر من أن الوضع الذي وجدت فيه منذ تلك اللحظة كان يشبه كثيرا يقطي في تلك الليلة التي غادرت أثناءها دارى، وتجربة انتظار الريح المغنى وهوساقت من عل. وأردت أن أرحل لتوى إلى أبي، ولكنها اختلقت مختلف المبررات لتبقى بعيدا عنها. وأنشأها بعدد محاللاتي المتكررة اللحوسة بحث إلى بقولها أن التطور الإيجابي الحاسم في سبيله إليها وأنه على أن أصبر بعض الشيء فقط. ويدو أنها كانت تخشى أن تأرجع لواقعيتها فصصمت الأمر بسرعة حتى أتى لم ألبها إلا وهي في طريقها للدفن ..

وجدت كذلك والدى مريضا. وكما أخبرتك لم ألبث أن رأيته وهو مختصر. وكان في السابق رجلا طيبا أما في تلك الأسابيع التي سبقت وفاته فكان مقبل الأطوار على نحو عجيب، كما لوكان لم يفس الكثير من سبباني، ففضلت عن أنه كما لوكان في وجودي إزعاجا له. وبعد وفاته كان على أن أحل شئون الدار، واستغرق ذلك بضعة أسابيع، غير أني لم أكن في عجلة. وأقدم أهل المدينة الصغيرة من هنا وهناك على عاديهم، وراحوا يقصروا على في أى الأماكن من غرفة الجلوس كان يجلس والدى، وأين كانت تجلس والدي ويتخلون هم أكلهم. وعلمنا كنت أستفرد بنفسى كنت أجلس في هدوء وأطالع كتب الأطفال. فقد وجدت منها ما كان يملأ زكية كبيرة موضوعة فوق السطح. وكان بعض تلك الكتب مريبيا ومهيبا، وإلى حد ما جافا أو مشيعا بالروية، وإذا ما قرعها خرجت منها سحب داكنة السواد بلا توقف، وكذا كان الورق الموسم بخطوط الماء قد اختفى من الكتب الكارتونية ولم يخلف وراءه سوى مجاميع من الجزر المتعرجة الحواف. ولكني حين كنت أنغلغل في الجوانب كنت

الذي كان يشبه منديلا صوفيا أبيض، طائر أسود في شباك مفتوح! جلس هناك كما أنا جالس هنا.  
وقال لي: أنا شحروك، ألا تعرفي؟

ولم أستطع أن أتذكر لتوي، ولكني شعرت بسعادة تغمرني بينما كان الطائر يتحدث لي.  
واستأنف حديثه قائلا: وعلى حافة هذه النافذة سبق لي أن وقفت. ألا تذكر؟ عندئذ أجبت: «نعم، لقد وقفت أحد الأيام في مكانك الآن، وعندئذ أغلقت النافذة بسرعة»  
وهنا قال لي: «وأنا أمك».

ولعله كان حلما - كل ذلك. ولكن الطائر لم يأتي في حلم. فقد وقفت في مكانه وطار داخل الغرفة ثم أسرع بقلبي النافذة. وذهبت إلى السطح أبحث عن قصص كنت أذكره، فقد سبق للشحور أن كان عندي وأنا طفل. تماما كما قلت الآن. كان جالسا على حافة النافذة ثم طار داخل الغرفة، واستخدمت قصصا، ولكن سرعان ما صار الشحور أنيسا وديما، ولم أسكه بل عاش في حجرتي طليقا، وكان يطير بها وإليها. وفي ذات يوم لم يعد، ثم إذ به يعود من جديد. ولم يعد لي رغبة في التفكير وأرقام النفس عما إذا كان هذا الشحور هو نفسه الذي يعود دائما. ووجدت القفص زكية أخرى فوقه مليئة بالكتب. وفي استطاعتي أن أقول لك أنني ما كنت في حياتي إنسانا طيبا كما صرت منذ ذلك اليوم الذي ملكت فيه الشحور. ولكنني في الغالب قد لا أستطيع أن أصف لك ما هو الانسان الطيب.

وسأله ١٢: بمكر: وهل تحدث إليك بعد ذلك كثيرا؟ فأجابته ٢: أبدا، لم تعد تتكلم. ولكني أحضرت لها طعاما ودينان. لقد كان من الصعب بعض الشيء أنها تأكل الديدان، وكان علي أن أحافظ عليها كما هي - ولكني أقول لك أن كل شيء يمر، فما هو إلا عادة، وكيف لا يتعد المرء على الأمور اليومية! ومن ذلك الوقت لم أبرح الشحور. وأستطيع أن أضيف لمعلوماتك بأن هذه هي القصة الثالثة، أما كيف سنبتني فلا أدري.  
«ولكنك تلمح لي أن لكل ذلك معنى مشتركا؟» هكذا حاول ١٢ أن يتأكد في حلر.

وناقضه ٢: «يا لسماء! لقد حدث كل شيء على تلك الوثيرة، ولوعرت ذلك المعنى لما كنت بحاجة لأن أقص عليك كل ذلك. ولكنه كما لو كنت تستمع إلى همس أو مجرد خفيف دين أن تستطيع أن تمييزه!»  
ترجمة: مجدي يوسف

أسيطر على المضمون كبحار بين تلك المخاطر. وفي ذات مرة تكشف لي أمر غريب. فقد لاحظت أن السواد في المنطقة العليا حيث تقلب منها الأوراق، وعند الحافة السفلى من الكتب مختلفا بطريقة خافتة الوضوح تخضع لما فعلت بها أحوال الطقس. ثم عثرت على قدرلا بأس به من البقع التي لا معنى لها، وأخيرا على آثار متدفئة بقلم رصاص باهت على الصفحات الأولى. ودفعة واحدة سيطر على إحساس باني قد عرفت أن ذلك الاستعمال والاستهلاك الشديد، وشحيطات القلم الرصاص والبقع المتخلفة في سرعة، ليست إلا آثار أصابع طفل، هو أنا، وها هي محفوظة لمدة ثلاثين عاما أو أكثر في زكية على السطح، وقد نسيت تماما! - وقد سبق أن قلت لك أنه ربما كان لا يضير غيري أن يتذكروا أنفسهم، أما بالنسبة لي فكان الأمر كما لو كنت قليت أسفل الأشياء إلى أعلاها. ووجدت مرة أخرى غرفة كانت حجرتي وأنا طفل منذ ثلاثين سنة أو أكثر، وكانت تستعمل فيها بعد لخزان الخسيل وما شابه ذلك، وإن كانت قد خففت على تربيها الأصيل حيث كنت أجلس إلى المائدة تحت مصباح الغاز الذي كان يحمل سلسلته ثلاثين دلافير بهمهم. وهنا جلست ساعات عديدة كل يوم ورسحت أفرا كقطفل لا تبلغ قدماء أرض الغرفة من مقدمه بعد. فلنتظر إلى رومنا كيف أنها لا تقف عند حد أو تصطبغ بشيء فوقها، إننا قد اعتدنا ذلك فتحت أقدامنا شيء ثابت. أما الطفل فنجدته يديه الناعمتين الرخوتين جالسا أمام كتاب، كما لو كان يمر صحيفة عبر أنقاض الغرفة. وإلى الأوكيد لك أنني لم أعد أبلغ الأرض من تحت المائدة.

وضعت لنفسي في تلك الغرفة عنيدا ونمت فيه. هنا عاد الشحور من جديد. في ذات مرة أبغضني في منتصف الليل تفريد راتع. ولم أنهض لتوي من الفراش وإنما استمعت إليه طويلا لأول وهلة وأنا نائم. وكان تفريد بلبل، وإن لم يكن جالسا في أحراش الحديقة بل وقف على سطح دار مجاورة. وبدأت أمام بعينين مفتوحتين، بينما خطرتي: لا وجود هنا للبلابل، لا بد أنه شحور.

ولا داعي لأن تصديق باني قد خبرت هذا اليوم مرة واحدة! وإنما كما دار بملدى: لا وجود هنا للبلابل، إنه شحور. وأفتت، وكانت الساعة الرابعة صباحا، وقد عاد النهار إلى عياني وهبط النوم مرصعا كآثر موجة مياه مصتها رمال شاطئه جافة، وهناك كان يجلس أمام الضوء



# البنفسجات الثلاثة

محمد الفيتوري

Muhammad al-Faituri: Die drei Veilchen

Wenn plötzlich Rubine sich ergössen,  
O meine schwarze Fürstin,  
Wenn das Schweigen in Brand geriete,  
Wenn die Mauern der Häuser sich krümmten,  
Wenn du einem Dichter sterben sähest,  
Sein toter Leib hingestreckte,  
Sein Herz eine geschlachtete Taube,  
Sein Blut ein roter Mantel auf den Erdboden gebreitet,  
An dem die Raben und die buckligen Schildkröten picken,  
Was würdest du dann tun,  
Was würdest du tun?  
Du würdest weinen!  
Du würdest den Hochzeitsputz von dir reißen  
Und das Kleid der Trauer anlegen  
Und Totenklage halten,  
Und vielleicht würdest du Rache speien gegen den Folterer,  
Weil er die Brust deines Dichters zerriss,  
Die Brust deines Mannes zerriss,  
Vielleicht auch würdest du daran denken, wie seine  
Augen aussahen,  
Und schluchzen, o meine Fürstin,  
Aber wie lange?

Der erste deiner Liebhaber kam, nachdem ich  
dahingegangen war,  
Ich sah ihn auf meinem Grabe gehen, doch ich lächelte.  
Ich riss meinen Mund auf,  
Während seine Hand in deiner Hand ruhte.  
Dann lieft ihr beide laut lachend  
Und eilend davon.  
O mein Gott!  
Sei doch behutsam!  
Dies sind die Überreste meines Leibes.

لو فجأة تدفق الياقوت  
يا اميرتى السوداء  
لو تضمم السكوت  
لو تخرجت حوايط البيوت  
لو رأيت شاعرا يموت  
جثته طريحة  
وقلبه حمامة ذبيحة  
ودمه على الترى عبالة حراء  
تنقرها الغربان والسلاحف الحدياء  
فما الذى كنت ستصنعين  
ما الذى كنت ستصنعين؟  
تبيكين...!  
تنزعين زينة العروس  
وتلبسين زينة الحداد  
وتندبين  
وربما بصفت نعمة على الجلال  
لانه مزق صدر شاعرك  
مزق صدر رجلك  
وربما ستذكرين مقتلته كيف كانتا  
وتشهقين يا اميرتى  
لكن الى متى؟

اول عشاقك جاء بعدما ذهبت  
رأيتك يمشى على قبري فابتسمت  
فغرت فاهي  
يده تنام في يديك  
ثم مضيتا تفهقهما  
وتركضتا  
يا الهى  
اتندى  
هذا رفات جسدى



رودولف كوجلر : انطباعات من مصر (لوحة بالألوان المائية)  
Rudolf Kögler: Ägyptische Impressionen.

*Alle Überreste meines Leibes bereiten mir Qual.  
Es sind erblüht die schwarzen Veilchen in meiner Hand:  
Die Unfruchtbarkeit, die Finsternis und der Frost.  
Die Stämme der Bäume mögen hingestreck't liegen!  
Wahrlich diese Gräber bergen in sich  
Einen Reisenden auf einem Zug, der nicht zurückkehren  
wird.*

*Wehe . . . , o meine traurige Fürstin,  
Über unsere Kraftlosigkeit,  
Die wir nur Bilder irdischer Zier sind,  
Blumentöpfe . . . Dekorationen,  
Eine Wanduhr an der Fassade der Stadt.*

*Der Anfang der Geschichte ist Leiden,  
Das Ende der Geschichte ist Leiden.  
Lüge ist die Geschichte,  
Lüge ist das Leiden . . .*

(Aus dem Arabischen übertragen von Hans Wehr)

يوجعني كل رفات جسدي  
ازهرت البنفسجات السود في يدي  
العقم والظلام والصقيع  
فلتتمدد الجذوع  
ان وراء هذه اللحد  
مسافرا على قطار لن يعود  
اواه . . . يا أميري الحزينة  
لضممتنا . . نحن رسوم الزينة  
الأصص . . الخراف  
الساعة في واجهة المدينة

بداية الرواية الألم  
خاتمة الرواية الألم  
اكلوبة هي الرواية  
اكلوبة هو الألم

## شاعرية الفيتوري من بنسجاته

يحدثنا الشاعر في قصيدته «البنسجات الثلاث» عن مأساة خلق عليها صورة أسطورة رزية، ومزج فيها الحلم بالواقع. وليس الغرض من هذه السطور هو تحليل هذه القصيدة بالتفصيل .. وإنما تحفيز القارئ على فهم ما وراء رموزها ..

نلاحظ هنا أن اللون الأسود — رمز المأساة — هولن البشع والأميرة في نفس الوقت. والمرجح أن يكون الأصل المختف وراء هذه الغلالة الاستعارية الرائعة هو بشرة الشاعر التي نعلم عنها أنها داكنة السمرة، وأنها كانت من العوامل الأساسية في تشكيل شاعرية الفيتوري وتوجيهها .. (راجع مقالة تجرّبي مع الشعر إلى صدر بها محمد الفيتوري ديوانه الأخير وأذكرني يا أقرئتيه). يبلغ الشاعر قمة الروعة التي تجمع الشعر والفلسفة في بوقته واحدة حين يقول :

أواه .. يا أميرتي الحزينة  
لنصفنا .. نحن رسوم الزينة  
الأصمى .. الرخايف  
الساعة في واجهة المدينة.

فهنا تكثيف لمأساة الواقع الانساني يدكرنا بتشاؤم سائر من يحول «الذات الواعية» إلى «موضوع». وهو على أى حال موقف تعدم فيه حرية الذات ويشعل فيه الموت الوجودي. نتفاجأ في البيت الأخيرين له القصيدة بالشاعر منكرا للرواية والألم .. الألم الذي تترقب له أفدنتنا طوال القصيدة ! ولكن هذا اللامعقول هو النافذة الوحيدة التي يقفز منها الشاعر قبل أن يهبط به سفينة المأساة الغريقة إلى قاع الموت .. وهذه النافذة هي الاستعلاء على الألم ..

من أسباب الروعة الجمالية في بناء هذه القصيدة أن الشاعر يجمع دائما بين المتناقضات في جملة يبرز منها الرزق وتجنس فيها التجربة الفنية، فاليقوت مثلا لا يتلفح ولكنه هنا في حالته الصلبة ولونه الأحمر ونفاسته يرمز إلى الدم الزكي المنهال .. إلا أن هذه الحركة الديالكتيكية نفسها على حيويها ودنيايتها قد أدت بالشاعر إلى زلل شكل في البيت الذي يقول فيه :

تقرها الغربان والسلاحف الحدياء

فالسلاحف لا تتقر (1) وإنما الذي جعلها تتقر في الغالب

هو ارتباط القافية في «الحدياء» بقافية البيت الذي قبله في «حماره». ثم أيضا جمال التناقص بين صوريّ الغربان والسلاحف وهما قائمتين بنفس الفعل .. إذن فأسباب الزلل الشكلي هنا ترجع إلى انحصار المضمون تحت ضغط الاطار الخارجى والبناء الداخلى للقصيدة. والملاحظ أن هذا الانحصار في المضمون سمة عامة في كافة الأعمال الفنية والشعرية الراجدية حتى لو لم يؤد إلى أعطاء شكلية. فهما تعددت صور القصيدة أو العمل الفني وهما تعددت رموزها ووسائلها التعبيرية فهي تنحصر وتنحصر حتى تبلغ في النهاية شيئا واحدا هو آخر نقطة في كوز الانحصار وهو ألم الشاعر من هول الخطب، أى الاحساس بالثاق الذي يعذب الفنان كفرد. من هنا نستطيع أيضا أن نفهم لماذا كان يرفض برتولد برشت الشعر الراجدى والحماس الاضغالي في العمل الفني بصفة عامة .. فهو قد قلب الكوز التقليدى لشعر المأساة رأسا على عقب وأصبح المرء كلما تعمق القصيدة بمفتاح الديالكتيكا الميجالية كلما افتتح أمامه عالم من الأفكار لا نهاية له. ولكن برشت عاش في القرن العشرين وكتب بليل عصر العلم. عصر التشكك المبهج لا الانفعال. أما الفيتوري فتتلذذ على بودلير واتخذ رائدا روحيا له، حيث يقول في مذكراته : «لقد صرّحت اليوم على شاعر فرنسي، اسمه بودلير، طاش له صولافى .. قدرته غير عادية على خلق الصور، وتجسيد الرموز، وتكثيف الحقائق والأوضاع اللامتناصفة فنيا .. لأنه ينفذ إلى ما وراء الأشكال والمظاهر .. الأروع من ذلك أنه كان يحب جارية سوداء اسمها جان ديثال .. شاعر أبيض يحطم الفوارق بطريقته الخاصة .. سيان كان من أجل الجسد أو من أجل الشعر .. إن شارك بودلير يقرب منى أكثر فأكثر ، كلما تغلغل في ديوانه أزهار الشر .. اننى أنسى إلى بودلير بصلة ما ..» وبودلير شاعر رومانسي عظيم ولكنه عاش في القرن التاسع عشر ..

تأثر الفيتوري ببساطة ت. إس. إليوت في التعبير الشعري كما استفاد من شعراء المهجر وبخاصة أبي شبكة وغيرهم من رواد الشعر المعاصر في العالم كله ابتداء من ناظم حكمت حتى بابلو نيرودا ولونغولو. وهو لذلك ظاهرة أدبية وشعرية معاصرة في العالم العربي تستحق كل اهتمام ودراسة ليس فقط على مستوى البلاد العربية ..

مجدى يوسف

# عبر الحدود

ملاحظات حول لوحة الرسام الباكستاني «زيرى»

التقينا أثناء زيارتنا لمدينة حيدرآباد في الباكستان رسام شاب يدعى «زيرى» وكان معلما للفنون الجميلة في المكتبة العامة بحيدرآباد وهي مكتبة تقوم على تربية الصبية على حب التقاليد الثقافية السندية، فضلا عن نشر وتعليم الفنون الشعبية. وكان لهذا الرسام بعض اللوحات التي تعكس الروح الأدبية السندية على أروع صورة ..

ومن المعلوم ان بلاد الهند كانت أول منطقة في الهند فتحها العرب في عام ٧١١ تحت قيادة محمد بن القاسم، ولما تزل حتى الآن تستأثر بالتقاليد والفنون العربية (في موسيقاها مثلا)، وهي في الوقت نفسه تعد موطنًا لكبار المنصوفين والشعراء. وتشجع في هذا الإقليم، الذي يشكل واحداً من أهم بقاع الباكستان الغربية، كثرة من الروايات الشعبية، التي عالجها المنصوفون بدورهم مفسرين إياها حسب نظراتهم. وكان البطل الحقيقي في كل هذه الروايات إما فتاة أو امرأة تحب محبوبها لأقصى درجة بينما هو يغيث عنها أو يفترق عنهما الصبح والأقارب، وتلث الفتاة المسكينة بحثاً عنه حتى تودي بحياتها من أجله وتصبح بذلك مثالا حيا لقول الصوفيين : «من مات في سبيل العشق فقد مات شهيدا».

فهذه «سهي» تسبح كل ليلة حتى الجزيرة التي يسكنها معشوقها إلى أن تموت فرقا، وتلك «سهي» التي عشقت أميراً من البلوج، فحضر أخوته ذات ليلة ليخطفوه من بين أحضانها وهي نائمة، وفي الصباح بحث عنه وتعقبته في الصحاري والجبال على نحو ما طلب مجنون ليلي معشوقته، وفي النهاية تموت وسط رمال الصحراء تحت حرارة الشمس القبطاء ... وها هي «مروى» التي خطفها أمير عظيم من وطنها بل ومن بين أصدقائها الرعاة، فتشتاق إليهم إلى أن يرق لطلبها قلب الأمير ... وهناك كثير من النساء اللاتي تحرقن شوقاً إلى أحبائهن، وكل منهن قد صارت رمزا للروح الإنسانية التي تشتاق إلى الله، إلى المحبوب السرمدي ... وأصبحت نساء هذه الروايات البسيطة أمثلة للعشق المطلق الذي لا يتحقق إلا بالقران والموت والاستشهاد.

ولعلنا لا نلوجهاا لتعرف على أثر التقاليد على لوحات هذا الرسام الشاب ... فما تلك الفتاة الحزينة إلا نموذج لأولئك الفتيات والنساء اللاتي أبدع شعراء السند القدماء والمحدثين على السواء في وصفهن. وكأننا نقرأ على شفى هذه الفتاة كلمات «سهي» الغريقة :

في عياب الميعوب الفطير ترتع تماسيح مهولة ،  
في الهرتينات مهيبه لا حصر لها ..  
وفي جسدي ما وجدت قوى ، بعيدة عنك ، يا رفيق !  
يا اميري ، يا مدي ، أوصلي إلى مقصدي ، يا كريم !

اونسمع شكوى «سهي» وقد نجح عليها اليأس :

لو كنت أحسست بأن فراقك سيصينني يوما ما  
لنست ما نخط القضاء عن اللوح الأزلي ،  
ولما أحسست الآن بالآلام على طريق اللانهاي !

هذا الصوت هو صوت المرأة المشتاقة الذى وصفه الشاعر السندى الكبير شاه عبد اللطيف (المتوفى عام ١٧٥٢) قائلا:

يا صوت فى الصحارى، كأنه صوت الوقوق  
حنين الحسرة، هوأمة العشق...

يا صوت فى الصحارى، كأنه صوت إوزة برية  
صيحة من أعماق المياه — هى أمة العشق.

هذا غناء العشق نفسه — ولكن الناس ظنوه غناء امرأة ...

او نصفى الى كلام «مروى» الأسيرة فى قصر الأمير حين تقول :

ضبيعت جمالى، واعتلاني القنار  
كيف أذهب الى حيث لا يأتى سوى الجميل؟  
ضبيعت حسنى وبهاءه الرائع  
فى قلبي دخان البلاء — ووجهي علاه المهابا

هكذا تشكو الروح التى عفرتها حوادث الدنيا بترابها الآسن، وهكذا تشنق الى الوطن الأزل الأبدي، وتنتظر يوم الرصال،  
يوم الموت الذى هو «قنطرة توصل الحبيب بالمحبوب».

(نرى الأشار السنية مأخوذة من «شاه جورال» لى ديوان شاه عبد اللطيف البتائي)

*In der furchtbaren Flut des Flusses die mächtigen Krokodile,  
Gewaltige Alligatoren im Strome, unzählbar viele,  
Ich finde im Leib keine Kraft mehr, getrennt von dir, o Gespiels!  
Fürst, Helfer, — zum Reiseziele  
laß mich, o Edler, gelangen!*

*Hätt' ich doch ahnend gefühlt, daß einst die Trennung mich trübe,  
Hätt ich die Schrift des Geschicks von we'reger Tafel gespült,  
Hätte dann wohl nicht gefühlt  
Leiden auf endlosem Pfad!*

*O Stimme in der Steppe: als ob der Kuckuck schreit,  
Ein Jammerlied und Leid — es ist der Liebe Ach.*

*O Stimme in der Steppe: als sei's das Sittich's Sagen!  
Es ist der Sehnsucht Klagen — es ist der Liebe Ach.*

*O Stimme in der Steppe, als ob die Wildgans rief —  
Schrei aus der Wassertiefe — es ist der Liebe Ach.*

*O Stimme in der Steppe, wie einer Geige Klang:  
Das ist der Liebe Sang — das Volk nur hielt's für Weibes Lied.*

*Verloren hab ich die Schönheit, bin schmutzig anzusehen —  
Wie kann ich dorthin gehen, wohin nie ein Unschöner kommt?*

*Verloren hab ich die Schönheit, die Lieblichkeit lichten Strahl —  
Im Herzen der Qualm der Qual — so ward mein Antlitz beschmutzt.*

*Verloren hab ich die Schönheit — wo ging die Vollkommenheit hin?  
Wie kann ich nach Hause gelangen, so elend wie ich bin?  
Wer gibt mir der Schönheit Gewinn, damit ich die Hürten erblicke?*



لوحه دفتاء مستقيم لاختر زيرى ، حيدرآباد (پاکستان)

قال كشاجم يصف اصطرابا

BESCHREIBUNG EINES ASTROLABS VON KUŠĀĠIM

Ein Vollmondrunder, aber flach von Seiten,  
wo in Quadranten sich die Zeichen breiten;  
Ein starrer Kreis, geschmeidig durch den Stift,  
Abbild des scharfen Auges der Gescheiten.  
Nur spannenbreit, umspannen seine Scheiben  
die Klimata im Glanze ihrer Breiten —  
Als würden da die sieben Himmelsphären  
um Feuer, Wasser, Luft und Land sich spreiten.  
Den Stern, der in sein Haus steigt, zeigt er an:  
der Sonne Stand und der Planeten Gleiten.  
Ob Stunden oder Teile von Sekunden  
verstrichen, du erfährst es durch sein Leiten;  
Denn er bereinigt richtig jeden Zweifel  
am Maß, das er bemißt, für deine Zeiten.  
Er scheidet die Aspekte der Gestirne,  
die Unheil, und die Vorteil uns bedeuten.  
Am Rücken trägt zwei weisse Augen er,  
von Licht erfüllt, das sie im All erbeuten.  
Ja, seiner Zeichen Kreise eignen Sprüche,  
die den Verstand zur Fruchtbarkeit geleiten.  
Doch haben nur das Wissen, das er birgt,  
die Klugen, scharfen Geistes, Spürbereiten,  
Bis sie — du siehst's — den Grund, der sich verbarg  
vor jedermann, aus seiner Gruft befreien.  
—: Produkt der Zeit, das Denken. Ihn erschuf  
verständ'gen Strins bedächtig-sich' res Schreiben.

Deutsch von Christoph Bürgel

هذا الشعر مأخوذ من ابن رشيقي، صفة، طبع القاهرة ١٣٢٥، ج ٢ ص ٢١٩؛ ويوجد أيضا في طبعة هذا الكتاب التي أصدرها محمد يحيى الدين عبد الحيد بالقاهرة ١٩١٢ ج ٢ ص ٢٩٨.

قال الأماوني يصف اصطرابا

AL-MA'MUNĪ ÜBER DEN ASTROLAB:

Der Sonne gleicht er; unter ihren Blicken  
entwendet ihre Kunde er verhält.  
und kundiger als sie — ob gleich auf Erden —  
ist das er, was das Himmelsrund erfüllt.

Des Verborg'nen ist er kundig  
ohne Aug' und Herz und Hören,  
läßt vom Licht der Sonne immer  
neuer Dinge sich belehren.  
Schauend scheint sie seine Brazen  
mit Gedanken zu beschweren;  
Ja, sie gab ihm ein das Wissen  
aus der Brust bewegter Sphären.

Deutsch von Christoph Bürgel

هذا الشعر مأخوذ من يثية المعري، وقد ألت مترجما كتابا قريبا في شعر الأماوني:  
Die ekphrasischen Epigramme des Abū Ṭālib al-Ma'mūnī, Göttingen 1966.



اصطراب، مصنوع من البرنز، موطنه ايران، عام ١٣٢٤ هـ / ١٧١٢ م. من عمل عبد الأئمة بامر حاجي اسميل بيك. وهو محفوظ في متحف تاريخ العلوم الطبيعية بمدينة أوكسفورد.  
من كتاب :

Henri Michel: Messen über Zeit und Raum. Messinstrumente aus 5 Jahrhunderten. Bearbeitung der deutschen Ausgabe von Paul Adolf Kirchvogel. 106 Farbtafeln und 25 Zeichnungen. Chr. Belser Verlag, Stuttgart 1965. Französische Ausgabe: Albert de Vischer, Éditeur, Bruxelles.



# تاريخ

المؤتمر الدولي الأول لعلوم الدراسات الإيرانية في طهران من ٣١ - ٨ إلى ٧ - ٩ - ١٩٦٦

لأول مرة اجتمع تحت رعاية جلاله الشاه محمد بهلوي ما يقارب المائتي عالم بالشئون الإيرانية من جميع العالم كان بينهم ١٢٥ عالماً من خارج إيران. وكان البلاط الامبراطوري والمكتبة البهلوية التي انشئت لأبحاث التاريخ الايراني قد وجها دعوة ضيفة لجميع العلماء الذين اشتغلوا بالقضايا الإيرانية. وهكذا فقد اجتمع علماء من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي والمغرب والهند وتونس وتركيا وألمانيا وفرنسا وإنجلترا والباكستان وبولونيا وإيطاليا وتشيكوسلوفاكيا وسوريا وغيرها من الدول الكثيرة للتحادث طيلة اسبوع في أحدث نتائج أبحاثهم. والقيمت اثناء ذلك محاضرات في تاريخ إيران وتاريخها الحضاري والكتابة الفارسية القديمة والرسوم الفارسية المنمنمة في العهد الاسلامي، كما تناولت محاضرات اخرى قضايا فلسفية ودينية ككتابات الاسماعيليه والمساهمة الفارسية في الطب الاسلامي وغير ذلك من الموضوعات، وعابجت اخرى قضايا الادب الفارسي الحديث. وكانت الأقسام المختلفة تجتمع كل صباح، وقرئت في نهاية المؤتمر القرارات الختامية لكل قسم لغرض مواصلة العمل عليها.

وكان المؤتمر كما ذكرنا تحت رعاية جلاله الشاه الذي ألقى بنفسه كلمة الافتتاح وخطب جميع المشاركين شخصياً أثناء حفلة استقبال في حديقة قصره بكلمات ودية رقيقة. وأتيح لأعضاء المؤتمر فرصة زيارة أهم متاحف ومكتبات طهران؛ كما استمعوا إلى الموسيقى الفارسية وشاهدوا الرقصات الإيرانية الشعبية وغير ذلك من خصائص البلاد، وقدمت لهم بسخاء أحدث منشورات المعاهد العلمية المختلفة ومولفاتها القيمة. وفي نهاية المؤتمر نظمت للأعضاء جولة ختامية إلى اصفهان وشيراز وبيروزبوليس مكنتهم من إلقاء نظرة سريعة على أهم الأماكن التاريخية.

ولاشك أن رئيس الوزراء الإيراني كان محمداً عندما أولى هذا المؤتمر دور عامل من عوامل التفاهم بين الشرق والغرب. إذ أن كل من لمس الضيافة الحارة والتنظيم الممتاز للمؤتمر سيحمل معه أجمل الذكريات عن إيران؛ ووفق ذلك كان من المهم جداً أن تناح الفرصة للمستشرقين الأوروبيين والأمريكيين للتعرف عن كتب على الأبحاث العلمية لزملائهم الإيرانيين ولتبادل وجهات النظر معهم. إن مثل هذه الالتفاتات البشرية من أفضل السبل لخلق تفاهم صحيح بين شعوب الشرق والغرب. وانا لاعتبر مؤتمر طهران سابقة طيبة للتعارف الذي يزداد وثوقاً بين العالم الإسلامي والعالم الأوروبي-الأمريكي.

اسم كل من ابن طابري في الخط الكوفي الشريفي.

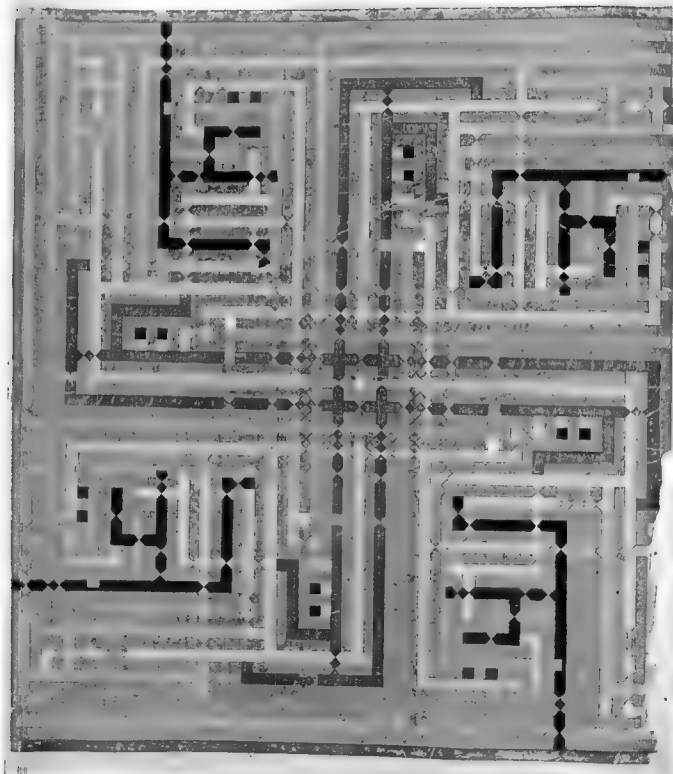
عن خطبة دوت في القرن الخامس عشر ورجع مرجعها إلى آسيا الوسطى، غالباً مدينة ميرقند، وهي معروفة الآن في موزة تورب قاهر سراي في استانبول، خزينة ٢١٥٢، ورق ٧ 9.

وقد شبه الأستاذ وشارد إيتجهونز في مقاله عن الفنون الجميلة في تركيا هذه القوسه بلوحات الرصاص المعاصرة هيت مونديان أحد اساتذة الرسم الحديث في أوروبا (الشرق عام ١٩٤٤).

عن كتاب :

E. Akurgal, C. Mango and R. Ettinghausen: Die Türkei und ihre Kunstschätze. Édition d'Art, Albert Skira, Genève, 1966.

شكر ادارة موزة تورب قاهر سراي في استانبول لتصريحها لنا بنشر هذه القوسه، ونقدم الشكر الجزيل لدار نشر سكيرا التي أعادت لك كليشه القوسه.



# INTRODV CTIO IN LIN GVAM ARABICAM

Scripta

M. Bartholomæo Rademanno  
Academæ Francofurtanæ Pro-  
fessore publico.



FRANCOFVRTI  
Typo exscriptis Andreas Richter.  
Anno ultimi temporis  
1610 10 1746.

Prima itaq. ex	أ ب ج د ه و ز ح ط ي
Secunda ex	ح ط ي
Tertia ex	ح ط ي
Quarta ex	ح ط ي
Quinta ex	ح ط ي
Sexta ex	ح ط ي
Septima ex	ح ط ي
Octava ex	ح ط ي
Nona ex	ح ط ي
Decima ex	ح ط ي
Vndecima ex	ح ط ي
Duodecima ex	ح ط ي
Decima tertia ex	ح ط ي
Decima quarta ex	ح ط ي
Decima quinta ex	ح ط ي

Constat

REGVLÆ.

1 In connexione literarum initialis semper fit minor, nec tamen lata de reliquis, de Bes

2 Deinde finalis semper plenè et integrè scribitur.

DE DIVISIONE LITERARUM

nam secundum potestatem,

Ratione potestatis, literæ diuiduntur in cognatas et non cognatas.

DE

صهبتان من كتاب النحو العربي الذي ألفه بارتولوميو رادمان، وكان هذا العالم أستاذ اللغة العبرية وبعد ذلك استاد اللاهوت في جامعة فرانكفورت على الأيدر، وقد توفي عام ١٦٠٠. وصفت رادمان هذا الكتاب سنة ١٥٩٢ مستعينا بكتاب النحو العربي لليلهم إيستل (المتوفى ١٥٨١) وكتاب النحو العربي المروف بـ Alphabetum Arabicum cum isagoge scribendi legendique Arabice المؤلفه يعقوب كريستيان (١٥٥٤ - ١٦١٣) الذي دونه سنة ١٥٨٢؛ وكان كريستيان هذا أول عالم اقترح تأسيس كرسي للدراسة العربية في جامعة هايدلبرج، وصار هناك أول استاد للغة العربية عام ١٦٠٩. اما رادمان فأضاف الى محتربات الكتابين المذكورين بعض المعلومات التي اخذها عن أحد الأتراك كان اسير الحرب في المجر ثم جاء الى براندنبورج حيث تنصرت وسمى «يولي فليشر». وصور رادمان الحروف العربية ثم جعل لها أحد المتخصصين في الطباعة نماذج عشوائية. (نشكر الأستاذ يوهان فوك في منية هاله لتكرمه بالاعتناء بهذه المطبوعات).

# طلائع الكتب

Wilfrid Madelung: *Der Imam al-Qasim Ibrahim*. W. de Gruyter Verlag, Berlin 1966.

يعتبر معهد الأبحاث الشرقية في جامعة هامبورج منذ أعوام عديدة مركزاً لدراسة الحركة الزيدية. فبذ أن نشر الأستاذ رودلف شترتمان Rudolf Strothmann، مقالته الأولى حول الزيدية كرس هذا العالم حياته لدراسة هذا الاتجاه الشيعي في الإسلام، بحيث أن عمل مادولنج Madelung الذي بين أيدينا الآن ما هو إلا تعميق لأبحاث شترتمان ومتابعة لها بمفهومه.

لقد اعتبر شترتمان القاسم بن إبراهيم المؤلف الأول للكتب والرسائل الزيدية عن وعي. فقد ظهر القاسم، بصفته سليل نسل على بن أبي طالب، كامام وعالم. ليشكل من الفئات الزيدية المختلفة حركة موحدة. وبما عرقل تعاليم القاسم عما ينتظر لها من تأثير سيطرة مذهب الناصر الأطروش في الدولة الزيدية الشيالية في طبرستان، بينما تمكن الهادي، حفيد القاسم، من نشر تعاليم جده في اليمن. ويتابع مادولنج دراسة الحركة حتى نهاية القرن الثالث عشر، عندما تشتت زيدية الشمال وأصبحت زيدية اليمن تمثل وحدة هذه الحركة.

وبحاول المؤلف رسم صورة لشخصية زيد كما ظهرت في التيارات الدينية والسياسية لعصره. وهناك أهمية خاصة لبحثه أمر العلاقة بين الزيدية والمعتزلة، فقد تعمق مادولنج في دراسة تعاليم المعتزلة الأولين وخاصة واصل بن عطاء، وتوصل في ذلك إلى نتائج مهمة، كما أنه أكد على الرابطة القوية التي كانت تجمع بين جماعة المعتزلة والعباسيين، حتى قبل تسلمهم زمام الحكم. وهو يقارن تعاليم المعتزلة المذهبية بالمعتزلة الزيدية المبكرة التي انقسمت كذلك إلى عدة اتجاهات. ويعتمد المؤلف في ذلك على كتاب مجموع الفتاوى لآبي خالد الواسطي الجارودي الذي نقل كذلك تفسير زيد للقرآن. ويظهر الكتابان معالم واضحة للجبر، أي الإيمان بعدم حرية الاختيار. وإلى جانب اللهجة المعادية للشيعة، إلا حرية الاختيار، التي تم عنها كتب أوائل الزيدية، فإنا نجد فيها كذلك هجومًا على المرجئة. ويظهر مادولنج بالإشارة الدقيقة إلى جميع المحدثين والمؤرخين هذه الخصائص التي امتاز بها الزيدية الأوائل قبل أن يفرد باباً مفصلاً للرجل الرئيسي الذي يهيم أمر البحث فيه، نعي القاسم بن إبراهيم (٧٨٥ - ٨٦٠). وكان هذا قد عاش فترة في مصر ثم مضى إلى الراس بالقرب من المدينة. وقد ظل عدد كبير من مؤلفاته الأخيرة بالعالم محفوظاً، وقد ازداد أسلوبه سلاسة مع مرور الزمن. وقد اختلف في معالجة بعض المسائل الشرعية الأساسية عن غيره من علماء الزيدية الآخرين، كما يتضح ذلك من مخطوطات أعماله المحفوظة في برلين. ويدرس مادولنج في كتابه مبادئ الأمامة: فأساس الإيمان بالنسبة للقاسم يقين من الله، بينما يشكك البرهان على وجود الله من نظام العالم. وقد درس القاسم صفات الله بالتفصيل ورد على الآراء التي تتعارض وتعالجه. ويؤمن القاسم كذلك بعبد الله، مما يتضمن حرية الاختيار أيضاً، أي أنه أخذ بوجهة نظر المعتزلة في ذلك، رغم أنه اختلف ضمه في مسائل أخرى. ومن مبدأ العدالة الإلهية يشتق مبدأ الوعد والوعيد. وقد خصص ثلاثاً من رسائله لتحجيد القرآن. وفي الظلم الذي يعم العالم الإسلامي، على حد رأى الإمام القاسم، يجب على المسلم الحق أن يرحل - وألا يخرج بالسيف في وجه الأئمة الباطلين، بل أن يهجر موطنه - ومن ذلك نشأت الممالك الزيدية على أطراف العالم الإسلامي. والصفة المميزة للإمام هي القرابة من الرسول وكما الحكمة. ولكن لا يجوز رفع مقام الإمام عن مقام الرسول كما يفعل الرافضون ذلك. وإن ما يسم القاسم هي إمامة العلم وليس إمامة الحكم الدنيوي. وقد كان كذلك واعظاً أكثر منه مذهبياً لكل فكرة أساسية من علماء المعتزلة المذهبيين، لدعم تعاليمه، وإن عملية استقبال تعاليم المعتزلة هذه تشغل تاريخ القرن التالية.

وقد اضيفت في كتاب مادولنج إبحاث تاريخية أخرى حول قضايا خاصة تتعلق بالمذاهب الإسلامية، كما أن فهرس المراجع والمؤلفات والمخطوطات الوافر يظهر مدى العناية والدقة اللتين بذلها المؤلف في جمع وتقديم ما صعب مثاله وما نأى من المخطوطات حول تاريخ الزيدية ونظرياتها المذهبية. وبذلك يصبح هذا الكتاب كنزاً للمعلومات الهامة بالنسبة لتاريخ الفكر الإسلامي وثقمة للطريق التي بدأها الأستاذ شترتمان قبل أكثر من نصف قرن في هامبورج في استقصاء الزيدية ودراستها.



صورة مومياء: لرجل من النوبة؛ وجدت في سقريات حواره، وهي محفوظة في متحف برلين (العدد ١١٦٧٣).



صورة مومياء، من عصر الامبراطور هادريان (١١٧ - ١٣٨) على غشب مذهب. وهي محفوظة في متحف بروكلين (عدد ٤٠٣٨٦)، نيويورك.

Klaus Parlasca: Mumienporträts. كلا الومنين مانعوف عن كتاب :  
نشكل دار نشر فراكتس شتاينر في فيز يادن لإمارتها لنا كليكشيات هاتين الومنين.

إن الصور المخصصة للبحث المخططة كما وجدت في مصر منذ عهد الحكم الروماني فيها، لتعد ميدانا مشوقا يقع على الحدود بين تاريخ مصر القديم وتاريخ الفن الكلاسيكي. وكانت تلك اللوحات في أحسن أزمان تطورها ترسم على خشب ممتاز وتثبت فوق الجبش بعد تخطيطها. ويمكن الاطلاع على الأشكال السابقة على تلك المرحلة في صور الكنان التي كان يقط بها المومياة مباشرة، قبل وضعها في داخل القناع الذي يغطيها على شكل صندوق من الخارج. وقد عثر على هذا النوع بالذات من لوحات الجبش المخططة في منطقة القيوم بالدرجة الأولى، بينما كانت أقمعة الموتى في مصر العليا تدهن عادة بالملأ.

وقد جمع المؤلف العلامة في كتابه الضخم ذى الحجم الكبير، والذي أصدره معهد الآثار الألماني، كل ما توصل إليه البحث العلمي الحديث حول صور الجبش المخططة في عصر الرومان وما اتصل بها من ظواهر آخر. وقد اشتهرت هذه الصور لأول مرة في عام ١٨٨٧ حين اكتشف في منطقة مقابر الربويات بالقويم عدد كبير منها. وإن أكثر ما سبق أن جمعه التاجر تيودور جراف من هذه اللوحات موزع اليوم في متاحف العالم، كما انضم إليها الكثير مما عثر عليه حديثا في هذا المجال. وبالطبع كانت الجبش المخططة ذات اللوحات المذكورة أندر بكثير من سواها المخططة فقط. ذلك أن إنتاج الصورة في تلك العصور كان يكلف أموالا طائلة. ويكفي أن مجرد تخطيط الجبشة كان يقتضى أكثر من دخل عامل زراعى في عام كامل! ويزيد على ذلك تكاليف الصناعة الفنية ووفرة الذهب المستعمل في تلك اللوحات البارزة..

وبعالم المؤلف كافة الموضوعات المتصلة بهذه اللوحات، كسألة تأريخها التي يتعين اللجوء إليها لتحليل دقيق لنوع الملابس ونقشة الشعر، وهنالك جبش مسمية، وأخرى تعرض صور ضباط وكهنة، ثم كيف نشأ هذا الطرز الفني الذي لا بد أنه تأثر بالرومان. وقد ثبت بالفعل أن المومياة كانت توضع بشكل قائم بحيث تقابل المشاهد لوحها المجسم. ويرى المؤلف أنه في كثير من الحالات كانت تلك اللوحات تعد لأصحابها أثناء حياتهم. ويغرد الكاتب دراسة خاصة للمكتشفات الأثرية التي تمت بالقرب من تل العمارنة، في أنتيويوليس، أى خارج نطاق الفيوم. ثم يحلل في نهاية الاجابة على السؤال عن مدى إمكان اعتبار أقسام الجبش المرسوم عليها مراحل سابقة على رسم المرحلة لشخص معين.

وهو يرى أن نهاية هذه العادة التي كانت تقضى بتزويد الجبش بالصور المرسومة للفقيد، كانت على يد القيصر تيودوسيوس، الذي قضى - في عام ٣٩٢ م - بعقوبات رادعة على كل من يمارس تلك الشعائر الوثنية.

وإن احتواء هذا الكتاب على بليوغرافيا تحليلية دقيقة، فضلا عن عدد كبير من الفهارس والمراجع الفظفية ليجعله مرجعا لا غنى عنه لكل مهتم بالفن المصرى والرومانى. وإن اللوحات المنشورة في هذا السفر - ٨ صور بالألوان و ٦٢ بلا أوان - بالإضافة إلى عشر رسومات مصورة للنص، لتجعل القارئ المتخصص بحس بروعة تلك اللوحات القديمة التي كثيرا ما تبدو لنا حديثة العهد.

Arabien. Mit einer Einleitung von Professor Dr. Hermann Wismann. Dokumente zur Entdeckungsgeschichte. Band I. Henry Goverts Verlag, Illustriert, Stuttgart, 1965.

نجد هنا مجموعة من التقارير عن شبه الجزيرة العربية، ابتداء بالرحلة الاستكشافية التي أمرت بالقيام بها الملكة حتشبسوت في عام ١٤٩٣ ق.م. وقد صورت بعض هذه الأخبار بكتابات بارزة أو منحوتة على جدران معبد دير البحرى، حيث نعر في هذا الكتاب على بعض لقطات منها.

ويمتاز هذا السفر بكثرة الشواهد التي تنمى من ابن بطوطة ويبيور حنى العصر الحاضر. ومن خلال ثبت المراجع الوارد في مؤخره الكتاب، نستطيع دراسة مصادره والتحقق منها على صورة أدق، وأن نستكمل ما قرأناه من أخبار ومعلومات عن الجزيرة العربية بما أتى به الرحالة الآخر.

والمؤلف - هرمان فون فيشمان - الذى يعد بنفسه من فطاحل الدارسين لشبه الجزيرة العربية قد وسع تاريخ اكتشاف هذه المنطقة حتى جملة جزءا من حضارتها.

وتكفل الصور المحفورة بالطرق الحديثة النص الجليل لهذا الكتاب على أحسن وجه.

في هذا البحث المتعمق، الذي يزيد حجمه عن ٤٠٠ صفحة، يعرض فيشر، تلميذ المستشرق المعروف هانس فير، والأستاذ بجامعة إرلانجن، تحليلاً دقيقاً للصفات باللغة العربية من صيغة أفعال، وهي التي تعرف عامة باختصار بكونها: «صفات الألوان والعلل». وقد قام الباحث بتحقيق بالغ لمادة اللفظ في الأدب العربي القديم مكنه — بالاستعانة بالمناهج الحديثة لعلوم اللغة — من أن يتجاوز في كثير من الحالات ما ورد في القواميس العربية القديمة من معاني للمفردات العربية. وحتى يبين المؤلف علاقات مجاميع المعاني المختلفة والخاصة بالصفات التي تتخذ صيغة أفعال، أورد لنا في القسم الأول من كتابه بحثاً مستفيضاً عن نظام الاشتقاق وما يترتب عليه من صيغ أفعال الوصفية التي يمكن أن يكون لها علاقة بأسماء أفعال التفضيلية.

وهو يبحث أولاً صيغ أفعال في اللغة العربية القديمة والحديثة، ثم توزيعها في العربية المعاصرة، ويعود لمخصص قيمة ما تورده القواميس العربية المنسوبة إلى التراث القديم من معاني لكلمات كأزرق وأسمر وجز، ويقوم بعد ذلك بوصف مضامينها وتحديد معانيها على نحو جديد دقيق، مستشهداً بعدد كبير من أمثلة البيان العربي. فثلاً كلمة أزرق تعني في الأصل بريقاً ولحماً، ثم استعملت فيما بعد بمعنى «ذي العين الزرقاء الخاطفة البريق» ثم بمفهوم الزرقاء كلون. وهي تصف كافة درجات خفة اللون في العين. — بعد ذلك يتطرق فيشر إلى بحث تعريف الأشكال المتعلقة بخواص الجسم، وهي التي تصف أحد أجزائه أولاً ثم حامل ذلك الجزء بعد ذلك، فثلاً أنخر (من العين) ويقال «إنسان أنخر ذو نظرة مسربة». (وهي مشتقة من خنزير). «هنالك الكثير من الصفات المصاغة من الأسماء حيث تعني «التميز بأحدى الخواص» مثل «أعنت» باعتبارها «تميزاً بالعنت».

يعالج المؤلف بعد ذلك خواص الشكل والسلوك والألوان، وبلدق البحث في صفات أفعال ونشأتها مستعينا في نفس الوقت ببعضها من الصفات والأسماء. وإن المادة الفنية التي يكتنزها القسم الأول من هذه الدراسة العلمية لتقدم لكل مشتغل بالأدب العربي القديم العون كل العون. — أما القسم الثاني من هذه الرسالة فيقتصر على معالجة تعاريف الألوان في لغة الأدب العربي القديم. وإن تعدد معاني الكثير من كلمات الألوان في الأدب العربي القديم قد أثار اهتمام العلماء منذ زمن بعيد. واتضح «فيشر» أنه لا يوجد من الألوان الأساسية بيجوار الأبيض والأسود، باعتبارها يدلان على درجات الفاتح والغامق، سوى الأخضر والأحمر والأصفر. علماً بأن الأخضر يعتبر من محاله الداكن، و الأحمر والأصفر يعبران عن المجال الفاتح ومن المعروف أن الحضارات القديمة — واليونانية من بينها — لم تميز الألوان في مجالاتها الداكنة مثلما كانت تفعل بالنسبة للآخرى الفاتحة. ويقدم الكتاب مزيداً من المعارف الدقيقة حول هذا الموضوع عن طريق إيراد صفات أخرى ثانوية. وهكذا يتوصل فيشر إلى النظام الخاص للألوان عند العرب القدماء (ص ٣٨٢).

ثم يبحث المؤلف العلامة في ملحقين صيغ أفعال إيجابية وهي أفعلي وفعل (خاصة لأنواع الطيور)، وكذا صيغ أفعلائي المزدوجة، مثل إيهان. ولا يستحق هذا الكتاب النقيص أن يحظى باهتمام علماء اللغات فحسب، وإنما أيضاً بتقدير كل مهتم بالأدب العربي أو بتاريخ الحضارة عامة.

Max Weisweiler: Arabische Märchen. Band 2. Verlag Eugen Diederichs, Köln 1966.

نود أن نسرع في نظر القارئ: إلى أنه قد صدر ضمن سلسلة كتب «أساطير من الأدب العالمي»، التي تصدر الآن في طبعة جديدة عن دار نشر «أولين ديدريتش»، الجزء الثاني من مجموعة «الأساطير العربية»، حيث كان قد نشر الجزء الأول منها في عام ١٩٦٥. وهي ليست هذه المرة أساطير شعبية بقدر ما هي حواشي وقصص مختلفة من بحر الأدب العربي الفسيح. ومن بين المصادر التي استقى منها المترجم الألماني نصوصه: كتاب الأغاني لأبي القرق الأصفهاني، القرق بعد الشدة للتوشى، العقد الفريد لابن عبد ربه، كتاب الحيوان للدميري، روض الريحاني للباقي، وقد جمع هذه الخرافات وترجمها إلى الألمانية ماكس فايسفايلر Max Weisweiler الذي ندين له بعدد كبير من التراجم الألمانية من الأدب العربي التقليدي (ككتاب طوق الحمامة لابن حزم). وقد زود فايسفايلر ترجمته لهذه الأساطير بعدد كبير من الملاحظات والشواهد مما يجعلها تفيض بالفكر على قارئ الخرافة وتقيد باحث الاسطورة في آن واحد.



يوهان آدم كلاين : أتراك ثلاثي في جلسة على مقهى في مدينة فيينا (لوحة بالألوان المائية) فيينا ١٨١٧.  
من كتاب :

Dr. Wilhelm Schwemmer: Johann Adam Klein (1792-1875). Ein Nürnberger Meister des 19. Jahrhunderts. Verlag Hans Carl, Nürnberg 1966.

نذكر دار نشر هانس كارل لاعتنائها لنا بكيفية هذه الصورة.

E. A. Kömürcüoğlu, Das alttürkische Wohnhaus. Verlag Otto Harrassowitz, Wiesbaden 1966.

ما هو جدير بالثناء أن يقدم لنا إحصائي تركي في تشييد المدن بحثا جامعا وملخصا للعمارة التركية في القرن الماضي. وإن وجدت هنالك دراسات سابقة عن أنواع مختلفة من الدور في شتى المناطق التركية، فانا نمر هنا على محاولة لعرض أهم الأنماط المعمارية السائدة في جميع أنحاء تركيا. ويعين على فهم النص بصورة أوضح عدد كبير من الصور الفوتوغرافية والرسوم التخطيطية لواجهة الدار وتوزيع مساحتها الداخلية. ويميز المؤلف بين شكل الدور في جنوب شرق تركيا، حيث يتوسط البيت فناء رحب، وبين العمارة العادية التي يخرج فيها الطابق العلوي على الذي يدنو. ولعلنا نرى المقدمة العامة للكتاب على شيء من السطحية خاصة حين تذكر وأن الإسلام يتطلب من المؤمنين به أن يقتتلوا من الرأس حتى القدم خمس مرات في اليوم قبل كل صلاة... وربما كان من الأفضل في رأينا لو استعينا هنا بالمقال القيم الذي كتبه امل اسين عن سعد الله باشا ياليسى (من جنكلكوي) الوارد ذكره في هذا السفر. وفياعدا ذلك يبدو لنا عرض الكتاب لفنون العمارة التركية دقيقا ومفيدا.



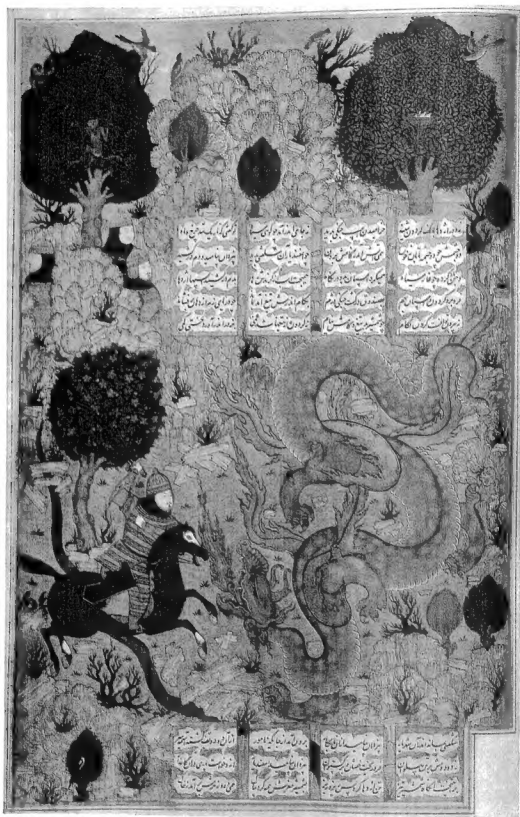
الكيب الذى بين أيدينا امتداد لما صدر قبله من كيبات شبيهة اختص كل منها بترجمة الألفاظ المستعملة في فرع معين من فروع العلوم. وقد سبق أن أثبتنا عليها في مثل هذا المكان من «فكر وفن» - العدد ٤٦، ورجونا لهذه السلسلة أن تقدم في رسائلها الحميدة. وما نحن نستقبل الكيب الرابع منها، وهو الحائى على ترجمات عربية ويونانية لاصطلاحات علم الفيزياء في اللغة الألمانية - ولا يفتي أننا نود هنا التعرض للترجمات العربية، إلا أننا نفاجا أثناء نقله بالكثير من الترجمات التى كنا نرجوها أن تكون أفضل وأدق من ذلك، فثلا في ص ٦ نجد أمام كلمة Anodenspannung الترجمة التالية: التوتر الكهربائى بين القطب السالب والموجب؛ وصحفا: الجهد الكهربائى بين القطبين السالب والموجب؛ والفارق بين التوتر والجهد الكهربائى هنا هو أن «جهد» هى الكلمة الاصطلاحية باللغة العربية في مجال الكهرباء، أما استعمال لفظة «توتر» فبعد عن ميدان الكهرباء وقرب من المفهوم العام لكلمة Spannung الألمانية في الحياة اليومية. وفي ص ٧ أمام كلمة Argon الترجمة التالية: غاز خامل، وكان يندر أن يعطى الاسم العربى لهذا الغاز: الأرجون، وأن يوضع العبارة التى تعرفه بين قوسين هكذا: (غاز خامل). وفي ص ٢٤ نعر أمام كلمة Essigsäure على الترجمة التالية: حامض الخل؛ وصحفا: حامض الخليك. ونجد خطأ شبيها على صفحة ٥٨ حيث ترجمت Schwefelsäure بحامض الكبريت؛ وصحفا في اللغة العربية: حامض الكبريتيك، ذلك أن للكبريت حوامض كثيرة أحدها الكبريتيك، وهو المقصود هنا. ونلاحظ عامة أن الترجمة في هذا الكيب تلجأ إلى العبارات العربية الشائعة الاستعمال في مختلف أغراض الحياة اليومية بدلا من الإتيان بالاصطلاحات الخاصة بعلم الفيزياء الحديث في اللغة العربية، وهى التى يبدأ الطالب العربى بالتعرف عليها وهو لا زال في المدرسة الثانوية. فثلا كلمة Härte - ص ٣٣ - تقابل بالعربية الاصطلاحية في مجال الفيزياء كلمة «عسره» وليست وقساوة كما أتت في الترجمة.. إذ يقال «عسر الماء» وليس «وقساوة الماء». وعندما تطلعا إلى ظهر الغلافه الأولى من هذا الكيب نرين لنا سر هذا الخطأ: فأسماء المترجمين هى نفسها التى سبق أن تكررت في الكيبات الثلاثة الماضية رغم اختلاف الميادين العلمية التى تعالجها بحيث يندر أن يتخصص فيها جميعا نفس المترجم. ولعله كان من الأفضل أن يختار لكل كيب عالِم مصطلحات فرع علمى جديد مترجمين عرب سبق أن تخصصوا في هذا العلم أو تفرسوا به وبلغته العلمية على الألف.. ولما كان من المتعذر أن يستعمل على المترجم أن يكون متخصصا في جميع الميادين العلمية، فانه يفضل دائما، وخاصة بالنسبة للقواميس الفنية، الاستعانة بأهل الاختصاص.. وهو ما نرجو أن نراه في الكيبات القادمة من هذه السلسلة النافعة..

(محمد يوسف)

Der arabische Dialekt von Bismizzen. Herausgegeben von Michel Juba, Beirut 1964; in Kommission bei Franz Steiner, Wiesbaden. تأليف ميشال جوبا.

كانت اللهجات العربية العامية في الأعوام العشرة الماضية موضوعا مرغوبا فيه للبحث لدى علماء اللغة، وبعد نشر عدد لا بأس به من البحوث في اللهجات الاقليمية على العموم وتحليلها وأثبت قواعد اللغة فيها، جاوز الفيزيون ذلك إلى درس فروع هذه اللهجات، وإظهار الفرق بين لهجات المدن والقرى في البلاد ذاتها. ولا شك أن هذا الجهد لا يزال في بدئه نشأته. وعند بحث اللهجات اللبنانية، لم يكن الموقع الجغرافى للبلدة هو الدافع الوحيد لجعل لهجتها موضوع بحث لغوى، بل لعب المذهب الدينى الذى يعتنقه سكانها دورا مهما، لأن هناك علاقة حميمة بين تطور اللهجة وبين النحبة المتبعة. وقد صدرت بحوث في لهجة كل من سكان كفر عبيد وزحلة وطرابلس، والبحث الذى بين أيدينا يتناول لهجة قرية ارثوذكسية تقع على بعد ١٥ كيلومترا جنوبي طرابلس (ومن المعروف أن عدد الأرثوذكسين في لبنان يبلغ ١٥٠ ألف نسمة يسكن معظمهم في البقاع). ومولف هذا الكتاب من أهل هذه القرية، نشأ وترعرع فيها، ودرس في بيروت ثم في ألمانيا عند المستشرق المعروف هانس وير، الذى شجعه على القيام بدراسة لهجة بلده، فجاءت بحثا دقيقا للغاية ومصدرا وثيقا لمن يهتم باللغات الدارجة. والكتاب ينقسم الى قسمين: الأول من صفحة ١ - ١١٣ وفيه تصوص باللهجة القرية مع ترجمتها الألمانية، وهى عبارة عن ٢٥ قصة مشوقة لأحد عشر شخصا من أهل القرية، لها قيمة من الوجهة الاجتماعية واللغوية على السواء. والقسم الثانى (صفحة ١١٥ - ١٨٢) يحتوى على قواعد اللفظ والصرف ولا يتصداها إلى النحو لأن الاختلاف بين اللهجات معظمه في مضماري اللفظ والصرف.

(رمضان عازر)



قتال اسفندیار مع ایتین.

عن مخطوطة شاه نامه لای القاسم فردوسی، دولت عام ۱۰۲۳ / ۱۶۱۴ م فی مدينة اسفهان، ایران. وهي محفظة فی نیویورک، لدى Spencer Collection, The New York Public Library. التي صرح لنا بنشرها.

نشر کلک دار نشر بروکمان F. Bruckmann بمюнخن لاعارضا لنا کلیشه هذه الصورة.

Grace Rasp-Nuri, *Brücke in die Fremde*. K. Thienemann Verlag Stuttgart 1966.

إنه لما يتلج المصدر أنه قد صدر في هذا العام كثير من كتب الشباب التي تدور حول الشرق. وأحد هذه الكتب يقلم الأديبة الإيرانية الأصل جريس راسب - نورى، التي تعيش في ألمانيا منذ سنوات طوال حيث اشتهرت بقصصها المستمدة من حياة الشعب في الأناضول. وتعرض المؤلف في هذا السفر، الذي يمثل يوميات طالبة ألمانية في تركيا، لتوتر الصلات بين أوروبا والشرق والمسيحية والإسلام. فالفتاة الألمانية تحب هنا شابا تركيا وتتعرف على كافة مناحي الحياة في ذلك البلد، ولكنها تلقى عدم التقبل من مواطنيها لتصرفها هذا. والكتاب يختلف في ذهن القارئ صورة متغلغلة في أعماق حياة الأتراك والعقليات السائدة بينهم. وهو بعد ذلك مناسب تماما لتعريف الشباب الغربي بعالم الشرق في حنو كبير.

Hans Henle, *Der neue Nahe Osten*. Holsten-Verlag, Hamburg, 1966.

يتميز هذا السفر عن سواه من كتب الرحلات المألوفة بسعة معارفه التاريخية عن العالم العربي. هذه المعارف التي تمتزج فيه - كما هو الحال مثلا في كتاب أرنولد هوتينجر - من خلال الملاحظة والتجربة الذاتية للأطراف المعروضة، مكونة وحدة متداخلة تجعل من هذا السفر مرشدا رائعا ومرجعا قويا. ولعل بعض القراء قد لا ينتفعوا مع المؤلف في كل نقاط كتابه. إلا أنهم لن ينكروا عليه نزعة الموضوعية المخلصة.

Hermann Schafjer: *Im Lande der Könige*. Verlag Eugen Diederichs, Köln 1966.

تقل المؤلف كثيرا في أنحاء إيران، حيث تتميز أفلامه التلفزيونية التي أعدها عن هذا القطر بتغلغل العميق في عقلية الفرس. وما هو ذا قد وضع أفكاره وخبراته في كتاب يعنى بالدرجة الأولى ببلاد العجم القديمة وملوكها السوالف، وإن لم يغفل ظروف المجتمع الحديث في إيران. كما يحاول أن يعالج مشاكل البدو الرحل الذين عاش معهم طويلا. ومن أطرف ما جاء في كتابه وصف حياة المعتقدين بدین زرادشت في يزد، وهم الذين اختصوا بأكر حبه وميله. على أن أمتع فصول الكتاب هو ذلك الذي يصف فيه «أبراج الصمت» التي شاهدها عن قرب كما يندر أن يشهدها غريب. وهكذا يقدم الكتاب لجمهور القراء نظرة مليئة بالحلب في مختلف أحقاب التاريخ الإيراني مارا بعاهلي الأخمينيين وأمراء البدو الرحل حتى حكام إيران المعاصرين.

Eberhard Rhein/A. Ghanie Ghaussy, *Die wirtschaftliche Entwicklung Afghanistans 1880-1965. Schriften des Deutschen Orient-Instituts: Monographien*. C. W. Leake Verlag, Opladen, 1966.

إن أفغانستان من أكثر أقطار آسيا التي تجذب الاهتمام من وجوه عدة، فهي لا تعنى عالم الآثار ومؤرخ الفنون وحسب، وإنما هي تمثل كذلك بالنسبة لباحث الاقتصاد القوي منبعا فياضا بالانكشافات. فلازل الاقتصاد الأفغاني، شأنه في ذلك شأن مجتمع ذلك القطر، بحاجة كبرى إلى البحوث العلمية، لاسيما وأن بياناته الإحصائية تكاد أن تكون في مجموعها إما غير كافية أو غير موثوق بها.

ولعل فضل إيريهارد راين يرجع إلى التثبت من صحة هذه البيانات وتوسيع مداها بحيث صارت بمثابة تتبع وصفي لاقتصاد هذا القطر منذ نهاية القرن ١٩ حتى اليوم. وهو يتعرض في هذا السفر للزراعة والصناعة والتجارة الخارجية والمواصلات، والشئون المالية والقضائية. وقد أضاف ع.ج. غاوى A. G. Ghaussy إلى كل ذلك فصلا في النظام الريوي المتبع بأفغانستان. وفي الفصل العاشر من هذا الكتاب تعرض نتائج هذه البحوث وإمكانات تطويرها في المستقبل. كما يتم هذه الدراسة الجادة ١٤ جدولا وخريطة لأفغانستان وقائمة بالمراجع الهامة عن ذلك البلد.





Weimar, Goethe-Haus. Bibliothek.  
Foto: Klaus G. Beyer, Weimar (1966)

المكتبة في دار جوتة بمدينة فايمار.  
تصوير : كلاوس ج باير (١٩٦٦)

# FIKRUN WA FANN



ÜBERSEE-VERLAG · HAMBURG